رحلتي الى العراق

سنة - ١٨١٦

لف

تأليف
جمس بكنغهام

ترجمة
سليم طه التكريتي



الجزء الأول

١٩٦٨

ساعد المجمع العلمي العراقي على طبعه

مطبعة أسعد - بغداد
١٩٦٨/٢٠٠٠/٩

الرحالة بكنغهام

١٧٨٦ ـ ١٨٥٥ م

ولد بكنغهام واسمه الكامل جمس سلك بكنغهام ، سنة **١٧٨٦** في قرية بالقرب من مدينة فالموث بانكلترا من أب مزارع ومنذ ان شب اغرم بالبحر فانقق سنوات فيه وما لبث أن انتقل وهو شاب الى الهند فاشتغل في احدى دوائر شركة الهند الشرقية الانكليزية سنوات عديدة ثم انفصل عنهـا لينشئ صحيفة « كلكتـا » Culcutta Journal وقد نجحت جريدته نجاحا كبيرا لما كان يكتبه فيها من نقد لاعمال شركة الهند الشرقية الانكليزية ويعالجه من شؤون الهند بروح فيها شيء كثير من العدل والانصاف .

وقد أثارت انتقاداته تلك غضب السلطات البريطانية في الهنـد وضاق به « جون آدم » نائب الحاكم البريطاني العام في الهنـد سنة **١٨٢٣** ذرعا فعطل صحيفته وأمر باخراجه من الهند .

وعاد بكنغهام في تلك السنة الى بريطانيا ليقيم الدعوى على شركة الهنـد الشرقية أمام البرلمان البريطاني مطالبا اياها بالتعويض وقد أصدر البرلمان حكماً لصالحه في هذه القضية فألزم شركة الهنـد الشرقية بأن تدفع للمستر بكنغهام تعويضاً ماليا بمبلغ مائة باون في السنة .

وكان بكنغهام حتى اثنـاء عمله في شركة الهنـد الشرقية كثير التطواف والترحال يغتنم ما يتجمع لديه من اجازات سنوية لينفقها في رحلة من رحلاته البعيدة المحفوفة بالمخاطر والأهوال .



ولقد كانت البلاد العربية قبلة انظاره في رحلاته وأسفاره تلك . وقد بدأ أولى رحلاته العربية بمصر سنة ١٨١٢ م فطاف بها منحدرا بعكس مجرى النيل من بورت سعيد حتى جنوبي أسوان مستوضحا عن اماكنها الأثرية بصفة خاصة ومدوناً أحوال السكان أثناء اتصاله بهم في تطوافه وفي حله وترحاله وقد طبع رحلته تلك في جزئين كبيرين .

وفي سنة ١٨١٤ قام برحلة اخرى الى فلسطين وشرقي الاردن واخرج مشاهداته وملاحظاته في تلك الرحلة في كتابين أيضا .

وفي سنة ١٨١٦ بدأ رحلته الى العراق عن طريق سورية فعبر البادية الى سنجار ومنها الى الموصل ثم دخل بغداد عن طريق الموصل ، أربيل ، كركوك . وبعد زيارات خاطفة لعكركوف وآثار بابل استقر بضعة أيام في بغداد ليغادرها الى الهند عن طريق ايران .

وقد أصدر مجلدين عن رحلته الى العراق ، كما صدرت رحلته عن ايران في مجلدين أيضا . وضم كتابه عن ايران فصولا خاصة عن البصرة والخليج العربي .

كما أصدر بعد ذلك كتابا جديدا باسم « رحلات بين العشائر العربية » تحدث فيه عن تطوافه بين العشائر العربية على امتداد فلسطين والأردن وسوريا والعراق .

وحين استقر به المقام في انكلترا أصدر هناك جريدة باسم « صوت الشرق Oriental Herald في سنة ١٨٢٤ ثم أعقبها باصدار صحيفة Athenacum سنة ١٨٢٨ لكنه لم يلق نجاحا يذكر في ذلك .

وقد انغمس بكنغهام في هذه الفترة من حياته انغماسا واسعاً في حملة الاصلاح الاجتماعي في بريطانيا فاشترك في عدة جمعيات ونواد لهذا الغرض ، وكان صوته من أقوى الأصوات المطالبة بالاصلاح في البرلمان الانكليزي عندما اختير عضواً فيه عن دائرة شفيلد في الفترة ما بين ١٨٣٢ و ١٨٣٧ م .

وقد جارى الطوبائيين فيما كانوا يفكرون فيه فأصدر في سنة ١٨٤٨ كتابا تحدث فيه عن مجتمع تعاوني متحرر متآلف متكاتف . وكان عنوان كتابه هذا « الشرور الاهلية والعلاجات العملية لها : مخطط لاقامة بلدة نموذجية » .

وعكف في السنوات الاخيرة من حياته على وضع سيرته الخاصة به وكان مقررا أن تقع هذه السيرة في أربعة مجلدات لكنه لم يكمل منها سوى مجلدين قبل وفاته سنة ١٨٥٥ .

ومما تجدر الاشارة اليه ان كلا من كتبه قد طبع أكثر من طبعة واحدة في حياته ومنها رحلته الى العراق التي صدرت الطبعة الأولى لها سنة ١٨٢٧ .

سليم طه التكريتي

الفصل الأول

من نصيبين عبر سهل سنجار*

الأول من تموز سنة ١٨١٦م

شرعنا نوسق ابلنا بامتعتنا عند منتصف الليل مباشرة • حتى اذا بدت أولى تباشير الفجر بدأ سفرنا جميعا • كان طريقنا في السهل يتجه شرقي الجنوب الشرقي • فالى يسارنا أو الى الشمال كانت ترتفع سلسلة من التلال امتدت من مدينة « دارا »[١] ** شرقا وتقع في هذه السلسلة جملة من القرى لم نعرف أسماءها • اما الى يميننا أو الى الجنوب فكان جبل « سنجار » الشاهق ينتصب في سهل صحراوي وقد بدا وكأنه لا يبعد عنا الا حوالي أربعين ميلا أو خمسين ميلا • وكانت الارض المستوية ما بين ذلك أشبه ببحر رحب تناثرت على صفحته الصخور والجزيرات •

ويظهر ان هذه التلال الصغيرة كانت ، في عدة حالات ، من صنع الانسان وقد اختيرت مواقع للقرى على الدوام لكي تكون في مزيد من الامن ، والاستعداد لرد اي خطر مداهم •

---

* بدأ المستر ج. س. بكنغهام رحلته هذه في الاصل من مدينة حلب في السابع والعشرين من أيار سنة ١٨١٦م وبعد ان عبر نهر الفرات اتجه نحو اورفه [اذسا] داخل الحدود التركية الحالية ثم سار منها الى ماردين فديار بكر • ومن ديار بكر كر راجعا الى ماردين فمدينة نصيبين ومن هناك عبر الحدود العراقية الحالية متخذا طريقه عبر سهل سنجار حتى الموصل • [المعرب] •

** لقد اوردت شروح المواقع والاشخاص والتعليقات على بعض اقوال المؤلف في نهاية كل فصل من فصول الكتاب مرقمة باعداد متسلسلة فلينتبه الى ذلك القارىء الكريم [المعرب] •

بعد ان سرنا ساعتين وصلنا الى قرية على رابية مشرفة تدعى « تل الشعير »[٢] وكانت المنازل القليلة الظاهرة فيها أشبه بمخازن الغلال المستطيلة الشكل في المزارع الانكليزية ، وهي مغطاة بسقوف منحدرة من القش • اما السكان ، وكلهم من الاكراد ، فكانوا يسكنون الخيام بصفة رئيسة ولذلك كانت معظم هذه المنازل غير مأهولة ولربما كانت هذه الابنية خاصة بخزن الحبوب على وجه التأكيد • وبعد مسيرة ساعتين من تلك القرية ، ونحن نتعقب ذات الطريق ، مررنا بمكان آخر يدعى « ضيعة خليف أغا » وهو اسم الرئيس الذي يقيم فيها • وتقع هذه القرية أيضا على رابية أصغر من الاولى وتضم نحو خمسين بيتا غير ان حوالي مائة خيمة كانت قد نصبت بجوارها •

وقبل الظهيرة تماما بلغنا قرية اخرى تدعى « دوغر »[٣] أمضينا فيها بقية النهار • وقد لاحظنا ان جميع هذه القرى متشابهة في مظاهرها ، وهي تقوم على أراض مرتفعة ، ولكل منها جدول ماء قريب يأتي من ناحية الشمال ، اضافة الى وجود آبار لكل منها يتزود منها بالماء حين تجف النهيرات ، وتنفد مياه الجداول •

وعلى طول الطريق من نصيبين كنا نشاهد على اليمين وعلى اليسار بامتداد البصر ، قرى عديدة لكنني لم أعرف أسماءها وقد كانت آخرها وأكبرها قرية تدعى « أزرزوار »[٤] تقع على مرتفع من الارض أعلى من بقية مواقع القرى الاخرى وحين أردنا التوقف عن السير اخترنا لاقامة مخيمنا موقعا بجوار جدول ماء ينحدر من التلال الشمالية ويسير جنوبا حتى يختلط بمياه نصيبين • وعلى ضفة هذا الجدول قتل أحد أفراد قافلتنا ثعبانا أسود كبيرا يبلغ طوله تسعة أقدام واعرض جزء منه يبلغ قدما واحدا • وقيل عنه انه كان يعيش على اقتناص العضايا التي تكثر في ذلك المكان ومنها أنواع صغيرة جميلة* •

---

* تحدث « اوتر » (٦) في رحلته عن ثعبان سام عشر عليه بالقرب من قرية « چمـن » (٧) التي لا تبعد كثيرا عن نهر الزاب الصغير • وقد ثبت ان ان لدغته تسبب الوفاة في مدة ساعة واحدة • وقد جاء في حديث « اوتر » عنه قوله « ما ان بلغنا هذا الموضع حتى ذهب احد الفرس لاقتطاع بعض الحشائش

وما كدنا نضرب خيمتنا حتى هبطت علينا من التلال الشمالية جماعة تضم حوالي خمسين فارسا يمتطون خيولا جميلة وهم مسلحون برماح طويلة • وكانت أردية بعض تلك الخيول ثمينة وفاخرة كما كان بعض البارزين من اولئك الفرسان يرتدون ملابس فخمة •

كان مظهر اولئك الفرسان محترما في الواقع ، ولم يسبق لنا أن شاهدنا أمثالهم في طريقنا • لقد كانوا جميعا من أتباع « خليف أغا » زعيم جماعة كبيرة من الفرسان في هذه المنطقة • وقد قيل عنه انه من أقوى الرؤساء الذين يقطنون المناطق الممتدة ما بين « اورفه »(٥) والموصل •

كان بين أفراد هذه الجماعة صبيان صغيران لا يزيد عمر الواحد منهما عن عشر سنوات ومع ذلك كانا يمتطيان صهوتي جواديهما بثبات ، ويحسنان استعمال رمحيهما ، واطلاق نيران مسدسيهما بمهارة فائقة مثل بقية الفرسان ، وكانا يظهران ـ عند الحاجة ـ الشيء الكثير من الشجاعة أمام الغرباء • كان أفراد الجماعة من الاكراد فقد لاحظنا فيهم استدارة الوجوه وهي أقرب الى السحنة الاوربية منها الى السحنة الاسيوية حين تقارن بوجوه العرب المستطيلة الوجيهة •

وكانت مظاهرهم جميلة مثل مظاهر الانكليز ولو ان عيونهم وشعورهم كانت سوداء • وكان لباسهم مزيجا من اللباسين التركي والعربي وان كان أكثر

من على ضفة النهر ، فلدغ يده ثعبان • وحين صرخ عاليا هرع الجمع برماحهم وفؤوسهم الى مكان الحادث ، وخيل اليهم انهم قد وقعوا فى كمين نصبه لهم الاكراد ، لكنهم حين اقتربوا من الحشائش شاهدوا رجلا يرتعد والزبد يخرج من فمه وكأنه قد اصابه مرض شديد ، كانت ذراعه قد تورمت واسودت من شدة الالم • وحين ابتعدوا عنه بضع خطوات شاهدوا ثعبانا كبيرا فانهالوا عليه بالضرب وقطعوه اربا • ولم ينفع الترياق ، ولا المواد المضادة للسم التى اعطوها لذلك الرجل قط ، اذ توفى بعد مرور ساعة على اصابته •

[اوتر : الجزء الاول صفحة ١٤٩]

Otter. Tome i p. 149

ميلا الى الطراز العربي • وكان كثير منهم يلبس في آذانه أقراطا من الذهب وتلك هي عادة الهنود قبل أن تكون عادة العرب أو الاتراك •

كان الاستقبال الذي لقينا به رئيس هذه الجماعة في خيمتنا أشبه باستقبال رجل يدين له الجميع بالطاعة المطلقة • وكان كل واحد في القافلة يحاول أن يفهم الرجل ، بكل ما يمكن أن يعبر عنه الشعور بالخضوع ، بانه هو السيد المطلق التصرف بأرواحهم وفي أموالهم •

اختار هذا الرئيس من بين أفراد حاشيته رجلا كان في مظهره أكثر خسة من بقية رفاقه ، فأوكل اليه أن يقوم بتفتيش امتعة القافلة • وحين كان هذا يؤدي عمله كان الرئيس قد القى بنفسه على سجادة في أرض الخيمة ، وأقبل عليه أنصاره فتحلقوا حوله •

وفي ضوء ما بينه ذلك الذي فتش أمتعتنا تقرر أن يدفع أفراد القافلة الفي « دولار أسباني » • اما ما يدفعه كل واحد منا فقد ترك تقديره لنا ولقد أمضينا ساعة على الاقل ونحن نحتج فيها على هذا الطلب الجائر في دفع مبلغ اعترف الجميع بعدم قدرتهم على دفعه ، حتى ان بعض أفراد القافلة خاطبوا اولئك الرجال قائلين لهم « خذوا كل شيء ، وكل ما نملك ، واتركونا عراة ، لأن هذا سيكون أقل أذى لنا ، وسيحول بالفعل دون تعرضنا للسلب على يد عصابة ثانية من قطاع الطرق الذين لابد وانهم سيخففون احمالنا اذا ما ابقيتم لنا من متاعنا شيئاً •

لم تكن هذه الاحتجاجات هي التي حملت رئيس الجماعة على ان يخفض طلبه الى الفين وخمسمائة قرش أو نحو مائة وخمسين باوناً استرلينيا ، وانما اقتناعه بعدم امكانية جمع ذلك المبلغ الاصلي • وقد اضطر الحاج عبدالرحمن(٨) ان يدفع نصف هذا المبلغ وان يجمع النصف الآخر من بقية أفراد القافلة • ولما كان عددنا قليلا ، واكثريتنا لاتقدر على تلبية تلك المطالب الثقيلة التى طلبها اولئك السلابون، فقد اضطررت ان ادفع ما لا يقل عن ثلثمائة قرش اقترضت مكرها قسما منها من الحاج عبداللطيف ابن اخت صديقى(٩) ، وذلك لان كل ماكنت احمله معى

من نقود قد نفد ، ولم يبق لدى شيء من المال سوى حوالات بأسمى يقيم اصحابها فى الموصل وبغداد •

ولقد كان المتوقع ، بعد ان تم جمع هذا المبلغ بشيء من الصعوبة وقدم في صورة نقود صلبة براقة الى الجماعة ، ان يتركونا وشأننا فى هدوء • لكن اصابتهم تلك الثروة المتألقة قد أثار أطماعا جديدة لديهم في ان يظفروا بأكثر مما ظفروا به وهكذا اتضح لي اننا أصبحنا جميعا عرضة للسلب التام •

كان الحاج عبدالرحمن قد سارع الى طرح هداياه أمام رئيس الجماعة حال دخوله الخيمة أول مرة بعد ان وطأنا المنطقة • وكانت تلك الهدايا نادرة وثمينة مما يستحق اهداؤه الى سلطان • اما الآن فان القوم قد طلبوا هدايا غيرها حيث فتحوا أكياس السلع التي لم تمس من قبل وشرعوا يفتشون فيها عن كل ما يشبع نهم ذلك السلاب الشره •

ولم يعثر في الاكياس على ما يرغب فيه • وحين اتضح له انه لن ينتفع من سلب آخر ، أخذ يتحدث عن احترام العدالة ، وانه يحترم الملكية الفردية كما سماها هكذا !

ورغم هذا التحذير من رئيس عصابة يدين له اتباعه بالطاعة في جميع الحالات فقد كان بعض أفراد العصابة يتجولون بين احمال القافلة ، وينشلون سرا ما لم يخاطروا في نشله علانية •

لقد سرقوا سرج حصاني ولجامه اللذين اشتريتهما من حلب مؤخرا وكانا ما يزالان صالحين للاستعمال • كما سلبت من شخص آخر في القافلة فرسه بكل ما كان على ظهرها من متاع • واغتصبت حوائج اخرى من اشخاص لم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم ازاء هذا السلب القاسي الذي أنزلته العصابة بهم ، وقد يئسوا من الانصاف ان هم شكوا تلك العصابة الى رئيسها • وهكذا ظل اولئك الرجال مسلطين على مخيمنا حتى المغيب حيث غادرونا والهلع يغمر نفوسنا من أن يعاودوا زيارتهم لنا ثانية قبل أن نرحل عنهم •

ولقد علمنا ان خليف أغا ذلك الرئيس الكبير ، ومعظم الرؤساء الصغار بين اولئك الاكراد كانوا من المسلمين ، في حين ان القرويين الذين يعيشون في تلك البيوت سواء في السهل أو التلال ، كانوا من المسيحيين •

والشيء المؤكد هو ان ذلك الرئيس يستطيع أن يهيىء للقتال تحت رايته عشرين الف فارس ، وانه يستطيع أن يسيطر على قوة ملحوظة تماما وان كان ذلك قد يعتبر من قبيل المبالغة بالنسبة للارقام المقاربة * •

---

* لكي نبين ان طبائع الناس ، والاخطار التي يتعرض لها المسافرون فى هذه الاصقاع لم تتبدل كثيرا منذ قرنين سلفا ، ننقل الفقرات التالية من رحلات « الدكتور ليونهارت راوولف »(١٠) سنة ١٥٧٣م حين كان فى طريقه من الموصل الى نصيبين • فقد قال « بعد ان تأخرت رحلتنا أربعة أيام تحركنا فى الحادي عشر من كانون الثانى بعزم ، وواصلنا السير بمنتهى السرعة طيلة النهار من دون ان نتناول طعاما الى ان غربت الشمس حيث اقمنا خيامنا على مرتفع من الارض قرب قرية صغيرة لكي نجعل دوابنا وسلعنا في مأمن ولنريح أنفسنا ونريحها هي • مكثنا فى الحراسة طيلة الليل • وكنا ندور حول المخيم باستمرار دورات متعاقبة يقوم بها كل ثلاثة اشخاص سوية •

وفى اليوم التالي واصلنا سفرنا بفائق السرعة أيضا بحثا عن عين ماء أو نبع مما اعتاده أ ل هذه البلاد فى الصحارى الواسعة ، بدلا من أن نصل الى نزل جيد كنا قد وصلنا اليه آخر الامر ليلا •

ولقد خيمنا على مقربة منه لنمضي بقية الليل فى راحة • وبعد وصولنا بقليل ، واذ كنا نتناول طعام العشاء ، اقبل على مخيمنا بعض الاكراد فتحدثوا الينا برقة وسألونا عما اذا كنا فى حاجة الى شيء ما يستطيعون مساعدتنا فيه • ولقد تحقق لنا انهم جواسيس بعث بهم رفاقهم ليعرفوا مبلغ قوتنا • واذ أدركوا اننا لم نبتهج بمقدمهم لم يمكثوا بيننا طويلا وغادرونا فى الحال • وحينئذ اخلدنا الى الراحة بعد ان اعددنا حراسا اشداء يحرسوننا مثلما فعلنا ذلك فى الليلة السابقة • وعند منتصف الليل ، وحين كنا في الاغفاءة الاولى ، شاهد حراسنا عددا من اولئك الاكراد يقتربون منا فايقظنا الحراس بهتافهم العالي لنكون على حذر ، ولنستعد لمواجهة الامر ، ونرهب اعداءنا ، ونطردهم عنا • لكن الاكراد لم يأبهوا بنا بل اسرعوا يجرون نحونا واقتربوا منا حتى اصبحنا نراهم بوضوح امام مخيمنا رغم حلكة الظلام • على انهم ما ان رأوا استعدادنا لمقاومتهم ، وسمعوا هتافات حملة البنادق ورماة السهام ـ وكانوا قد تهيأوا لاطلاق النار ورمي النبال عليهم ـ ينادونهم بصوت عال « تعالوا ايها اللصوص » حتى توقفوا برهة ، وانتابهم الخوف

الثاني من تموز :

غادرنا مكاننا في السهل قرب « ازروار » عند الفجر وبعد مسيرة ست ساعات متواصلة في أرض مستوية اتجهنا فيها شرقي الجنوب الشرقي طيلة الطريق توقفنا لقضاء الليل •

مررنا ونحن في طريقنا بكثير من القرى على اليمين وعلى اليسار • وقد مررنا بخمس قرى متماثلة في الطريق الرئيس كانت كلها صغيرة ، وسقوف منازلها محدبة مستطيلة الشكل مما سبق وصفه •

ويبدو ان الناس هنا يسكنون الخيام بصفة عامة ، وان تلك الابنية المستطيلة كانت تستخدم ، كما نعتقد ، زرائب للمواشي أكثر مما تستخدم لسكنى العوائل •

وتقع كل هذه القرى في ربى السهل ، وأبواب البيوت فيها متجهة نحو الجنوب ، وهو الاتجاه الذي يتوقع منه أهلها اعظم الاخطار • وجميع هذه القرى صغيرة ، ولا يعرف عنها أفراد قافلتنا سوى الشيء القليل ولذلك لم أحصل على أسمائها •

فاداروا لنا ظهورهم وولوا الادبار • وحين ظنوا اننا لم نعد نخشى هجومهم علينا مرة اخرى ، عادوا الينا مسرعين ، وفى اعداد اكثر من السابق • كانوا يقودون جملا وعدة خيول لم نميزها فى الظلام الا برؤوسها المتطلعة الى السماء • ولقد فعلوا ذلك كيما نحسبهم من المسافرين ، او لكى لا نعرف عددهم • وعلى الرغم من ذلك فقد كانت حركتهم الاولى ما تزال حية فى الذاكرة • لذلك لم نخدع بتلك الحيلة ، واعددنا للامر عدته فى الحال •

كنت انا رجل المسيرة وفى الصف الاول للمرة الثانية • وقد سحبت بندقيتي ، وادرعت صدرى باوراق سميكة جلبتها معي لأحفظ بها النباتات التى كنت اجمعها • كنت اتوقع الهجوم منهم فى أية لحظة • وحين توقفوا وهم خائفون منا كما كنا نحن خائفين منهم ، ولم يهتفوا ، ولم يتقدموا نحونا ، عمد احد رجالنا الى استفزازهم بان اطلق النار على الجمل فاصابه معلنا بذلك اشارة الهجوم • غير ان بقية رفاقنا امتنعوا عن اطلاق النار • وهكذا بعد ان مكث اولئك الاكراد فى موقفهم قليلا عادوا فولوا الادبار ثانية •

[رحلات راوولف فى ١٥٧٣ صفحة ١٦٨ ـ ١٦٩ طبعة راى]
Leonhart Rauwolff's travels in 1573 P. 168 — 169 Ray's edition.

بعد رحيلنا عن قرية « ازروار » بحوالي الساعة ، ابتعدنا عن الارض المزروعة ، وتوغلنا ثانية فيما يسمى « البرية » أو الارض العراء ، وهي أرض منبسطة هشة جافة ، ذات تربة لطيفة لا ينقصها سوى الماء لتصبح خصبة صالحة للزراعة في الحال • وبعد ان سرنا فوق هذه الارض ساعة اخرى ، وصلنا الى صخور بركانية ذات كتل كبيرة سوداء بعضها هش ، وبعضها الآخر صلب فيه أجزاء لطيفة ذات حبيبات وتنقسم الى عروق تتألف من مادة رخوة تشطرها الى خطوط مستقيمة عندما تكون تلك الاجزاء لينة ، يبلغ عرض كل خط منها زهاء بوصتين •

ويوحي مظهر هذه العروق وكأنها أشبه بالاسفنجة ، أو العجين حين يقتلع بعد ان يختمر أو يرفع باليد قبل أن يصنع خبزا ، حيث يكون في تلك الحالة كثير الثقوب • اما الكتلة الصلبة التي ترى فيها هذه العروق الاسفنجية أو الرخوة فانها تتألف من عدد من الاحجار المستديرة المحبية التي صادفناها في طريقنا ، والتي يمكن صقلها لتنافس بذلك أجود أنواع المرمر وأجمله •

وكلا النوعان من هذه الاحجار ذو لون أسود اما العروق فيها فليست سوداء كالاجزاء الصلبة التي تمتد فيها • ولقد أضعنا آثار هذه الاحجار البركانية في التربة بعد وقت قصير اذ بلغنا أرضا مزروعة يجري جمع الغلال فيها •

كانت هذه البقعة التي مررنا بها اليوم تدعى « بلد الشطيّة »(١١) ورغم ما قمت به من تحريات لم أعرف اسماء القرى التي شاهدناها •

والواقع ان كل واحدة من هذه القرى كانت صغيرة ، ولا تسكن الا أيام الحصاد ، وهي مؤلفة من الخيام التي اتخذت منازل ثابتة • ومع ان الناس يسكنون في الخيام والاكواخ والبيوت ، وان اللغة العربية تحوي أسماء خاصة بكل نوع من هذه المساكن ، فان هذه الفوارق غير معروفة هنا • ولتمييز طبقة السكان التي يتألف منها المنزل يطلق العرب عليها أسماء بيوت الحجر ، وبيوت الخشب ، وبيوت الشعر في حين تصنع خيام البدو من العرب الاصليين من نسيج الشعر الاسود بلا تغيير وهم ينسجونه من شعر مواشيهم في مخيماتهم •

تستمر سلسلة التلال التي تقع عليها « ماردين »[١٢] و « دارا » في الامتداد بعيدا من الغرب الى الشرق الى أن تنتهي بجوار المكان الذي توقفنا فيه الى الشمال منا بحوالي ثمانية أو عشرة أميال حيث يؤلف طريقنا الذي يتجه شرقي الجنوب الشرقي مع هذه السلسلة زاوية تبلغ زهاء درجتين •

فهذا الطريق الذي صادفناه ونحن نغادر تلال ماردين بمسافة أوسع فأوسع من ناحية اليسار ، قد أدى بنا باطراد الى مقربة من جبل سنجار الذي يقع الى يميننا • وهذا الجبل أعلى نسبيا من التلال الواقعة في الشمال • ويبدو ان مستوى ارتفاعه عن أرض السهل يزيد عن الفي قدم على الاقل ، وهو يرتفع على شكل قمم تكون نهاياتها مائلة ، ثم تأخذ بالارتفاع عند الوسط • اما اتجاهه فيمتد الى الشرق والى الغرب تقريبا ، وان طوله يبلغ زهاء خمسين ميلا •

ويؤلف هذا الجبل الذي يقع هنا مظهرا بارزا في جغرافية وادي الرافدين أي انه له مكانته في المؤلفات الجغرافية التي وضعها القدامى ممن كتبوا عن هذه البلاد ، وهو لا يزال مهبط عرب الصحراء والمكان الذي يشير اليه المسافرون باطراد حين يتحدثون عن الطرق التي تمر عبر هذه السهول * •

كانت مدينة سنجار أو سنغارا[١٣] التي منحت الجبل اسمها أو انها أخذت اسمها منه ، من المواقع العسكرية الشهيرة خلال الحروب التي قامت في سبيل تكوين امبراطورية عالمية ، حيث ظلت لفترة طويلة مسرحا للجيوش القادمة من الشرق ومن الغرب معا •

فلقد ورد ذكرها صراحة في تلك الحروب التأريخية • كما عثر على نقود تحمل اسم هذه المدينة على اعتبار انها كانت مستعمرة رومانية .+ •

فحين ارتد الامبراطور «تراجان»[١٥] عبر وادي الرافدين بعد ان افتتح مدينتي « طيسفون »[١٦] و « سلوقية »[١٧] ، وزار أطلال بابل ، شن حربا ضد القبائل

* أنظر سيلاريوس[١٤] : الجغرافية القديمة ص ٤٤١
Cellarius : Ancient Geography p441.

+ ذات المصدر •

العربية التي كانت تقطن في هذه الاصقاع واسست لها حكومة مستقلة في سنجار • ولقد حاصر عاصمة تلك الحكومة[١٨] التي دافعت عن نفسها ببسالة •

ولقد أدى طول الحصار ، وتفاقم شدة الحر ، ونقص الماء في السهل الى انتشار الامراض في المعسكر الروماني • بل ان الامبراطور نفسه هو الذي سبب اختلال النظام الذي أدى الى وفاته في تلك السنة ، أي ١١٧ ميلادية ، بعد ان تخلى عن حملته ضد العرب ، وقفل راجعا بمنتهى السرعة الى روما عن طريق ســوريا •

ولم يستطع ان يتقدم الى أبعد من كليكيا[١٩] حيث أمضى آخر أيام حياته في مدينة « سيلنياس »[٢٠] التي سميت فيما بعد باسم « تراجانابولس» تكريما له *

نستطيع أن نعثر على الوصف الحي للمعركة التي دارت رحاها بين الفرق الرومانية التي يقودها «قسطنطين»[٢١] والقوات الفارسية التي يقودها «سابور»[٢٢] في موقعة سنجار ، في صفحات من كتـاب « غيبون »[٢٣] الذي اقتبسنا فقرات موجزة منه هنا لنبين طبيعة البلاد ، والاخطار التي نجمت عن شدة وطأة الحر ، وصعوبة تهيئة التجهيزات واعداد معظم الاقوات الاعتيادية ، مما أدى الى هلاك جيوش أمة من أشجع الامم التي وجدت آنذاك ** •

* مذكرات أكاديمية المخطوطات والآداب الجلد ٢١ صفحة ٦١ باريس
Memoires de L'academie des inscriptions et Belles lettres vol. xi p61 paris.

** **ارتدت القوات المعسكرة فى سنجار حال اقتراب سابور منها بعد ان** عبر نهر دجلة على ثلاثة جسور اقامها عليه ، ثم اقام بالقرب من قرية (هليل) (٢٥) أحد المعسكرات النافعة واستطاع ، بطلائعه العديدة ، ان يحيطه بخندق عميق وبسد مرتفع • وعندما سحب جيشه الهائل استعدادا للمعركة انتشر الجيش على ضفاف النهر ، والمرتفعات القائمة عليها ، وفى السهل الواسع الممتد الى أكثر من اثنى عشر ميلا والذى يفصل بين الجيشين •

كان كلا الجيشين يتوقان الى القتال بنفاد صبر • لكن (البرابرة) (٢٦) ما لبثوا ، بعد مقاومة طفيفة ، ان ولوا الادبار من دون نظام ، فهم لم يستطيعوا المقاومة او انهاك الفرق الهـائلة التى اضناهـا الحر والعطش فلحقوا بهـا عبر

وقد ورد انه حين غزا سابور العراق ، بعد ان أصبح قسطنطين هو الامبراطور المطلق عقب استيلائه على « ديار بكر »[٢٤] لم تكن قوة الجيش الذي قذف به سابور في الميدان خلال الربيع التالي ، ولا روح ذلك الجيش تتلاءمان ومطامحه الواسعة . فبدلاً من أن يتطلع سابور الى فتح الشرق اكتفى بالاستيلاء على مدينتين محصنتين من مدن الرافدين هما سنجار ، و « جزيرة ابن عمر »[٢٧] . وكانت الاولى تقع في صحراء رملية ، بينا كانت الثانية تقع على شبه جزيرة صغيرة يحيط بها من كل جوانبها مياه جدول عميق الغور ، سريع الجريان ، يتفرع من دجلة * .

ولقد تم أسر خمس فيالق رومانية ذات اعداد قليلة قلصت اليه في عهد قسطنطين ، ثم ارسلت مخفورة الى أقاصي حدود بلاد فارس .

وبعد ان هدم الفاتح أسوار سنجار ارتحل عن ذلك الموقع المنعزل الفريد +

ويذكر المؤرخ نفسه ان سنجار و « حصن العرب »[٢٨] ـ وهو من أقوى المواضع في بلاد الرافدين ـ قد سلختا عن الامبراطورية في عهد حكم الامبراطور « جوفيان »[٢٩] وصدر العفو عنهما ، أي سمح لسكان هذين الحصنين بالعودة اليهما بما كان لديهم من متاع لكن الفاتح الفارسي أصر بعناد على أن يتخلى الرومان ، مقابل ذلك ، عن مملكة أرمينيا وملكها نهائيا .

السهل ، ثم وزعوا خطا من الفرسان الذين كانوا يرتدون كامل اسلحتهم الى اجزاء صغيرة ، واوقفوهم امام مداخل المعسكر ليحموا تراجعهم . على ان الامانة التأريخية تتطلب منا ان نعلن بان الرومان قد هزموا في مذبحة مميتة ، وان بقية فرقهم المنهزمة قد تعرضت لشدائد لا يمكن احتمالها » .

غيبون : تأريخ اضمحلال روما وسقوطها م ٣ ص ١٣٩ ـ ١٤٢

Giddon : History of the decline and fall of Rome vol 111 P. 139— 142.

* تحدث اميانس مارسيلنس عن هذا الحصار مفصلا في كتابه [ج ٧ ص ٦ ـ ٢٠] .

Ammianus Marcelinus Vol : 7 P.6 — 20.

+ ادورد غيبون المجلد الثالث فصل ١٩ ص ٢٠٩ .

ويظن معظم المؤرخين ان هذا الاقليم الذي يعرف هنا باسم سنجار هو أرض « شنعار »[٣٠] التي ورد ذكرها في الكتب المقدسة . بل ان بعض هؤلاء المؤرخين يطلق هذا الاسم على كل بلاد الرافدين + + .

فحين تحدث القديس جيروم[٣١] بصفة خاصة عن مدينة «ارك »[٣٢] أو ايرك بانها هي مدينة « الرها »[٣٣] ، وظن ان « أكاد » أو « أكد »[٣٤] هي مدينة « نصيبين * »[٣٥] ، انما كان يفترض ضرورة اطلاق هذا الاسم على جميع البلاد الممتدة ما بين دجلة والفرات . فلقد ذكر بقوله « ان مملكة نمرود تبدأ من بابل وارك وأكد و « كالح »[٣٦] في أرض شنعار + .

اما « بنيامين التطيلي »[٣٧] فقد اطلق على بلاد الرافدين كلها اسم سنعار وظن انها هي شنعار التي ورد ذكرها في الكتاب المقدس + + .

وخيل الى (نيبور)[٣٨] بسبب تشابه الاسماء ، ان منطقة سنجار قد تكون هي أرض شنعار التي ورد ذكرها في أسفار موسى الخمسة[٩٣] ** .

وهذا قد يوضح الفقرة الواردة في التوراة والتي تقول بأن كل هذه المدن تقع في أرض شنعار حيث جاء في التوراة [وما هو خارج عن تلك الارض يتجه نحو آشور ونينوى العامرة ، ومدينة « رحبوث »[٤٠] وكالح . وان «ريسين»[٤١] التي تقع بين نينوى وكالح هي من المدن الكبيرة أيضا] . فكل من نينوى وكالح

+ + ذات المصدر المجلد الرابع ص ٢١١ .

* أنظر سيلاريوس : الجغرافيا القديمة ص ٤٤١ و٤٤٨ .

+ سفر التكوين الاصحاح العاشر ، الاية العاشرة .

Genesis C.X V.X.

+ + رحلة بنيامين التطيلي . مجموعة بيرجيرون

Voyage de benjamin bergeron's collection

** « ان كل المظاهر تدل على ان سنجار التي ذكرها الكتاب الاغريق هي كلمة شنعار التي تردد ذكرها في الكتاب المقدس كثيرا » .

نيبور : رحلة في شبه الجزيرة العربية مجلد ٢ من ٣١٥ الترجمة الفرنسية

Niebuhr : Voyage en Arabie vol 11 p315.

تقع خارج تلك الارض أو خلف نهر دجلة من ناحية الشرق • اما ريسين التي تقع بينهما فلابد أن تكون خارج تلك الارض أيضا ، ولو ان سيلاريوس قد وضع هذه المدينة ، في الخريطة التي رسمها ، في قلب وادي الرافدين تقريبا •

اما « دانفيل »(٤٢) الذي يرى صعوبة في تقبل هذا الرأي ، ويعتقد ان اسم سنجار الحالي تحريف لاسم شنعار أو سنعار الذي سبق ان اطلق قبلا على ذات البقعة من البلاد * ، فانه يلاحظ بدقة في مكان آخر ، الخطأ الذي وقع فيه « بطليموس »(٤٣) حين وضع هذه المدينة على مقربة من نهر دجلة بينما تفصلها عنه أرض صحراوية واسعة + •

فهناك في هذا السهل ، والى الشمال من جبل سنجار ، تم انجاز مشروع علمي كبير لقياس درجتين من اوج الشمس على يد الخليفة المأمون (٤٨) وكانت النتيجة هي التحقق من ان الدرجة الارضية تعادل سبعة وخمسين ميلا عربيا ** •

ولا توجد على طول امتداد جبل سنجار مدينة كبيرة في الوقت الحاضر وكل ما هو موجود قرى صغيرة • والمعروف ان عدد هذه القرى قليل جـــدا وسبب ذلك يعود الى عدم مغامرة الاتراك والاكراد والعرب في التجول بـين اليزيدية الذين يسكنون ذلك الجبل بصفة رئيسة ++ •

* سيلاريوس : الجغرافيا القديمة م ٨ ص ٤٣٣ •

+ « سنجار مدينة ذات منزلة كبرى • ويرى سيلاريوس الذى بذل اهتماما كبيرا فى تحقيق اسماء المدن ، ان هذا الاسم شائع بكثرة لدى الكتاب الاغريق ، وانها تقع على مقربة من دجلة وهذا ما يرى عند بطليموس لكن ذلك ليس مطابقا لما ورد فى الواح « ثيوديوس » (٤٤) اذ لم تكن اسماء المدن الرئيسة ومواقعها قريبة من دجلة وانما تفصلها عنه صحراء تسمى « ترولوتى » (٤٥) كما ذكر ذلك فى لوح البناء الداخلى • وقد فتح تراجان هذه المدينة كما اورد ذلك «ديوكاسيوس» (٤٦) فاصبحت منذ ذلك العهد مستعمرة رومانية تكثر فيها الايقونات وكانت تسمى باسم اوريليا » و « سبتميا » (٤٧) •

[دانفيل : عن الفرات ودجلة ص ٥٠

D'anville sur L'euphrate et Tigre P.50.

** دانفيل : فى كتابه عن الفرات ودجلة ص ١٢١ •

++ (يصعب الوصول الى جبل سنجار الخصب الملائم لزراعة مختلف أنواع

وأعظم المدن لديهم تقع على جزيرة وسط بحيرة وتدعى « الشيخان »(٩) ٤ ويقول البعض عنها انها تقع في حافة الجبل فوق السهل ، بينما يقول الآخرون انها تقع على التلال •

ومما اثار حب الاستطلاع لدي بشكل متزايد ما ذكره « نيبور » عن وجود هرم في هذه الجزيرة متين البناء لابد للمسافرين من مشاهدته * •

الفواكه ولدى العشائر التى تسكنه ما يزيد على ستة آلاف رجل مسلحين بالبنادق عدا الفرسان المسلحين بالرماح • ولم تقع أية حرب فى هذه السنة ولم تسلب على أيديهم أية قافلة • وقد خاض اليزيدية الذين يسكنون هذا الجبل حروبا كثيرة ضد باشوات الموصل وبغداد وفى مثل هذه الحوادث كانت تذهب ضحايا كثيرة من الطرفين ، ثم ينتهى الأمر بالاتفاق على مبلغ من المال • واماكن هؤلاء اليزيدية محصنة من كل الجهات الامر الذى جعلهم قساة •

وحين تنطلق عصاباتهم الى قطع الطرق لا تكتفى بسلب الافراد الذين يدخلون مناطقهم حسب بل تقتلهم جميعا بلا استثناء • واذا ما عثر اليزيدية فى القافلة على بعض الاشراف المتحدرين من سلالة النبى محمد ، أو بعض العلماء من المسلمين ، أبادوهم بقسوة متناهية ويتلقى المؤمن ذلك بكل سرور ويعده شرفا عظيما له ! » •

Notices sur les yezidis pp. 206 — 207.

[ملاحظات عن اليزيدية ص ٢٠٦ ، ٢٠٧] •

[وقد ترجمناه عن النص الفرنسى ـ ويخيل الينا ان هذا الكتاب الذى نقل عنه بكنغهام كثيرا من الفقرات بنصها الفرنسى ولم يذكر مؤلفه ، ان هذا الكتاب كما نعتقد هو من تأليف الاب غروزني • [المعرب]

* « الى الغرب من سنجار ووسط بحيرة هناك تقوم جزيرة صغيرة يسكنها العرب تدعى « الشيخان » (٤٩ (أ) وهى عبارة عن قلعة منيعة يرى المرء فوقها هرما يستخدم بمثابة حصن منيع مما لابد لجميع المسافرين ان يشاهدوه » •

ويضيف نيبور الى ذلك قوله « وقد سبق للرحالة « اوتر » ان تحدث عن وجود هرم فى تلك المنطقة لكنه لم ير ذلك الهرم بنفسه » •

[نيبور : رحلة فى الجزيرة العربية المجلد الثاني صفحة ٣١٦] [نقل بكنغهام هذه الفقرات عن الطبعة الفرنسية لرحلة نيبور وثبتها كما هى حيث عريناها عن الاصل الفرنسي ـ المعرب] •

* Niebuhr : Voyage en Arabie vol 11 P. 316.

وبكل التحقيقات التي قمت بها عن ذلك الرأس ، لم استطع ان اوفر معلومات كافية عن ذلك الاثر ، وان كان قد ظهر لي ان كل شخص يعيش في المنطقة يعرف بحيرة الشيخان والجزيرة التي تقع وسطها ، وان الكل يتفقون على ان أي شخص لا يستطيع زيارتها الا اذا كان يزيديا أو في حماية أحد اليزيديين •

اما المدن الاخرى فقد تناثرت على ربى الجبل ووديانه ويقع البعض منها عند سفح الجبل وبامتداد السهل وتخضع منطقة سنجار برمتها ، بما في ذلك الجبل والسهل ، تحت سلطة اليزيديين الذين يعتبرونها الموطن الخاص لهم ولذلك يندر عليهم ان يتحملوا وجود غريب بينهم •

على ان في الشيخان القائمة على الجزيرة الواقعة وسط البحيرة بعض اليهود الذين يمارسون الدلالة في بيع وشراء المواد المنهوبة التي يأتي بها اليزيديون بعد غارات السلب التي يقومون بها •

وكذلك يستطيع المسيحيون ان يتجولوا بينهم في حماية واحد منهم لانهم انفسهم يحترمون الدين المسيحي ، حتى انهم يقبلون ايدي القسس حين يزورونهم في ماردين وغيرها • وهم يتناولون منهم « العشاء الرباني » ويعتقدون بأن الخمر ، التي تعتبر الدم الحقيقي للمسيح ، يجب أن يعنى بها عند شربها بحيث لا يسمح بسقوط قطرة واحدة منها على الارض ، او ان تمس حتى لحية شاربها •

وليس لليزيديين زعيم كبير باعتبارهم امة • ولكن سكان المدن منهم في السهل وفي التلال لهم حكامهم الخاصون بهم ، وهؤلاء يختلفون عن اولئك الذين يجوبون الجبل • وعلاقة هذه المدن الواحدة بالاخرى مثل العلاقة بين مدن العرب ومدن الصحراء او العلاقة بين المزارعين والبدو ويعيش سكان المدن على الزراعة ولذلك تكون المتاجرة والصناعة ملائمة لحاجياتهم • اما الجبليون فانهم يؤلفون قبائل يرأسها شيوخ وتعيش بصفة رئيسة على سلب

القوافل • ولذلك فانهم ينحدرون من التلال التني يسكنونها ويرابطون عند ممرات الطرق • وهنالك قبائل اخرى منتشرة في السهل وحتى حدود ماردين وهي تسير على ذات النمط من الحياة •

والشائع ان سكان الجبال منهم اكثر وحشية وقسوة من البقية ، وانهم لا يحلقون شواربهم او لحاهم ، بل لا يقصون شعورهم وهم يسيرون حاسرين فيبدو مظهرهم مطابقا لتصرفهم تمام المطابقة •

على ان الفرق الذي لاحظته في سحنة فريق من هؤلاء اليزيدية كنت قد التقيت بهم في نزل بمدينة « اورفه » ، وفي لون بشرتهم ، لابد وان يكون مرده الى الفرق في السكن في الجبل او السهل • ففي الجبل يكون الجليد موجودا لفترة طويلة من أيام السنة ، بينما تكون درجة الحرارة في السهل معادلة لاي جزء مماثل في العالم • ولذلك فان جمال بشرتهم ، ونعومة شعورهم وزرقة عيونهم قد تكون ناشئة عن سكناهم في نفس الدرجة من خط العرض التي يسكن فيها ذوو اللون الزيتوني الهندي ، والشعر الاسود ، والعيون السوداء من الذين شاهدتهم بينهم •

فهذه الفوارق لا تنشأ الا عن الاختلاف في مسقط الرأس الذي يولد فيه الافراد ويبلغون فيه مبلغ الرجال •

والشائع ان المدينة المقدسة لهؤلاء اليزيدية تقع في جبال كردستان شرقي دجلة ، وان من بين أماكنهم الدينية الشهيرة مكان يدعى « الشيخان »[٥٠] ويقع بين الموصل والعمادية ، وانهم يحجون اليه كل عام ليمارسوا فيه بعض الشعائر الدينية[٥١] •

ويذكر أهل هذه البلاد انه حدث في احدى المرات ان باغتهم آمر احدى الوحدات العسكرية التركية اثناء انهماكهم بالعبادة ليلا ولما كانت قوته كبيرة لم يستطيعوا مقاومتها آنذاك ، ففروا مسرعين مخلفين وراءهم أحد كتبهم المقدسة • وقد استولى الضابط التركي على ذلك الكتاب ، واكب على قراءة بعض أقسامه

بصبر تام اذ كان مكتوبا باللغة العربية • لكنه قال انه وجد ذلك الكتاب مشحونا بالكفر والالحاد وهذا هو اصل السبب الذي دعا الخليفة « عمر » الى ان يأمر بحرق مكتبة الاسكندرية[٥٢] • كما انه ذاته هو الذي حمل « الاب سيكار »[٥٣] على اتلاف المخطوطات المصرية المدونة على أوراق البردي[٥٤] •

والرأي السائد هو ان هؤلاء اليزيدية ليس لديهم كتاب مقدس ويقصد المسلمون بهذا التوراة والانجيل ، والقرآن التي لا يعترفون بكتب مقدسة سواها • فاذا كانت رواية الضابط التركي صحيحة فذلك يعني انه كان لليزيدية في وقت من الاوقات تشريع ديني ، ومن المؤكد انهم ما يزالون يحتفظون ببعض السجلات المدونة والقواعد والاساطير التي تمثل شعائرهم وايمانهم •

ويقال انه يوجد بين بحيرتي « وان » و « شاهي »[٥٥] فيما وراء جبال كردستان وجنوبي ارمينيا عدد من اليزيدية يعيشون هناك بينما انتشر آخرون منهم على ضفاف دجلة وعلى الطريق بين الموصل وبغداد[٥٦] •

وليس معروفا ما إذا كان احترامهم للشيطان الذي يسمونه « جلبي » او « السيد »[٢٧] متحدرا في أصله عن الفرس القدامى بعد ان امتزج بشيء من المسيحية ، أو انه بقايا المذهب « المانوي »[٥٨] الذي ازدهرت هرطقته في اورفه • فاسم اليزيدية مأخوذ من « يزد »[٢٩] آله الشر الذي يقابله « هرمز » آله الخير[٦٠] •

ويبدو ان الكثير من خصائص لغتهم وعاداتهم له اصله الفارسي • وقد طرأت عليها تغييرات كثيرة ربما كانت ناتجة عن اقامة اليهود في هذه المدن وهم الذين لا يزالون يحتملون العيش بين اليزيدية في الوقت الحاضر ، وكذلك من نتائج امتزاج اليزيدية مع المسيحيين اذ ان منطقتهم هذه كانت في يوم من الايام مقر اسقف الكلدان •

* * *

اقتحمنا في نهاية مسيرتنا هذا اليوم جبال كردستان العالية فبلغنا اعلى نقطة فيها وتدعى جبل « جودي »[٦١] الذي يظن انه هو الموضع الذي رست سفينة نوح عنده بعد الاعصار او الطوفان كما يعبرون عنه هكذا هنا • والواقع ان هذا الجبل شاهق الارتفاع ، وهو ـ مثل بقية النقاط الاخرى في هذه السلسلة ـ مكسو بصفحة متماسكة من الجليد تكسو ثلث الارتفاع من قمته فما تحت ، على الرغم من ان الوقت هو من اشد فصول السنة حرارة ، وان شدة الحر في السهول ما لا يستطيع الاوربي احتماله الا نادرا •

ويمكن رؤية هذه السلسلة من الجبال من مدينة ديار بكر اذ انها تمتد نحو الجنوب الشرقي ، فتظهر من هناك وكأنها تتجه نحو الشمال والجنوب تقريبا شرقي نهر دجلة • ومسلسلة هذه الجبال متكسرة تبرز فيها عدة طبقات وقمم ، بينما يؤلف جبل سنجار كتلة واحدة كبيرة ومنعزلة ، بل خطا واحدا قيل انه مكون من حجر الكلس* •

توقفنا عند المساء بجوار جدول صغير وعلى مقربة من قرية تدعى « جل اغا »[٦٢] تتألف المساكن من جزئين منها من اكواخ القصب وثلاثة او اربعة الاجزاء الاخرى من بيوت الشعر •

ولما قيل لنا ان طريقنا من هنا الى الموصل لا يمكن اجتيازه الا بوجود قوة لان اليزيدية ينتشرون في السهل ، فقد غدا ضروريا ان نسلح انفسنا بوسائل الدفاع ولذلك دخلنا في مساومة مع شيخ العشيرة المخيمة في ذلك المكان لكي يزودنا بثمانين فارسا مسلحا ندفع عن كل واحد منهم ثلاث دولارات اسبانية لقاء حمايتهم لنا الى ان نصل ضفاف نهر دجلة ، على ان يساهم كل واحد من افراد القافلة في هذا المبلغ بنسبة قيمة المال الذي يصطحبه معه وذلك اجراء لم

---

* ورد في رحلات هايتون **Voyages de Haiton** ـ واكدته مجموعة رحلات « برجرون » ايضا ـ ان جبل سنعار ـ كما يسمونه هناك ـ يعد من أعظم الجبال الشرقية فى بلاد وادى الرافدين ، وان ندرة المياه فى السهول القريبة من هذا الجبل أمر معروف •

يعترض احد عليه ما دامت حماسة البغضاء الدينية قد اضيفت الى الاهتمام بالسلامة الشخصية في اذهان الجميع* .

ولذلك امضينا المساء في جمع قوتنا واعداد اسلحتنا للملحمة ثم اضطجعنا ليلا لنختطف لنا منام ساعة لنجد من جديد قوانا وأرواحنا للمسيرة ** .

---

* « وما خلا ذلك فالمسلمون يعتقدون اعتقادا جازما ان كل رجل يقتل في تلك الاصقاع انما يموت شهيدا . وكذلك فان امير العمادية كان يسعى دوما للالتجاء الى الاشداء من هذه الامة لتنفيذ احكام الموت ضد الاتراك . ولليزيدية آراء مشابهة لاراء الترك نسبيا وان الشيء ذاته متبادل فيما بينهم . فاذا ما قتل التركي يزيديا فانه يكون قد قام بعمل حد مقبول من لدن الله ، واذا ما قتل اليزيدي تركيا ارتفعت قيمته في نظر الشيخ الكبير الذي يطلق عليه اسم الشيطان» [ملاحظات عن اليزيدية ص ٢٠٨] .

Notices sur les yezidie P.208.

** لقد وصلنا الآن ذات الموقع الذي صادف فيه الدكتور رووولف المخاطرة التي مر ذكرها قبلا (حاشية ص ١١) ، وساورتنا ذات المخاوف ، وظللنا يقظين وفي انتباه متواصل . ذلك ان تكملة مخاطرته تستحق الذكر لانها تصور تمام التصوير اخلاق وعوائد العصر الحالي بمثل الفترة التي كتبت فيها أول مرة قبل حوالي مائتين وخمسين سنة . يقول ذلك الدكتور المطلع

« بقينا يقظين طيلة الليل وكنا في حراسة حسنة فواصلنا سفرنا في باكو الصباح التالي حين طلوع النهار حيث عدنا ثانية الى مروج واسعة جافة لم نر فيها اثرا لانسان أو حيوان وهكذا واصلنا سفرنا حتى الظهر حين خيمنا في مكان واسع كان محاطا باسوار وخنادق جيدة وكأننا ندخل الى احد الحصون التي يشاهد عدد منها في مثل هذه الاماكن الخطرة وما ان استقر بنا المقام هناك حتى اقبل علينا في مخيمنا اثنان من الاكراد(٦٣) فتحدثا الينا ، وزعما انهما قدما للمطالبة بالاتاوة الواجب دفعها هناك لان المكان عائد لهما . غير ان تجارنا سرعان ما تحقق لهم كذب ما ادعاه الرجلان ولذلك لم يسمحوا لهما بشيء الامر الذي اثار غضبهما فسحبا سيفيهما وحاولا الهجوم علينا ، ولكن اصدقاءنا لم يقفوا مكتوفي الايدي اذ خطفوا سيفي المهاجمين ، وحملوا عليهما حملة واحدة فأخرجوهما من المخيم . وبعد ان انتهت تلك الجلبة تناولت طعام العشاء . ولكي لا يوهننا السفر الشاق فنصبح بذلك أقل مقدرة على مقاومة قطاع الطرق من أمثال هؤلاء بسبب ضعف قوتنا فيما اذا حاولوا الهجوم علينا مما لا تقدر عليه

كانت كل جهودي في الظفر براحة لمدة نصف ساعة قد باءت بالفشل . استيقظنا على الاشارات التي اتفق الحراس عليها وأصوات الخفراء الذين استقروا في المواقع الخارجية وهي تنطلق كل عشر دقائق اثناء الليل . كان التنبيه أحيانا حسن الترتيب اذ لا نحتاج في مثل ذلك الى أكثر من استعداد عام

قبل حلول الظلام لاسيما في مثل هذه الصحارى الواسعة ، لذلك اعتدنا ان ننهض بعد منتصف الليل فنسير طيلة النهار بكل ما لدينا من سرعة دون ان نأكل شيئا ، مما سبق لي ان جربته قبلا حيث اعتدت ان ازود نفسي بالخبز حتى اذا ما فكرت في الاكل شرعت اتأخر عن القافلة أو اسير قبلها اذ لا يستطيع المرء ان يأكل اثناء الطريق تحت انظار الآخرين الا اذا كان يفكر في الاقدام على مغامرة ما ، ذلك لان معظم المسافرين جياع ومتلهفون الى الطعام ولان الواحد منهم سيهاجم الآخر في سبيله ويسلبه اياه من فمه .

وبعد ان ارحنا نفوسنا واطعمنا دوابنا ، التي كانت تطعم مرة واحدة في اليوم ، انطلقنا بقافلتنا نواصل سيرنا ثانية . وسرعان ما رأينا بعض الجبال امامنا حتى اذا ما اقتربنا منها عند المساء بان لنا على جبل عال منها ، وقبل ان تصبح البقية قريبة من السهل ، عدد من اولئك الاكراد مما جعلنا نتصور وجود عدد أكثر منهم يختفي في كمين هناك وقد ثبت ان تصورنا ذاك كان صحيحا لاننا ما ان اجتزنا ذلك الموضع ، وقبل ان نرتقي احد التلال ، حتى اقبلوا علينا من وراء الجبل في زمر كبيرة وهم يمتطون ظهور الخيل وقد تهيأوا للنزال في الميدان في سربين ثلاثة ثلاثة في كل صف اذ كان عددهم زهاء ثلثمائة شخص و ذات عددنا تقريبا .

كانوا قد مرسوا خيولهم فكانت ضامرة خفيفة الحركة فهي تستدير أحيانا الى احدى الجهات ثم تميل الى الجهة الاخرى ومن ثم تقبل متجهة نحونا كأنها اطلاقة السهم . كان معظمهم يحملون المزاريق التي يستعملونها بمنتهى السرعة أو يخفضونها الى الاسفل احيانا وهم يجرون مسرعين كأنهم يسابقون الغزلان وهو منظر مبهج ولكنه ينطوي على منتهى الخطورة .

وما ان ظهروا صراحة وكأنهم يحاولون أن يطبقوا علينا حتى جمعنا قافلتنا معا كيما نقاومهم . فلقد وقفنا صامدين وربطنا دوابنا سوية وشددنا اقدامها الواحدة منها بالاخرى كيلا تتحرك ثم وقف وراءها سائقو الابل يحملون سهامهم . اما اولئك الذين لم يزودوا بالاسلحة ولا بالخيول فكان عليهم ان يصيحوا بالاعداء او يفعلوا غير ذلك — عند الضرورة وحين يصبح هؤلاء على مقربة منا — كيما نستطيع ان نضرب خيولهم ببنادقنا .

وحمل اسلحتنا في حالة العمل المباشر كيما نحول بذلك دون هجوم عـدد من الاكراد الذين يتجمعون في مواقع مختلفة لمهاجتنا • اما في حالات اخرى فيكون التنبيه بلا اساس وهو ينشأ عن تبادل الاطلاقات داخل مخيمنا بين كلا الطرفين الامر الذي يجعل الرقاد وحتى الاستراحة صعبة المنال ولذلك كنت أتحرق لهفة لان نبدأ بمسيرتنا الخطرة •

وعلى مقربة منا كانت خيولنا قد اعدت فى شكل صف من القوات وتهيأت لمجابهة هجومهم واحباط تقدمهم • وبعد مرور ساعة كاملة بعثنا باثنين من رفاقنا اليهم كما بعثوا هم أيضا باثنين من رجالهم الينا ليجتمعوا ويتفاوضوا سوية على اننى لم أعرف الطريقة التى اتخذوا منها أساسا للاتفاق ، لكنهم استطاعوا ان يقنعوهم ، ولذلك امتطينا خيولنا ، بعد ان غادرونا ، وواصلنا رحلتنا • بعد ان جعلنا قافلتنا (وهى تضم عددا كبيرا من الناس وابلا وحميرا وخيولا محملة) فى وضع استعداد وتنظيم احسن من ذي قبل حيث وصلنا فى ذلك اليوم ذاته الى قرية صغيرة خيمنا عندها ومكثنا هناك طيلة الليل » •

رحلات ليونهارت رادولف ص ١٦٩ ـ ١٧١ الترجمة الانكليزية ط١٦٩٣م

شروح وتعليقات المعرب على الفصل الاول

(١) دارا قرية صغيرة على بعد اربعة وعشرين ميلا من مدينة نصيبين • كانت في أول عهدها حصناً منيعا أنشأه الامبراطور الروماني انستاسيوس وأسكنه عدداً من الناس وكان يحيط بهذا الحصن سوران عاليان لهما أراج مرتفعة •

(٢) هذه القرية ليست « تل الشعير » الاخرى المعروفة في قضاء مخمور من لواء اربيل •

(٣) دوغر و (٤) ازروار من القرى القديمة في قضاء سنجار ولعـل ازروار هي قرية « زيروان » •

(٥) اورفه : يسميها العرب باسم « الرها » و » الرقة « • ويطلق عليها غيرهم اسم « رهاوي » وهو مأخوذ من اسمها القديم « ارهوي » وسماها اليونانيون باسم « اذيسا Edessa » • اعاد الامبراطور الروماني جوستنيان عمارتها سنة ٥٤٥م وسماها باسمه (جستنيابولس) وتذكر بعض التواريخ القديمة ان النبي ابراهيم الخليل عليه السلام قد هاجر من اور الكلدان في العراق الى أورفه هذه وشيد المسلمون فيها مسجدا يعرف باسم مسجد ابراهيم الخليل وكان يحيط بها سور محيطه خمسة اميال وهي الان من الاراضي التركية وسكانها خليط من المسلمين والنصارى •

(٦) م • اوتر M. Otter رحالة فرنسي شهير زار العراق سنة ١٧٣٦م قادما الها من سوريا فنزل الموصل ثم انتقل منها بطريق البر الى اربيل وكركوك ومنها الى بغداد • وتقع رحلته في مجلدين كبيرين ولم تترجم الى العربية بعد حسبما نعلم •

(٧) جمـــن Tchemen قـد تكون من النقاط التي اكانت تتوقف عندهـ القوافل في طريقها من اربيل الى كركوك وربما كان الرحالة راولف قد سأل عن المكان فقيل له انه (جمن) وهذه الكلمة تعني باللغة الكرديـــة المرج او الحرش فخيل اليه ان الكلمة اسم لمكان او قرية .

(٨) الحاج عبدالرحمن احد تجار الموصل كان عائدا من الحجاز بعـــد اداء فريضة الحج الى سوريا ومنها الى العراق وقد رافقه بكنفهام في رحلته من حلب الى الموصل .

(٩) الحاج عبداللطيف ابن اخت الحاج عبدالرحمن وقد ادى معه فريضـــة الحـــج .

(١٠) الدكتـــور ليونهـــارت راوولـــف Dr. Leonhart Rauwlff
عالم وطبيب هولندي ولد في اوغسبرغ وتخصص في علم النبات وقد خرج في الثامن من أيار سنة ١٥٧٣ من المانيا قاصـدا الشرق للاطلاع وجمع نماذج من الحشائش والنباتات لحساب احدى الشركات التي تعهدت بالانفاق عليه . وقد وصل راولف الى سوريا في آب ١٥٧٤ وركب من قرية بير احد القوارب في نهر الفرات حتى وصل الفلوجة ثم انتقل الى بغداد وبعد ان زار بابل توجه من بغداد الى الموصل بطريق كركوك اربيل ومنها الى تركيا فاوربا . وقد ترجمت رحلته الى الانكليزية لاول مرة سنة ١٦٩٣ وقد اوشكنا على الانتهاء من ترجمة هذه الرحلة واعدادها للطبع .

(١١) Belled Chitteea قد يقصد بها « الشـــطية » اي المناطق التـــي تزرع صيفا على شواطيء الشطوط ، الانهر أو انه يقصد بها الشتوية التي يقضى فيها فصل الشتاء ولكن التفسير الاول أدنى الى الصواب .

(١٢) ماردين : مدينة قديمة بين اورفه وديار بكر تقع على تل مرتفع يحيط بها ســور فيها عدد من المســاجد والكنائس وسكانها خليط من المسلمـــين والنصارى . اجتاحها تيمورلنك سنة ٧٩٦هـ فخرب سورها وحصونها وهي اليوم من ضمن الاراضي التركية .

(١٣) ســـنجار Singara من مدن العراق القديمة التي يرجع بناؤها الـــى العهد الاشوري وهي اليوم تؤلف احد الاقضية المهمة بلواء الموصل ويسكنها عدد كبير من اليزيدية .

(١٤) ســيلاريوس Cellarius كاتب ومؤرخ روماني عاش في القـــرن الثالث قبل الميلاد وكتب عن حروب اباطرة الرومان في الشرق ولكن اشهر كتبه هو « الجغرافية القديمة » وقد وصف فيه العراق في ذلك العهد .

(١٥) تراجـــان Trajan من اكثر اباطرة الرومان طموحا هيأ حملة هائلة لفتح العراق واستطاع ان يحتل القسم الشمالي الغربي منه ما عدا مدينة « الحضر » التي حاصرها مدة طويلة دون ان تستسلم له فارتد عنها وقد جرح تراجان في معارك العراق هذه ومات بعد سنة من قيامه بحملته الكبرى تلـــك .

(١٦) طيســـفون Ctesiphon احدى القصبات السبع التي عرفت باسم « المدائن » في العراق وقد انشئت هذه المدينة في القرن الرابع للميـــلاد وفيها أقام كسرى ملك فارس ايوانه الشهير الذي لا تزال اطلاله قائمة حتى اليوم وتعرف المدينة الان باسم « سلمان باك » نسبة الى سلمان الفارسي حلاق الرسول (ص) الذى دفن فيها ويزار مرقده الذى يقع وسط مسجد كبير وكانت سلمان باك الى ما قبل سنوات منتزها لاهل بغداد يؤمونها ايام الربيع ويقيمون خيمهم في بساتينها وارياضها ويحتفلون بليلة الحـــادي والعشرين من آذار ، وهو عيد نوروز الايراني ، احتفالا تقليديا لطيفا . وسلمان باك ناحية تابعة الى بغداد وهي مركز سياحي بسبب وجود بقايا الايوان الذي يسمونه « طاق كسرى » .

(١٧) ســلوقية Celucia هو الاســم العربي لمدينة سيلوكيا التي بنـــاها سيلوكوس (سيلوقس) احد قادة الاسكندر المقدوني الذي افتتح العراق في القرن الرابع قبل الميلاد فلقد تولى سيلوقس الحكم في العراق بعد وفاة

الاسكندر مباشرة وجعل من هذه المدينة عاصمة لملكه بدلا من بابل • وقد وقد غزا الفرس سلوقية سنة ٢٤٧ قبل الميلاد فهدموها كما هدموا مدينة بابل واقاموا مكان سلوقية مدينة باسم « بهر سير » وكانت سلوقية تقع على الضفة اليمنى من نهر دجلة مقابل طيسفون تماما وتعرف آثارها الآن باسم « تل عمر » وقد سماها العرب باسم ساليق ايضا •

(١٨) المقصود بها مدينة « الحضر » التاريخية الشهيرة التي ازدهرت في القرن الثاني بعد الميلاد وكانت عاصمة مملكة عربية واسعة الاطراف • وكانت هذه المدينة تقع على ضفة نهر الثرثار شمالي غربي ناحية « الشرقاط » الحالية وقد تعرضت لغزو الرومان وحصارهم كما غزاها الفرس وحاصروها أياما عديدة ولم يستطيعوا النفاذ الى داخلها الا بعد حدوث خيانة اتهمت بها « النضر » ابنة « الضيزن » ملك الحضر حيث دخلها الفرس في أعقاب تلك الخيانة ففعلوا بها ما فعلوه بقية المدن الخالدة التي اقتحموها اذ نهبوا ذخائرها وخربوها وقد هجرت الحضر منذ استبلاد الفرس عليها في القرن الرابع للميلاد ولم يسكنها احد بعد ذلك وهي اليوم من المناطق الاثرية الهامة في العراق أقامت فيها مديرية الآثار متحفاً وفندقا ومقهى للسياحة واعتبرت من النواحي التابعة للواء الموصل •

(١٩) كليكيا [illegible] احدى المدن القديمة في آسيا الصغرى كانت في زمن البابلين والاشوريين عاصمة مملكة كبيرة وتقع في سفح جبل طوروس وكان العرب يدعونها قليقية وهي اليوم داخل الاراضي التركية •

(٢٠) سيليناس Silinas وتدعي تراجانوبولس ايضا

(٢١) قسطنطين Constantius •

(٢٢) سابور هو المعروف باسم سابور ذو الاكتاف وهو سابور الثاني من ملوك العائلة الساسانية في ايران • نودي به ملكا قبل ان تلده امه وقد حكم مدة ستين سنة في الفترة ما بين ٣١٠ – ٣٧٠م ولقب بذي الاكتاف لانه كان

يشقب اكتاف اسراه من العرب الذين ثاروا عليه وهاجموا ايران في عهده وهو الذي دحر الامبراطور الروماني قسطنطين في معركة سنجار كما انه فك الحصار الذي فرضه القائد الروماني يوليانوس على مدينة طيسفون •

(٢٣) أدوارد غيبون E. Gibbon من أعاظم المؤرخين الانكليز ولد في لندن سنة ١٧٣٧م ودخل جامعة أكسفورد ثم ارتحل الى لوزان في سويسرا دخل البرلمان الانكليزي ومكث عضوا فيه مدة عشر سنوات • وقد شرع بتدوين كتابه الشهير « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » منذ ان كان في الرابعة والعشرين من عمره وقد أتم كتابه هذا الذي يقع في عدة مجلدات كبيرة سنة ١٧٨٧ م وتوفى غيبون سنة ١٧٩٤ م ويعتبر كتابه خير موسوعة عن روما القديمة •

(٢٤) أميدا او آمد Amida هي التي تعرف الآن بديار بكر وكانت جزءاً من العراق وهي من مدنه الشهيرة في الشمال تقع على مرتفع يطل على نهر دجلة وكان لها سور محصن له أربعة مداخل وكانت قبيلة بكر العربية قد استقرت هناك قبل الفتح الاسلامي بزمن طويل وهي اليوم ضمن الاراضي التركيـة •

(٢٥) Hillel ولعله يعني (خليل) أو اسم مشابه له من أسماء الرؤساء الذين كانت القرى تسمى بأسمائهم قبلا • وربما كان هذا تحريف لاسم قرية « باخليف » من قرى سنجار في تلك الانحاء •

(٢٦) البرابرة Barbarians يقصد بهم في هذا الموضع قوات الجيش الفارسي •

(٢٧) جزيرة ابن عمر اسمها القديم بازابدا Bozabdi وهي من المدن القديمة في شمالي العراق وقد سميت باسم جزيرة ابن عمر نسبة الى الحسن بن عمر ابن خطاب التغلبي الذي عمرها وأحسن تنظيمها في حدود سنة ٢٥٠ هـ وتقع المدينة في شبه جزيرة تحيط بها المياه من ثلاث جهات وتشتهر بحدائقها وبساتنها وهي اليوم داخلة في الاراضي التركية •

(٢٨) حصن العرب Castle of moors يقصد به مدينة الحضر العربية التي مر ذكرها

(٢٩) الامبراطور جوفيان ٣٣١ – ٣٦٤م فلافيوس يوفيانوس جوفيان ولد سنة ٣٣١ وكان ضابطا في الحرس الامبراطوري برتبة نقيب عندما قام الامبراطور جوليان بحملته على ايران والعراق • وحين توفي جوليان في تلك الحملة اختار الجيش جوفيان امبراطورا لروما وقد أكمل التراجع الذي قام به جوليان في تلك الحملة واستطاع رغم تعقب الفرس له ان يصل الى ضفاف نهر دجلة وكان وقع معاهدة مع شابور الثاني ملك ايران تنازلت بموجبها روما عن الولايات التي كانت تحتلها ومنها أرمنيا •

(٣٠) شنعار Shinar وتكتب أحيانا سنعار Sinar

(٣١) سان جيروم Saint Jerome

ولد في حدود سنة ٣٤٠م في مدينة ستريدونا على حدود دلماسيا من أبوين أرثوذكسيين • درس القانون وسجل اسمه مع المحامين الرومانيين وانتقل الى مدارس الفلسفة وسمع محاضرات عن افلاطون وديوجينيس وعاش زمنا مع الرهبان في دير اكويليا ومن ثم استوطن مدينة القدس أي بيت لحم في فلسطين ووضع فيها عددا من المؤلفات الادبية والفلسفية والدينية وقد أصبح فيما بعد من كبار القساوسة وكان من المعجبين بالفيلسوف الاسكندري أوريجين •

(٣٢) ارك Arach أو ايرك Erech هي مدينة اروك السومرية وسماها الاغريق « ارخوي » واطلق العرب عليها بعد الفتح الاسلامي اسم الوركاء والورقاء وتقع شرقي نهر الفرات وعلى بعد مائتين وعشرين كيلومترا جنوبي بغداد وكانت مركز الاشعاع الحضاري في العهد السومري (سنة ٤٢٠٠ قبل الميلاد) وكانت مسورة وشكلها دائري يبلغ محيطها ثماني كيلومترات ونصف •

(٣٣) سبقت الاشارة الى اورفه في الفقرة (٥) من هذه الشروح •

(٣٤) أكاد Achad أو أكد Accad هي الدولة الاكدية التي قامت جنوبي العراق في الالف الثالث قبل الميلاد والتي أخذت هذا الاسم من عاصمتها « أكد » التي أسسها الملك سرجون وهي تقع في منطقة « اليوسفية » الحالية وقد استطاع سرجون ان يمد رقعة مملكته فشملت العراق وجنوبي فارس وآسيا الصغرى وقد انهارت مملكة أكد على أيدي الكوثيين الذين كانوا يسكنون الجبال شمالي العراق وشرقه •

(٣٥) نصيبين Nisibis من المدن القديمة جدا وقد ورد في التوراة ان نمرود ملك آشور هو الذي بنى مدينة نصيبين هذه وأحاطها بالاسوار وهي تقع على نهر جغجغ أحد روافد نهر الخابور وهي اليوم ضمن الاراضي التركية •

(٣٦) كالنح Calneh وكالح Caleh هو الاسم القديم لمدينة نمرود وتسمى شبارس أيضا ، وذكرت في بعض التواريخ باسم كالحو وكلحو أيضا • وتقع على الضفة اليسرى من نهر دجلة على بعد اثنين وعشرين ميلا جنوبي شرقي الموصل كانت هي العاصمة الثانية للدولة الاشورية وأول من نقب فيها هو المستر هنري لايارد الاثري الانكليزي المعروف ما بين ١٨٤٥ – ١٨٥١ م •

(٣٧) بنيامين التطيلي Benjamin of Tudela رحالة يهودي أسباني يعد أول الأوربيين الذين زاروا الشرق والخليج العربي والعراق • قيل انه قدم الى بغداد في عهد الخليفة العباسي المستنصر بالله في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي أي في الفترة ما بين ١١٦٥ – ١١٧٣ م • على ان كثيرا مما رواه بنيامين في رحلته مغلوط وذلك لانه اعتمد في نقله على ما كان يسمعه من أفواه الناس حتى ان بعض المؤرخين ينفون ان يكون بنيامين قد قام برحلته تلك فعلا • وقد وضع بنيامين رحلته بالعبرية وترجمت الى معظم اللغات الاوربية كما قام السيد عزرا حداد بترجمتها من لغتها الأصلية الى العربية وطبعها ببغداد سنة ١٩٤٥ •

(٣٨) كارستن نيبور Karsten Niebuhr رحالة الماني ولد في مدينة « الدنغورت » في ١٧ آذار ١٧٣٣ م من أب فلاح وقد درس الفلك والرياضيات في جامعة « غوتنغن » وذلك بعد ان بلغ الثانية والعشرين من عمره •

وفي سنة ١٧٦٠ انضم الى بعثة مؤلفة من أربعة أعضاء قرر ملك الدانمارك فردريك الخامس ارسالها الى الشرق الادنى وجزيرة العرب لتقصي المعلومات عن أحوالها العامة أو في الرابع من كانون الثاني سنة ١٧٦١ استقلت البعثة الباخرة (غرينلاند) متوجهة الى الشرق مقلعة من ميناء كوبنهاغن فمرت بمرسيليا ثم وصلت اسطنبول في الثلاثين من تموز ثم بارحتها في أيلول فوصلت الاسكندرية في السادس والعشرين منه • وأمضت البعثة سنة في مصر ثم أبحرت منها الى جدة فمدينة مخا في اليمن • وهناك توفي اثنان من أعضاء البعثة ثم لحق بهم ثالث في الهند وهكذا بقي نيبور وحده في الميدان • وقد وصل ميناء بوشهر الايراني في ٢٨ ايار ١٧٦٥ ومنها الى البصرة فوصلها في أوائل شهر آب وارتدى فيها الملابس العربية وسمى نفسه باسم عبدالله وانتقل منها بطريق نهر الفرات الى بغداد التي مكث فيها عدة أشهر حيث غادرها في الثالث من آذار سنة ١٧٦٦ الى الموصل ومن هناك سار الى ماردين وديار بكر فحلب ومنها الى الاسكندرونة الميناء السوري على البحر المتوسط ثم زار فلسطين وعاد الى سوريا ومن هناك غادر الى الاناضول والاستانة حيث بدأ عودته الى أوربا في أوائل حزيران ١٧٦٧ • وقد عين عضوا في المجمع العلمي الفرنسي بعد عودته من الشرق واصيب في أواخر حياته بالعمى وانتهت حياته الحافلة بتاريخ ٢٦ نيسان ١٨١٥ •

(٣٩) اسفار موسى الخمسة Pentateuch وهي سفر التكوين ، وسفر الخروج ، وسفر الاخبار ، وسفر العدد ، وسفر التثنية •

(٤٠) رحبوت أو رحبوث Rehopoth مدينة آشورية ورد ذكرها في التوراة والانباء متضاربة عنها فالبعض يقول عنها انها تقع في سهل شنعار ومعنى هذا

انها تقع جنوبي العراق بينا يذكر البعض انها من المدن الاشورية وكانت محصورة في المنطقة الواقعة على الضفة الشرقية من دجلة بين نينوى والزاب الكبير •

(٤١) ريسين Resen ذكرت في التوراة وسماها الاغريق لارسا مدينة آشورية تقع على ضفة دجلة الشرقية شمالي نهر الزاب الصغير والمؤكد ان قرية « السن » الحالية التي تقع عند اختلاط الزاب الصغير بدجلة هي موقع مدينة ريسين والتي سماها النسطوريون باسم « شنا » أيضا •

(٤٢) دانفيل M. D. D'anville رحالة فرنسي وصل الى العراق سنة ١٧٧٩ وكتب وصفا مسهبا عن أحوال بغداد وتقع رحلته في مجلدين باللغة الفرنسية •

(٤٣) بطليموس Ptolemy من كبار علماء اليونان في الفلك والجغرافية عاش في القرن الاول السابق للميلاد ووضع جداول فلكية ومعلومات جغرافية في عدد من الكتب التي الفها عن أقطار الشرق ومنها العراق •

(٤٤) الواح ثيوديوس Theodios Tables يقصد بها القانون الذي وضعه الامبراطور ثيودوس الثاني امبراطور المشرق الذي حكم في الفترة ٤٠١ ــ ٤٥٠م وهو الذي عقد مؤتمر افسوس سنة ٤٣١م الذي قرر طرد النساطرة واعتبارهم خارجين على الكنيسة وقد وضع قانونه سنة ٤٣٨م •

(٤٥) تروغلوتي اوترولوتي Troglodti الظاهر ان هذا الاسم من الاسماء القديمة التي كانت شائعة في أيام الليديين •

(٤٦) ديو كاسيوس Dio Cassius (١٥٠ ــ ٢٣٥م) مؤرخ روماني ولد في نيقيا باقليم بتينا • كان أبوه حاكما لدالماسيا وصقلية • رحل ديوالي روما فأصبح عضوا في مجلس الشيوخ واشتغل بالمحاماة وعهدت اليه ادارة بعض الولايات ثم عين قنصلا على أفريقيا وبعد استقالته أقام في نيقيا ووضع عن روما كتابا باليونانية سماه رومايكا Romaika •

(٤٧) اوريليا Aurelia وسبتميا Septemia من الاسماء القديمة لمدينة سنجار الحالية وقد ذكر ذلك عنها مؤرخو اليونان والرومان •

(٤٨) اشار الى عملية الرصد التي قام بها الخليفة العباسي أبو عبدالله المأمون لمعرفة مقدار محيط الارض وقد اجريت هذه العملية على يد جماعة من علماء الفلك البارزين في ذلك العهد في صحراء سنجار منهم علي بن عيسى الاسطرلابي ، وسند بن علي الفلكي ، وخالد بن عبدالملك المروروزي وغيرهم وقد ظهر بتلك العملية ان محيط الكرة الارضية يبلغ ٤١٢٤٨ كيلومترا وهو قريب جدا من الرقم الحقيقي •

(٤٩) كتونيه Cottoneah وشاتونيه (٤٩أ) Chatonie تحريف لكلمة « شيخان » مقر اليزيدية •

(٥٠) ظن بكنغهام ، كما فعل كثيرون غيره من الرحالين الاجانب ان كلمة « الشيخان » مؤلفة من كلمتين هما « شيخ خان » Sheikh Khan ولهذا دونها على هذه الشاكلة •

(٥١) لليزيدية مواسم يزورون فيها مرقد « الشيخ عدي » الذي يعد بمثابة نبي اليزيدية • ويقوم مرقده في مدينة الشيخان وفي وادي يدعى «لالش» يقع بين جبلين • ويبدأ موسم الزيارة هذا في الفترة ما بين الخامس عشر والعشرين من شهر ايلول كل عام •

(٥٢) ان اسناد تهمة حرق مكتبة الاسكندرية الى القائد العربي الكبير عمرو بن العاص بعد افتتاحه مصر ، تهمة كاذبة لفقها الحاقدون على العرب والمسلمين ووجدوا فيها منفذا للطعن بالعرب والاسلام • فهذا الحادث لم يذكره الا قلة من مؤرخي العرب منهم أبو الفرج الملطي الشهير بابن العبري صاحب كتاب مختصر الدول الذي عاش في الفترة ما بين ٦٢٣ ـ ٦٨٥ هـ وكان متعصبا لنصرانيته • والثابت ان مكتبة الاسكندرية قد احرقت بأمر من

يوميوس قيصر وذلك قبل الفتح الاسلامي لمصر بعدة قرون • وقد أيد ذلك المؤرخ الروماني بولس أورسيوس في كتابه الذي الفه سنة ٤١٦ م •

(٥٣) الاب سيكار Pére Sicard من أوائل القساوسة المسيحيين الذين ظهروا في مصر بعد وصول المسيحية اليها وقد اعتبر هذا القس أوراق البردي التي تضم مدونات المصريين باللغة الهيروغليفية في شتى العلوم ، من المدونات المحرمة لذلك أمر باتلافها •

(٥٤) اوراق البردي Papyrus Manscrips البردي نوع من القصب ينمو على شواطىء الانهار وفي مناطق الاهوار بصفة خاصة وقد توصل المصريون الى صنع الورق من هذا القصب ودونوا عليه كتاباتهم وقد عثر في الاقصر والكرنك وابي سنبل على كميات من أوراق البردي المكتوب معظمها محفوظ الان في متاحف لندن وباريس وبرلين ونيويورك •

(٥٥) بحيرتا وان Van وشاهي Shahee تقعان داخل الاراضي التركية على مقربة من حدود أرمينيا والمناطق التي تنبع منها دجلة •

(٥٦) الذي نعرفه ان اليزيدية لا يتعدون في سكناهم حدود سنجار وتلعفر من ناحية الجنوب وهذه المنطقة لم تعد تقع على الطريق الممتد بين بغداد والموصل كما ذكر المؤلف ذلك خطأ •

(٥٧) جلبي Chelibi والسيد IL Signore من أسماء الشيطان عند اليزيدية [راجع عباس العزاوي : تاريخ اليزيدية واصل عقيدتهم ، ط • ١٩٣٥] •

(٥٨) المذهب المانوي نسبة الى ماني بن حماد الفارسي الذي وضع هذا المذهب الذي كان يقول بوجود آلهين احدهما آله النور والاخر اله الظلام فما يحدث من خير هو من صنع إله النور ، وما يقع من شر هو من فعل إله الظلام • وقد شرح ماني مذهبه هذا في كتاب الفه وسماه « كنز الاحياء » وقد آمن سابور ملك فارس بمذهب ماني وعمل على نشره لكنه ما فتىء ان انقلب عليه واذ ذاك هرب ماني الى الهند وظل فيها الى ان توفي سابور

فعاد الى ايران لكن مصيره كان القتل على يد الملك بهرام في مدينة سابور فارس .

(٥٩) يزد Yezd المعروف ان كلمة يزد والاصح « يزدان » تعني إله عند الفرس ولا يمكن من هذا أن يفهم ان هذه الكلمة تعني « الشر » أو الشيطان حتى يمكن نسبة اليزيدية اليها لان كلمة الشيطان لدى الفرس هي « اهريمان » أو إله الشر .

(٦٠) أورمزد Ormuzd يقصد به إله الخير لدى الفرس القدامى .

(٦١) جبل جودي أو الجودي يقع في المنطقة الممتدة بين نهري دجلة وفيشخابور وهو يعتبر أعلى قمة في سلسلة جبل « شرناخ » ويبلغ ارتفاعه ٢٤٦٠ مترا والمعتقد ان هذا الجبل هو الذي ورد ذكره في القرآن الكريم ورست سفينة نوح عليه وقت الطوفان اذ قال تعالى « واستوت على الجودي » .

(٦٢) جل أغا Chehel Aga ولعل المقصود بها « اربعين من الاغوات كما كان شائعا اسم جلميران أي أربعين أمير .

(٦٣) ذكرهم الرحالة راوولف باسم كورترس Curters وسماهم غيره باسم كرتوش وكردوش وكردوخ وكل هذه الاسماء يقصد بها الاكراد .

الفصل الثاني

من سهل سنجار ، بطريق الرميلة ، الى الموصل

الثالث من تموز :

غادرنا مستقرنا في السهل بعد ان أفل القمر مباشرة ومع انه قد انضم الينا حرس اضافي مؤلف من ثمانين رجلا مزودين بالسلاح تزويدا حسنا ، ومتمرسين في ركوب الخيل ، فان مجموع أفراد القافلة لم يزد على مائتي شخص .

واذ بدأنا مسيرتنا ليلا ، واتجهنا نحو شرقي الجنوب الشرقي ، اجتزنا واديا عميقا امتلأ بكتل هائلة من الصخور تؤلف عرقا صخريا في أرض الوادي أشبه بمجرى سيل عميق . اما بقية الطريق فكانت أرضا صحروية على الرغم من أن الارض التي كنا نسير فيها تغطيها تربة جيدة وتجري فيها عدة جداول للمياه وتصلح أن تتحول الى أرض خصبة .

وحين ارتفع عمود الشفق ، وقبل ان تظهر أولى أشعة الفجر ، توقفنا في موقع يدعى « الرميلة »[1] لنملأ أوعيتنا بالماء ما دامت رحلتنا التالية ستكون ليلا فقد لا نعثر على أية كمية من هذه المادة التي لا يمكن الاستغناء عنها . ولقد تقرر ان تستمر مسيرتنا من دون توقف حتى نبلغ ضفاف نهر دجلة كيما نستطيع

بذلك أن نجتاز سهل سنجار الخطر هذا ليلا ، ونتجنب بذلك التعرض للبزيدية قطاع الطرق في جنح الظلام * .

شرع جميع أفراد القافلة يؤدون صلاة الفجر بصفة غير اعتيادية من الخشوع تفصح بجلاء عن مدى الرهبة المهيمنة عليهم ، وتؤكد بأن الخوف كان أقـوى دافع لاداء هذا الواجب من العبادة ذاتها[2] .

كان بين المصلين شخص واحد يردد الدعوة الى الصلاة عاليا بصوت جميل وبالطريقة المألوفة في « المدينة » موطن النبي وهي طريقة تختلف عن الدعاء المألوف وان كان الاذان والصلاة خاصين بالطائفة السنية[3] .

وقد اعجب البعض بذلك الاعجاب كله ، بينا اعتبره آخرون بدعة سمجة ، في حين سخر منه فريق ثالث وعدوه أمرا مضحكا . والواقع ان هناك اختلافا في الرأي عن فضائل هذا الطراز من العبادة أشبه بالخلاف الذي ينشب في الريف الانكليزي عند تجربة نوع جديد من المزامير أو انشاد الاوراد في الكنيسة .

---

* المظنون ان اليزيدية يخضعون لسلطة باشا الموصل والذى يسمح لهم بين الفينة والفينة بالذهاب الى القرى التابعة لادارته لشراء بعض الحوائج . وعدد السراق الكبار بين اليزيدية ليس قليلا وهم الآن فى حرب مع عرب وادي الرافدين ولذلك تراهم يحتفظون بالاسلحة والبنادق التى تشعل بالفتائل ، وبالسـهام والحراب . ولقد كانت القوافل تقاسي كثيرا منغاراتهم . ولا يتخلى رجال القوافل عن كل متاعبهم الى هذه العصابات التى اعتادت مهاجمتهم ، ويهادن القطاع من اليزيدية من يستطيع ان يهيء لهم اقواتهم والبستهم . ولقد لاحظت هنا كيف جرب باشوات بغداد فى مختلف العصور اخضاع اليزيدية ، ومهاجمتهم بقوات كبيرة ، لكنهم لم يصيبوا النجاح فى ذلك دوما . ولقد حاول « علي باشا » ذات المحاولة لكنه لم يكن موفقا فى ذلك . فقد ذكر ان حملته ضـد اولئك القسـاة المتوحشين لم تمكنه الا من الاسـتيلاء على ثلاث أو أربـع من قراهم حيث وقعت مذبحة اصابت بعض العوائل المنكوبة التى اجبرت على اعتنـاق الدين الاسـلامي من دون تعويض » .

[م . روسو : وصف باشوية بغداد ص ٩٨ ـ ٩٩ طبعة باريس ١٨٠٩ .

Description Du Pachalik De Baghdad. PAR M. Rousseau. Paris 1809 P. 98‘99.

واذ غصت خيمة الحاج بالفرسان المرافقين لنا والذين كانوا بعددهم ووضعهم سادة الموقف العظام ، فقد شرع كل واحد من ضيوفه يهيىء له ملجأ موقتا يقيه لفح أشعة الشمس المحرقة حين انتصف النهار . فلم تكن هناك نسمة ريح واحدة تتحرك . وكان المحرار قبل الظهر بساعة واحدة يشير – تحت خيمة مزدوجة قامت فوق الرؤوس – الى الدرجة ١١٧° ثم ارتفعت في الساعة الى الدرجة ١٢٦° . وقد أصبحت حالتنا بفعل جفاف الارض والسكون المخيم عليها ، والوقد الذي يشعه السـهل الصحراوي ، أكثـر تأثرا بالانفعالات ممـا يعجز الوصف في التعبير عنه .

وفي هذه اللحظة بالذات ، وتحت وطأة ذلك الجو المرهق ، كانت تمتد أمام أبصارنا الى الشمال الشرقي جبال كردستان الشامخة المكللة بالثلوج فكانت مفارقة عجيبة جدا زادت من تطلعنا الى منطقة أكثر برودة ، وجعلتنا أقل صبرا على ما كنا نعانيه .

كان طريقنا في الليلة السابقة يمتد نحو الجنوب الشرقي في نقطة أو نقطتين وكان مجموع ما قطعناه لا يتجاوز عشرة أميال خلال أربع ساعات ابتداء من آخر مرحلة اقمنا خيامنا فيها عند قرية (چل أغا) الى الموضع الحالي الذي وقفنا عنده في الرميلة . وقد مررنا على بعد متساو من هاتين النقطتين ، أو في وسط الطريق الذي قطعناه تقريبا ، بجدول ماء يدعى « داما كوبي »[5] .

اما مدينة الجزيرة[6] التي تحدثنا عنها فتقع على نفس المسافة من هنا باتجاه الشمال والشمال الشرقيه ، مثلما تقع نصيبين باتجاه الغرب والشمال الغربي .

وحين يراد وصف الجزيرة وهي في ذروة مجدها يقول ابناء البلاد عنها انها كانت تضم ثلثمائة وستين مسجدا ، أي بقدر عدد أيام السنة .. وذلك قول لا يمكن تصديقه وانما يراد به المبالغة في العدد ليس الا .

وأبنية هذه المدينة ، مثل أبنية ديار بكر ، مشيدة بالحجر البركاني الاسود الذي يسبغ عليها مظهرا داكنا ، ومنه أخذت النعت المميز الذي أطلقه عليها الاتراك وهو « قره » أي الاسود .

وقد قيل ان مساحة المدينة ، حتى في حالة التخريب التي هي عليها في الوقت الحاضر ، تعادل مساحة « اورفه » . لكن المعروف عنها انها لم تكن بمثل هذه السعة وانها لم تكن مدينة حسنة البناء .

تؤلف ثمار الجوز التي يؤتى بها من جبال كردستان وتصدر من هناك الى حلب ، المصدر الرئيس للثروة والحرفة لدى السكان الذين يتألفون بصفة رئيسة من الاكراد مع نسبة قليلة من العرب والاتراك .

وهذه المدينة لا تعتبر من المدن ذات الآثار الهامة فاسمها عربي خالص يعني احدى الجزر . ومع انه يطلق الآن بصفة خاصة على هذه المدينة الا انه كان قديما هو الاسم العام لبلاد الرافدين أو الارض الخاليةالممتدة بين دجلة الفرات * .

وقد وصف بنيامين التطيلي الجزيرة التي نعرفها في هذه الايام بانها « جزيرة ابن عمر »(٧) التي تقع على « مسيرة يومين من نصيبين » . فقال عنها انها كانت (محاطة بنهر دجلة) ومن ذلك أخذت اسمها على وجه التأكيد (وهي تقع عند سفح جبل طوروس ، كما يسمى جبال كردستان هكذا (على مسافة أربعة أميال من الموقع الذي استقرت عليه سفينة نوح) .

ولقد أصبحت تلك المدينة فيما بعد عاصمة لبلاد الرافدين وكانت تضم ، وفقا لما ذكره ذلك الحاخام ، حوالي أربعة آلاف يهودي(٨) .

وقد تناقص عدد السكان فيها تناقصا كبيرا منذ ذلك العهد ثم تدنت المدينة نتيجة لذلك . ولكن المظاهر المحلية بما فيها موقع المدينة ومكان الجبل الذي يعتقد ان سفينة نوح قد رست عليه ، ما يزالان باقيين دون ما تغيير .

واذ استقينا الماء الذي نحتاج اليه من جدول صغير في الرميلة وهيأنا بعض التدابير الاخرى التي وجدناها ضرورية لمسيرتنا الطويلة المقبلة ، فقد شرعنا بعد

* الخزانة الشرقية مجلد ثان ص ١١١ .

Bibilio theque Orientale' VOL. 11' P. 111.

صلاة الظهر التي اشترك الجميع فيها ، نوسق جمالنا بالامتعة ، وغادرنا مضرب خيامنا في الساعة الواحدة .

أخذنا نسير الآن نحو الجنوب الشرقي في سهل ولم نلحظ في الطريق شيئا ذا أهمية خاصة عدا ثلاث رواب صغيرة مررنا بها في فترات متساوية بين الظهيرة وغروب الشمس وهي تلال تسمى بالتعاقب تل فرات ، وتل هوا ، وتل موس ، وجميعها تستخدم بمثابة اشارات لطريقنا ، ونقاط مرتفعة للمراقبة كالكثير من النقاط الاخرى المشابهة المبعثرة على وجه هذه النجاد الصحراوية .

لم نتوقف في المساء بل واصلنا مسيرتنا أثناء الليل حيث طلع علينا في القسم الاول منه قمر مشرق أخذ ينير سبيلنا . فبعد ظهر ذلك اليوم لاحظنا السراب لاول مرة . وفي تلك الليلة ذاتها جربنا لاول مرة سقوط الندى منذ ان دخلنا بلاد الرافدين . وعند منتصف الليل بلغنا أرضا ذات مستنقعات يجري فيها جدول ماء رائق في مجرى تقوم على جانبه أشجار الحلفاء السامقة الكثيفة.واذ كان الجدول مختفيا بين هذه الاشجار ، فقد كان خريره يسمع من بعيد قبل أن تقع العين عليه بالذات . ولقد استبد العطش بالخيول لطول السرى ، وحرارة الجو المرهقة حتى أثناء الليل . فكان اضطرابها الناشىء عن نفاذ صبرها الذي دلل عليه تعثرها وحمحمتها ، وامعانها الشديد في الجري كلها نحو نقطة معينة ، كل هذه أعطتنا في الواقع اولى الدلائل على اقترابنا من الماء الذي كانت تميزه بحاسة الشم القوية لديها حتى قبل أن نسمع خريره بمدة طويلة . بعد ان اضطررنا الى الاستدارة نحو الجهة الجنوبية من الطريق الذي كنا نسير فيه ـ بسبب هياج الدواب التي لم نستطع السيطرة عليها ـ ووصلنا الى حافة ذلك الجدول ، وجدنا ان ضفافه كانت عالية عن سطح الماء الى درجة لم تستطع الخيول ادراكه لترتوي منه . وما لبثت بعض الخيول ـ وكانت أكثر نفاذ صبر من البقية ـ ان القت بنفسها وبمن يمتطونها وسط مجرى الماء دفعة واحدة . وقد تم انتشالها بصعوبة ظاهرة بعد ان اقتيدت سباحة الى مكان من الضفة أقل ارتفاعا وتستطيع أن تتسلقه .

وقد غرق في النهر اثنان من خيول القافلة لانها كانت تنوء تحت أثقال أكثر من غيرها اذ كانت تحمل الامتعة والاشخاص معا .

كان النهر ضيقا عميق الغور امتلأ قعره بالطمى الناعم • وقد سقط فيه جواد ثالث فاختنق خلال بضع دقائق • وكانت الابل تسير بتوءدة على امتداد حافة الضفة ، وكذلك أفراد القافلة الذين كانوا يحملون المزاود والاوعية الاخرى التي لا تحوي سوى كميات ضئيلة من الماء •

لم يعد مستطاعا ابعاد الخيول عن النهر بكل ما لدى راكبيها من قوة • وكذلك لم يمكن ابعاد حشد الحجاج العطاش الذين ما فتئوا – وهم لا يحملون أوعية ينقلون الماء بها – ان حذوا حذو الخيول النافذة الصبر فالقوا بأنفسهم في الماء دفعة واحدة •

اما أنا فعانيت من المصاعب ما لا أستطيع أن آتي على وصفه تماما ، كي أحول بين حصاني وبين سقوطه من أرض الضفة الرخوة التي كان يقف عليها ، والغوص في التيار مع الآخرين • ولقد استخدمت كل ما مكنتني ذراعاي منه لكي أبعده عن ضفة النهر في وقت كان يتعثر عليها ، ويشخر ، ويحمحم ، ويقف على ساقيه الخلفيتين ليعرب بذلك عن الألم الذي يعانيه من شدة العطش •

وفي هذه اللحظة الحرجة التي كنت أعانيها واذ كنت أفكر فيما اذا كان يجب أن لا اغامر بالترجل عن حصاني وادعه يسير على هواه بعد ان أخذت آيس من السيطرة عليه ، تقدم مني أحد الفقراء الهنود ، وهو من جماعة الحاج ، فتناول صحنا كنت أحمله معي وهو مصنوع من الصفيح أشبه بحوض مستدير لا يحوي من الماء أكثر من « بنت » واحد(٩) • وكان لهذا الصحن ثقبان صغيران في جنبيه يربط منهما بأشرطة طويلة لتعليقه فوق الكتف عند السير • اذ ذاك ترجلت عن الجواد بأن افلت زمامه ، وانزلقت على ظهره حين كانت ساقاه الخلفيتان منتصبتين ، وهكذا نجحت في ترويضه اثناء فترة هدوء قصيرة بالملاطفة والعبارات اللينة التي تفهمها الجياد العربية جيدا • كما استطعنا بذلك الصحن الضحل المعلق بالاشرطة أن ننقل من ماء النهر ما يتسع له وان نكرر ذلك بسرعة • لكن الصحن حتى عندما كان يمتلىء لم يكن يكفي لترطيب فم الحصان ، وفي بعض الاحيان لا يبلغ

الماء فيه سوى نصفه ، واحيانا يخرج من النهر فارغا تماما لان الحصان الذي نفد صبره من الظمأ كان يقلبه من يد الشخص الذى يرفعه من النهر ، وهكذا كنا قد انزلنا الصحن الى الماء ورفعناه لاكثر من مائة مرة حتى ملت اذرعنا ومع ذلك فلم نكن بعد قد أطفأنا ظمأنا ، ولا خففنا من ظمأ ذلك الحيوان المسكين الذي كانت آلامه والام بقية دواب القافلة مؤلمة حقا لمن يراها •

كان هذا المنظر وسط عتمة الليل وفي غمرة صهيل الخيل ، وصياح المتخاصمين وتوقع الخطر بشكل مفرط لسبب غير متوقع اطلاقا ، يمثل الحالة المخيفة التي استمرت حوالي ساعة تقريبا • فلقد كان الدافع الاول للحفاظ على النفس يخفف من سورة الظمأ المحرقة • وهكذا نسينا اليزيدية في ذلك الوقت تماما ، وغابوا عن اذهاننا وكأننا لم نسمع بهم مرة واحدة •

* * *

الرابع من تموز :

هدأت الحالة اخيرا • وبعد توقف دام نحوا من ساعتين منذ ان وصلنا النهر في اول الامر ، استأنفنا السير باتجاه الجنوب الشرقي في سهل صحراوي غير مزروع الى ان اشرقت الشمس حين بلغنا جدول ماء رائق يجري ، كذلك الجدول الذى اتينا على وصفه قبلا ، في مجرى عميق تقوم على ضفافه الحلفاء السامقة ، ومياهه مرة المذاق كالجدول السابق أيضا • ومع ذلك فقد كان هذا الجدول وسيلة انعاش محببة لنا اذ لم نلبث ، في ضوء النهار ، ان ادركنا الاجزاء السهلة المنال من ضفة الجدول فتوقفنا عنده زهاء الساعة حيث شرع البعض منا يشربون ويدخنون غلايين الصباح بينما شرع البعض الآخر يتوضأ ويؤدي الصلاة •

اما انا فاخذت استحم في ماء الجدول ، وانعش حصاني المسكين فيه وقد ضاعف من شدة عطفي واساي عليه ، ذلك العذاب المشترك ، والخطر المتبادل اللذين تعرضنا لهما سوية •

حين اجتزنا جبل سنجار وسهله ، وخيل الينا اننا قد تجاوزنا الخطر في

تلك الناحية استدعينا طلائعنا فشرعوا يطلقون النيران من اسلحتهم انتصارا ، وخيل لكل فرد منا انه الآن حر في ان ينطلق حسب هداه • وطبقا لذلك اندفع خيرة فرسان القافلة منطلقين بخيولهم ومخلفين ابلهم ودوابهم الموسقة تسير في اعقابنا •

صعدنا منهناك بقايا تلال صغيرةتبدو قواعدها وكأنها مكونة من المرمرالابيض والسحابي اللون* حيث وصلنا نهر دجلة عند الظهر •

توقفنا هنا فدخلنا خيمة شيخ كانت عشيرته الصغيرة تخيم على ضفة النهر قرب قرية فقيرة تقوم على خرائب يسمونها « اسكي موصل » او الموصل القديمة(١١) كان الشيخ نفسه ـ وهو متحدر من خليط من العنصرين الكردي والعربي ـ يشبه الهنود في مظهره وملبسه • وكانت دلائل النسونة ظاهرة في لباسه ، في ثوبه الفضفاض المصنوع من النسيج الموصلي الحريري ، وفي الاقراط الذهبية التي يلبسها في اذنيه ، وفي مراوح الريش التي كان يستعملها مما يزيده شبها بالنساء •

ولم نر مثل هذه المظاهر بين الرجال من افراد العشيرة التي يرأسها وكانت بشراتهم جميعا اشد سوادا من بشرات اي من الناس الذين شاهدتهم منذ ان غادرت وادي الاردن* •

---

* **يسمى « اولفييه » (١٢) مواد هذه التلال [بالجبس السنجابي ،** والجبس الابيض الجميل جدا الذى يشبه المرمر] اوليفيه مجلد رابع ص ٢٦٤ اما « نيبور » فيقول عنها انها من المرمر •

Olivier : Vol IV P. 264.

* **وصف « اوتر » اقترابه من دجلة لاول مرة ـ ويظهر انه وصل ذات** الموقع الذى وصلناه نحن تقريبا ، والذى يتألف منه الطريق المعتاد للقوافل ، فقال [اقمنا مخيمنا فى هذا اليوم العاشر من نيسان على ضفاف دجلة ، وعلى مسافة قريبة من اسكى موصل ، وهو الاسم الذى يطلقونه على الموصل القديمة التى يسميها أهل البلاد « نينوى » (١٣) • وما ان رأينا هذ النهر بمياهه الوفيرة **حتى نسينا مكاره الصحراء التى اجتزناها ، وذلك بالسرور الذى خفف من ظمئنا • والشرقيون يسمون هذا النهر « دجلة » ويزعمون ان منبعه من شمالي**

كان نهر دجلة في هذه المنطقة اكثر ضيقا من اي جزء في نهر « التيمس » ابتداء من « نور »(١٤) حتى لندن • وكان تياره وهو مضطرب موحل لا يجري اسرع من ثلاثة اميال في الساعة ، ولو ان دجلة يشتهر بسرعة جريانه حتى قيل انه اخذ اسمه اليوناني من اسم احد السهام تعبيرا بذلك عن سرعته* •

واذ ارهقتنا مسيرتنا الطويلة في تلك الليلة فقد غلب النعاس الكثيرين من رفاقنا قبل ان تمد موائد الطعام السخية امامهم • وحتى اولئك الذين ظلوا يقظين لتناوله اقبلوا عليه بكسل ونعاس برهنا على ان حاجتهم الى الراحة كانت اكثر من حاجتهم الى الطعام •

وحين انتهت وجبة الطعام شرع سعاة البريد يستعدون لامتطاء خيولهم ومواصلة السفر لوحدهم ، او من دون علاقة لهم بالآخرين ما دام الخطر الكبير المتوقع من اليزيدية قد انتهى الآن •

لقد توقفت القافلة الآن على ضفاف دجلة ، ولم يرغب رئيس ساقة الابل ان يستأنف السفر حتى الغد • ولما كان يهمني ان اصحب اولئك السعاة في سفرهم فاضمن بذلك سفرى معهم من الموصل الى بغداد ، فقد استأذنت من الحاج عبدالرحمن ومن ابن اخيه الحاج عبداللطيف رغم انني كنت احس في تلك اللحظة بان كل طرف من أطرافي كان يوجعني ، واشعر وكأنه قد انتزع من مكانه ، وقد اضنى التعب جوادي المسكين وانهكه حتى اوشك ان يموت •

ديار بكر ، وهى قلعة قديمة خربة اشبه بكهف له دوي هائل • وفى مجراه حتى ديار بكر تختلط بدجلة انهار كثيرة •

[اوتر : **مجلد أول ص ١٢٦**

[Otter : Tome 1 P. 126

* **أنظر ملاحظة الدكتور « فنسنت » (١٥) فى كتابه « تجارة الاقدمين » عن الفرات ودجلة صفحة (٢٩) • كذلك يقول « يوسيفس » (١٦) فى تعداد انهار** الفردوس ان دجلة أو (دغلاث) (١٧) يعنى الماء السريع الضيق » •

يوسفس [**اليهودية القديمة ك أ ف أ فقرة ٣**

[Josephus Ant. Jud. b.Ic. 1 s 3.

ورغم ذلك كله ركبت مع السعاة الذين هيأوا هنا لانفسهم خيولا جديدة حصلوا عليها من الشيخ وبذلوا جهدا كبيرا لانجاز غرضي حيث غادرنا المخيم سوية .

مررنا ببعض الاراضي المرتفعة ، وشاهدنا بضع قرى صغيرة في طريقنا ثم استدرنا بانعطاف نهر دجلة متجهين نحو الشرق . وبعد مرور ساعة على بدء تحركنا عدنا ثانية الى ضفاف النهر . كانت تعبق في انوفنا اطيب الروائح التي ملات الجو ، منبعثة من النباتات البرية العطرة المنبثة بين المروج والاحراش التي كانت تحيط بالنهر* .

كذلك شاهدنا في طريقنا بقايا قنطرة رومانية كبيرة تؤلف في الواقع جزء من بناء قديم غير ان السير بسرعة مع السعاة الاتراك ليس من شأنه ان يهيء الفرصة لابداء ملاحظات دقيقة عن مثل تلك الآثار .

وحين أخذنا سبيلنا بامتداد الضفة الغربية لنهر دجلة كنا نمر بأراضي متموجة بالتلال وغالبا ما كان طريقنا يمر في جوانب هذه التلال وسفوحها لاننا كنا نحاول عدم الابتعاد عن النهر وتوجيه سيرنا نحو الجنوب تقريبا .

وقد مررنا هنا بخرائب لا يعتد بها وهي اشبه بخرائب مدينة اعتيادية لاتضم اية آثار ذات اهمية سابقة .

كانت خرائب تلك المدينة تدعى اسكي موصل او الموصل القديمة . وطبقا لما ذكره رفاقي الذين اخذوه عما هو شائع في تلك البلاد ، فقد قيل ان هذه الخرائب هي موقع نينوى القديمة . على ان هذا القول مغلوط بصفة واضحة لان نينوى تقع على الضفة الشرقية من نهر دجلة ولا يوجد جزء منها على ضفته

---

* أنظر ما دونه « زينفون » فى كتابه اناباسيس (الصعود) (١٨) Anabasis الذى لاحظ وجود هذه الخاصية ، اى كثرة المروج والاحراش فى بلاد الرافدين فى العصر الذى عاش فيه .

Anabasis : P. 249 — اناباسيس ص ٢٤٩

الغربية ، في حين ان كل الخرائب التي تشاهد هنا تقع في ارض مرتفعة على الضفة الغربية بينما تتألف الضفة الشرقية من أرض زراعية منبسطة تنتشر فيها القرى الكردية . وما خلا ذلك فان الخرائب القليلة التي وجدت في تلك الناحية ترجع الى تاريخ متأخر* .

على الجانب الغربي من دجلة اخذنا نصعد التلال تاركين ضفاف النهر على يسارنا بعيدا ، وفي هذا الجزء مررنا بقريتين او ثلاث تتألف كل واحدة منها من حوالي اثنى عشر كوخا مبنية بالحجر والطين وهي تدل على الفقر البارز . تركنا النهر الآن مسافة ابعد فابعد على يسارنا ، واتجهنا نحو الشرق فوق ارض مرتفعة غير مستوية ومع ذلك كانت تنحدر الى مستوى واطىء بشكل ثابت . ومررنا في طريقنا بعدة قرى صغيرة لم اعرف عنها شيئا سوى انها كانت مأهولة بالاكراد .

---

* فيما يلي الملاحظات التي أبداها « اوتر » حول هذا الموضوع . « ما ان يصل المرء اسكى موصل التى تمثل اولى الاطلال فى ذلك السهل حتى يشاهد على بعد ، بعض الاثار وقنطرة تمثل بقايا معبد في ذلك السهل الواسع . ويقول أهل البلاد ان محيط نينوى يبلغ ستين ميلا ، وانها بنيت سنة ١٠٧٣ بعد الطوفان وان الذي بناها هو « نينوس » بن بيلوس (بعل) . والسكان يشاهدونها على مقربة من المكان الذي ظهر فيه النبي يونس (١٨) فبنوا له فيه معبدا تكريما له وراحوا يزورونه . ويقول « أبو الفداء »(١٩) ان نينوى تقع على الضفة الشرقية من دجلة قبالة الموصل ، وانه سمع فى الموصل ان اثار نينوى قائمة دائما . ولقد اخطأ أبو الفداء كما وقع ابناء البلاد فى خطأ جسيم لانهم يضعون نينوى على الضفة الغربية من دجلة وفى المكان الذى يطلقون عليه «اسكىموصل» . وبناء عليه فان أية محاولة يراد بها التوفيق بين الرأيين ، على افتراض ان نينوى كانت مشيدة على ضفتى النهر ، لن تقدم فى الامر شيئا لان اسكى موصل تقع على مسافة سبعة الى ثمانية فراسخ عن نهر دجلة .

هنالك شيء واحد يوافق رأى ابى الفداء هو وجود مرتفع شرقى الموصل يسمونه « تللى توبى » اى « تل التوبة » «٢٠» ويزعمون ان سكان نينوى كانوا يعلنون التوبة عنده اتقاء غضب الله .

[اوتر مجلد أول صفحة ١٣٢ ـ ١٣٤]

Otter : T. I. PP 132 — 134.

وقبل ان تغرب الشمس تماما وصلنا قرية « همدان[٢١] » الكبيرة حيث توقفنا فيها لتناول العشاء وللاستراحة مدة ساعة .

كانت منازل الناس هنا تافهة كمنازل القرى التي مررنا بها قبلا وسكنة هذه القرى الاخيرة يشبهون العرب الافريقيين أو المراكشيين شبها تاما ، وهم ايضا اشبه بالعرق المصري المختلط في سنحهم ولون بشرتهم وملبسهم .

والاستقبال الذى لقي به هؤلاء القرويون رفاقي سعاة البريد اشبه باستقبال العبيد الوضعاء لسيد قوي ! .. فالطريقة التي كان سعاة الباب العالي هؤلاء ذوو التيجان الصفراء ، يعاملون بها مضيفيهم لقاء ذلك تشوبها الروح الاستبدادية للسلطان الذي يخدمونه .

الخامس من تموز :

بعد ان تناولنا وجبة طعام شهية ، ونعمنا بساعة أو ساعتين من رقاد ، امتطى السعاة جيادا جديدة هنا وعدت أنا الى امتطاء صهوة جوادي الذي تجاوزت روحه وطاقاته كل ما كنا نتوقعه فغدت قيمته في نظري أعظم وأعظم حين انطلقنا سوية بعد منتصف الليل من همدان قبل أن يغيب القمر .

كان مسرانا متجها بصفة عامة نحو الجنوب الشرقي لاننا قد غادرنا ضفة النهر في اليوم السابق ، واخذ النهر ذاته يتجه نحو الشرق ، وهو يقترب من الموصل . كنا نجري طيلة الليل فوق أرض مرتفعة ونحن ننحدر باستمرار الى مستوى اوطأ دون ان نمر باية قرية في طريقنا .

وحين انبلج الفجر بلغنا ابواب الموصل ولم نكن قد استطعنا رؤيتها قبل ان نقترب منها بمسافة مائة يارد . واذ صورت لنفسي شيئا من الفخامة في المظهر الخارجي الاول للموصل ، وذلك عندما تذكرت ما كتبه بعض الرحالة عن ذاك الموضوع(*) ، فقد اصبت بخيبة الامل لانني لم اجد شيئا ما في المنظر

* كامبل في رحلته برا الى الهند ، وغيره ، (٢٢)
Campbell, in his Journey over Land to India and Others.

الاول للمدينة يستحق الاعجاب رغم اننا بلغناها بعد سلسلة من القرى البئيسة ، والسهول الجرداء ، مما يزيد من جمالها بطريق المفارقة كثيرا .

وما ان دخلنا المدينة حتى بدت كلها مجردة من الاهمية تماما ، ولقد صدمتني اذ وجدتها سيئة البناء ومن اقل المدن اهمية ولاسيما اذا اخذنا بنظر الاعتبار مساحتها الشاسعة التي لم ار مثلها في الشرق بعد .

توجه السعاة الى قصر الباشا الذي تتصل به محطة السعاة ، اما انا فقد آويت الى دار تاجر مسيحي كبير هنا ، كان احد سكرتاري الحكومة . واذ كنت احمل معي رسالة من البطريرك السرياني في « ماردين » فقد وجدت من لدنه استقبالا وترحيبا وزودت بغرفة للاستراحة فيها .

وما ان انتهى احتفال العائلة باستقبالي وتناولت طعام الفطور الذي اعد امامي ، حتى اسعفت بخادم يصحبني حيثما أشاء في المدينة . ولقد ذهبنا معا الى أحد الحمامات وتلك من أعظم وسائل الانعاش ملاءمة بعد ذلك الضنى المفرط .

واذ غادرت الحمام وجدت الحضور في انتظاري وهم على استعداد لاصطحابي الى الباشا الذى سبق له ان سمع ، من سكرتيره ، ان رحالة انكليزيا قد وصل الى هنا ولذلك بعث بحرسه الي لاصطحابي الى ديوانه . وتعقبتهم الى القصر الذي كان قريبا منا ودخلنا على حضرة الباشا رأسا . ولقد رأيته رجلا جميلا بصفة خاصة في حوالي الثلاثين من عمره ، يرتدي اللباس التركي الفخم ، وقد احيط بالابهة والمظهر الملائمين له . كان يجلس وحده على اريكة ثمينة في زاوية الغرفة على مقربة من نافذة مفتوحة تهيمن على موقع مناسب . ولقد وقف حول الصالة حوالي خمسين خادما جورجيا وشركسيا كانوا يؤلفون حرسه الخاص من المماليك ومعظمهم ذوو جمال مفرط ، وجميعهم من الشباب الذين يرتدون الملابس الفاخرة ، وهم ينتظرون بصمت عميق واحترام تام اوامر سيدهم .

كان استقبالي في الحال محتشما كريما وديا فهذا الشاب الذي كان يدعي « حامد »[٢٣] قد تحدر من بيت تولت عائلته حكم الموصل أجيالا عديدة ،

وكانت صفاته حسبما ذكره التابعـون له ، وكما شهدته بنفسي ، تنم عن الاحساسات والمشاعر القوية التي يتحلى بها رجل رقيق القلب أريحي • وحين تحدثنا عن شؤون اوربا اظهر الماما واسعا عن ذلك الجزء من العالم اكثر مما اعتدت ان اجده لدى شخصيات مماثلة ، وحين كنت أسأله عن الاقطار التي تقع في ناحيتنا الشرقية والتي كانت انظاري متجهة نحوها ألفيته أهلا لتزويدي بكثير من المعلومات القيمة •

انتهت مقابلتنا حين بسط لي حمايته ومساعدته في اي امر قد ارغب القيام به • وعندما تحدثت اليه عن سفري الى بغداد نصحني بان اسافر مع السعاة برا اذا كان الاستطلاع هو ما ابغيه • اما ان كانت الراحة قصدي فالافضل ان اسافر بالارمات في نهر دجلة • وعلى أية حالة فقد أكد لي استعداده لمساندة آرائي ورغبته في ان يحقق رغائبي التي تعهد نفسه بتنفيذها •

واعترف هنا ان الخوف من الانفاق على الهدايا الضرورية للوكلاء الذين هم أدنى درجة ، كان الدافع الوحيد الذي حملني على ان أرفض المساعدة بسرعة وبوضوح حين عرضها علي • غير انني علمت ان هذا سيكون أكبر مما انفقته اثناء سفري مع السعاة من ديار بكر ، وان حالتي المالية في اللحظة الراهنة ، وبعد اعمال السلب التي تعرضنا لها اثناء سفرنا في بلاد الرافدين ، كانت تجعل هذا التقدير كبيرا •

وحين استأذنت من الباشا تراجعنا جميعا الى وراء ووجوهنا نحوه ، وتلك هي آداب اللياقة في هذه البلاد امام الرجال العظام ، اوعز الى اثنين من «قواصيه»(٢٤) ، أو حملة العصي الفضية، بأن يرافقاني في تجوالي بالمدينة • ولذلك خصصت بقية اليوم ، تحت ارشادهما ، لهذا الغرض حيث امتطينا جيادا جميلة من اصطبل الباشا وزرنا كل جزء يستحق الزيارة من المدينة* •

* مع ان العادات لم تتبدل كثيرا فى الشرق الا ان الصفات الشخصية للافراد الذين يتولون السلطة تحدث تغييرات كبيرة فى أساليب الاستقبال وطبيعة المعاملة التي يلقاها الرحالون فى فترات متباينة من زيارتهم لذات الاماكن • فيما

وحين عدنا في المساء اوصلني القواصان الى مكاني حيث وجدت خليطا كبيرا من مختلف المسيحيين الذين يقيمون هنا تجمعوا لتحيتي والترحيب بي • كان معظم هؤلاء من التجار واكثرهم ممن طاف بقسم كبير من الامبراطورية التركية ولقد كانوا بصفة عامة ـ كما اعتقدت ـ أكثر تحررا في عواطفهم وأعظم تعاطفا تجاه احدهم الآخر مما اعتاده مسيحيو الشرق • ومع ان جمعنا هذا كان يتألف من طوائف متباينة عديدة الا انه كان مفرحاً ومنسجما •

وتوجت وجبة العشاء باشربة قوية ووفيرة مما يعد عنصرا اساسيا في اي اجتماع مسيحي يعقد في مثل هذه البلاد • وقبل ان ينتصف الليل كان الكثيرون قد رقدوا حيث كانوا يجلسون ولم تستطع سوى قلة منهم أن تجد سبيلها الى مساكنها •

يلي وصف للزيارة التي قام بها « روولف » للباشا التركى وللاستقبال الذي استقبل به من لدنه قبل مائتين وخمسين سنة • « حين دخلنا غرفة الباشا التى كانت اعتيادية لكنها غطيت بالقماش الزاهى وزخرفت زخرفة جيدة ، وظهرت بالوقار المعتاد ، أخذ يسألنا ـ وهو جالس بجلبابه الطويل الاصفر اللون الغالي الثمن ـ عن طريق احد خدمه بالفرنسية التى يكن يحسنها ، من اى مكان جئنا ، وأية بضاعة جلبنا معنا ، والى أين نقصد • وبعد أن أجبناه ، مع مراعاة الوقت ، على كل سؤال طرحه ، لم يكتف بذلك بل طلب الينا ان ننسحب ونمكث الى ان نسمع جوابه • لقد فهمنا قصده جيدا وهو ان نتقدم اليه بهدية ومع ذلك فلم نفهم ما اراد واريناه جواز المرور الذى زودنا به كل من قاضى حلب وباشتها محاولين بهذا اقناعه ولذلك اخذ الجواز وقرأه ثم نظر بامعان فى ختميهما ، حيث اعتاد القاضى والباشا ان يوقعاه بعد ان يغمسا الختم فى الحبر اولا كيما تظهر الحروف سوداء •

وحين وجد الختمين صحيحين ولم يعرف ما الذى يريد ان يقوله لنا أكثر من ذلك ، قمنا بتبجيله ثانية وتراجعنا من حضرته الى وراء لانك ان أدرت ظهرك لاى فرد ، وان كان شخصا ضعيفا ، عد ذلك اهانة كبرى وخشونة وتحقيرا »

رحلات راوولف صفحة ١٤٤

Rauwolff's Traveles P. 144.

شروح وتعليقات المعرب على الفصل الثاني

(١) الرميلة : قرية كانت تقع على الطريق التي تمر بها القوافل من سنجار الى الموصل وقد سميت بالرميلة نسبة الى طبيعة الارض الرملية التي قامت فيها ولا يوجد لها اثر في الوقت الحاضر وربما تغير اسمها •

(٢) كثيرا ما يحاول الاجانب ان يظهروا في كتبهم عن المسلمين ان الخوف هو سبب تمسك المسلمين بشعائر الدين الاسلامي واحكامه ولكن الواقع هو ان اقبال المسلم على تأدية الفرائض الدينية من صلاة وغيرها انما مرده الى ايمان المسلم بالدين الحنيف الذي جاء به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم عن طيبة خاطر وتصميم والالتزام بتنفيذ كل ما امر به •

(٣) لا توجد سوى صيغة واحدة لاداء الاذان في اوقات الصلاة المقررة هي الصيغة التي شرعت في عهد الرسول وربما اعتبر بكنغهام اختلاف لهجات المؤذنين في اداء الاذان اختلافا في الصيغة •

(٤) م • روسيو M. Rousseau دبلوماسي فرنسي قال عنه الرحالة الانكليزي جاكسون الذي زار العراق سنة ١٧٩٧ انه ينتسب الى عائلة الكاتب الفرنسي الشهير جان جاك روسو تولى منصب القائم بالاعمال الفرنسي في بغداد في الفترة ما بين ١٧٥٩ – ١٨٠١ ووضع عنها كتابا قيما يعد من المراجع في احوال العراق السياسية والاجتماعية والاقتصادية في ذلك الوقت سماه « وصف باشوية بغداد » طبع بباريس سنة ١٨٠٩ [انظر كتابنا رحلة جاكسون الى العراق ط ١٩٦٢] •

(٥) داما كوبي Dama Kaupy لا يوجد نهر بهذا الاسم في الوقت الحاضر ولعله من التسميات التي تتغير كثيرا بتغير الازمان كما يحدث ذلك غالبا •

(٦) ، (٧) يقصد بالاول جزيرة ابن عمر التي كانت تسمى قديما بازبدا وقد

ذكرها المؤلف في الثانية باسم جزير ابن غمر هكذا Jezir Ben Ghimar وهو تحريف ظاهر •

(٨) ان ما ذكره المؤلف عن عدد اليهود في جزيرة ابن عمر مبالغ فيه تماما ذلك لان المدينة لم تكن من السعة بحيث تحتمل وجود مثل هذا العدد الكبير من اليهود فيها •

(٩) بنت Pint كيل انكليزي يبلغ مقداره ٥٦٨ر٠ من اللتر •

(١٠) اخطأ المؤلف او الناشر في تنسيق ايام رحلته هنا اذ ذكر اليوم السادس من تموز والصحيح هو اليوم الرابع •

(١١) اسكي موصل ومعناها بالتركية الموصل القديمة كانت تقع على الضفة الغربية من دجلة والمسافة بينها وبين الموصل الحالية حوالي سبع ساعات وكانت تعرف قبلا باسم « بلد » او « بلط » ولا يزال هذا الاسم يطلق عليها في بعض الكتب الحديثة •

(١٢) ج ١ • اولفييه G.A. Olivier رحالة فرنسي جاء الى بغداد في عهد الوالي سليمان باشا الكبير من المماليك الذي حكم العراق في الفترة ما بين سنة ١٧٧٧ الى ١٨٠٢ وقد وفد اولفييه من ايران ودون مشاهداته في رحلته التي تقع في مجلدين كبيرين طبعهما سنة ١٧٩١ بباريس •

(١٣) خلط الرحالة اوتر خلطا مشينا في حديثه عن اسكي موصل ونينوى ذلك لانه من غير المعقول ان يطلق اهل الموصل على اسكي موصل اسم نينوى لان نينوى تقع على الضفة الشرقية من دجلة قبالة الموصل الحالية في حين تقع اسكي موصل او بلد على الضفة الغربية •

(١٤) نور Nore مرسى للسفن في جزيرة تقع داخل نهر التيمس ببريطانيا وتبعد عن لندن بحوالي ثمانية واربعين ميلا •

(١٥) فنسنت هو الدكتور وليام فنسنت Dr. W. Vincent عالم ومؤرخ وجغرافي ورحالة انكليزي عاش في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي

قام برحلات الى عدة اقطار في الشرق منها رحلة الى الجزيرة العربية سماها « رحلة البحر الاحمر » « Periplus of Erythaen Sea
وله كتاب عنوانه « تجارة الاقدمين The Commerce of Ancients
وترجم كتاب رحلة نيرخوس The Voyage of Nearchus
الى بلاد السند والخليج العربي ونيرخوس هو القائد اليوناني الملاح الذي رافق الاسكندر الكبير في رحلته عبر فارس الى الهند وقد طبع هذا الكتاب في لندن سنة ١٧٩٢ م •

(١٦) يوسفس Josephus (٣٧ ـ ٩٥ م) مؤرخ وقائد عسكري يهودي ولد سنة ٣٧ م ودرس القانون ثم رحل سنة ٦٤ الى روما ثم قاد القوات اليهودية في فلسطين ضد القوات الرومانية لكنه مني بالهزيمة هو وقواته وقد عاد يوسفس الى القدس ليجمع النجدات لكن أحدا لم يتبعه • وضع عدة مؤلفات منها الحرب اليهودية واهم مؤلفاته الآثار اليهودية ويقع في عشرة مجلدات •

(١٧) دغلات Deglath أو ادغلات Adeglath هو الاسم الذي اطلقه البابليون على نهر دجلة وكان السومريون قبلهم يسمونه ادغلا Adegla ومنه اشتق اسمه العربي الحالي اما الفرس الماذيون فقد صحفوا كلمة « ادغلا » الى « اتغرا Atigra » ، ومعناها السهم • ثم جاء اليونانيون فأخذوا هذا الاسم عن الماذيين وحولوه الى اسم (تغروديس) ومن هذه الكلمة اشتقت كلمة تايغرس Tigris الانكليزية وتيغر الفرنسية Tigre

(١٨) زينفون Xenophon (٤٤٤ ـ ٣٥٩) ق٠م٠ سياسي ومحارب وفيلسوف يوناني شهير اشتهر بمغامرته العسكرية التي قاد فيها عشرة الآف رجل من المرتزقة من اليونان وسواحل سوريا الى العراق لمساعدة كورش الصغير ملك فارس ضد اخيه « اردشير الثاني » وقد انتصر اردشير في هذه الحرب وعاد زينفون بمن بقى من حملته الى اليونان بادئا بمنطقة

بابل في العراق صاعدا مع نهر دجلة الى آسيا الصغرى • وقد وصف كل ما شاهده في حملته هذه ذهابا وايابا في كتابه الشهير الصعود Anabasis او تقهقر العشرة آلاف ••

(١٩) النبي يونس هو المعروف لدى الاوربيين باسم يونان Jonas .وهو نفسه « ذو النون » صاحب الحوت الذي ورد ذكره في القرآن الكريم ويقع مرقده في الجانب الشرقي من الموصل وعلى تل كان يؤلف احد التلال التي تكونت منها مدينة نينوى القديمة • وانتشرت الآن حول المرقد بيوت عديدة مأهولة •

(١٩) أبو الفداء المؤرخ والجغرافي العربي الشهير (١٢٧٣ ـ ١٣٣١) عماد الدين اسماعيل بن علي الايوبي امير عربي ولد بدمشق سنة ٦٧٢هـ ـ ٧٣٢ هـ وهو ابن الملك الافضل وكان قد هرب من المغول ولجأ الى الشام وقد عاد أبوه الى حكم حماة فانتقل أبو الفداء اليها ثم عين نائبا عليها من قبل الملك محمد بن قلاوون ملك مصر • وقد شارك أبو الفداء في الحروب التي قامت بها اسرته ضد الصليبيين • وقد زار أبو الفداء مصر وطوف ببلاد الشام واشتغل بعلوم عدة ووضع عدة مؤلفات شهيرة منها المختصر في اخبار البشر وهو التاريخ العام الذي عرف باسمه • وله كتاب « تقويم البلدان » في الجغرافية الذي ذاعت شهرته في الشرق •

(٢٠) تل التوبة Telli Toube من المواقع الاثرية في شرقي الموصل وهو واحد من التلال التي كانت تتألف منها مدينة نينوى الاشورية • وقد عرفه بهذا الاسم « تل التوبة » عدد من المؤرخين والبلدانيين العرب الاقدمين بعد الفتح الاسلامي للعراق •

(٢١) همدان من القرى الهامة التي يسكنها اليزيدية في الوقت الحاضر وهي تابعة اداريا لمركز قضاء سنجار الحالي •

(٢٢) الرحالة كامبل Campbell من الرحالين الانكليز المعروفين في القرن

التاسع عشر وممن اشتغلوا لحساب بريطانيا في الهند والخليج العربي وله كتاب « رحلة برية الى الهند » •

(٢٣) حامد باشا والي الموصل من قبل الحكومة العثمانية في ذلك الوقت • وقد اعتادت الحكومة العثمانية طيلة ايام حكمها في العراق ان تعين ثلاثة ولاة احدهم في بغداد والثاني في البصرة والثالث في الموصل لانها كانت تقسم العراق الى ثلاث ولايات •

(٢٤) القواص : لغة تركية يقصد بها الحارس او المرافق •

الفصل الثالث

وصف الموصل

السادس من تموز :

تقرر أن يغادر السعادة الى بغداد يوم غد ، وبذلك توفر لي يوم آخر من الفراغ لاكمال اطلاعي على المدينة • وحينئذ طلبت الى قواصي الباشا أن يأتوني في باكر الصباح بثلاثة خيول جديدة ، حتى اذا ما جاؤوني ركبنا الخيول في وضح النهار واستأنفنا مهمتنا • كنت في تجوالي ، وأنا محاط باولئك الضباط من كل جانب ، المس دلائل التبجيل والاحترام في اي مكان كنت اذهب اليه ، واجد اسئلتي يرد عليها بسرعة •

وحين عدنا من الجولة الثانية وقت الظهيرة ، وبعد ان تمتعنا بالمنعشات التي اعدت لجماعتنا ، كان العدد الاكبر منهم قد اخلد الى الراحة ولذلك استفدت من هذا الفراغ الذي هيأه لي انفضاض القوم فاخذت ادقق تلك الملاحظات عن الموصل بما جمعته عنها من معلومات سابقة ، ومن ملاحظاتي الشخصية ، ومن اتصالاتي بالمقيمين في ذلك الموقع •

تقع هذه المدينة على الضفة الغربية من نهر دجلة في ارض واطئة منبسطة تمتد حول المدينة عدة اميال • وقد ظهر لي ان المخطط الذي رسمه « نيبور »



احد الأسواق المسقفة في الموصل سنة ١٨١٦ من رسم المؤلف

مقابل صفحة ٦١

لها كان صحيحا بصفة عامة ، ولو ان مشاهداتي قد اعانتني على ان أؤكد صحة مجمل ما ذكره دون التعمق في ذكر تفاصيله •

حين يدخل المرء المدينة من الشمال الغربي يبدو له انها كانت محاطة ، في وقت من الاوقات ، بخندق امتلأ الآن بالاتربة • اما السور فكان متهدما وهو لم يعد يؤلف سوى عقبة تافهة امام الجيش المزود بالمدفعية الذى يحاصر المدينة • ومع ذلك فقد يعتبر حاجزا يكفي لصد الاعداء الذين كانوا يحاولون الظهور امامه •

والمظهر العام للمدينة تافه لا أهمية له • فالشوارع ضيقة غير معبدة ، واستقامتها ليست منتظمة ولا توجد في المدينة ـ مع استثناء واحد ـ اسواق جميلة ، ومساجد ، وقصور مما يتوقع المرء ان يجده في مدينة لها مثل هذه السعة ، وان يتخلص ، مصادفة ، من التشابه الممل للابنية العامة • ذلك ان معظم المنازل مشيدة من احجار صغيرة غير صقيلة ، بنيت بالملاط ، ورشقت بالطين ، ولو ان البعض منها قد شيد بالآجر واللبن •

ولعل من اهم خصائص هذه المنازل انها شيدت على سفوح مائلة ، وعلى نسبه بالمعابد المصرية القديمة ، بينما تكون الزوايا امام الشوارع مدورة غالبا كما يشاهد ذلك في فتحات زوايا الشوارع الضيقة في لندن •

ونظرا لندرة الاخشاب ، وارتفاع أسعارها تبعا لذلك ، لم تستعمل الا قليلا في الابنية • ولذلك فان معظم هذه الابنية لها ـ بدلا من السقوف الخشبية ـ سقوف معقودة تقوم فوقها غرف ، وسطوح معقودة تسند شرفاتها المنبسطة • ومداخل هذه المنازل وهي المنافذ المتصلة بالشوارع في معظم الحالات ـ حيث تنفتح الشبابيك على الباحات الداخلية ـ متوجة بطاق من المرمر المجزع تم اقتطاعه من الجبال المجاورة للمدينة ، وهو مشيد في بعض الحالات على الطراز القوطي المدبب ، وفي حالات اخرى على الطراز النورماندي المستقيم • وما خلا بعض الحالات التي تبدو فيها الاقواس العربية التي استعملها العرب في صقلية ، فان الطرازين الآخرين

اكثر انتشارا . وتحلى قطع المرمر في بعض الحالات برسوم ازهار منحوتة وهي متقنة الصنع غالبا .

ومن بين الزخارف التي شاهدتها على اركان هذه المداخل وسجفها التي تتكرر كثيرا احد الاعمدة المحلاة بما يشبه رأس الكبش في القسم العلوي منه ، ونقوش اخرى من مثلثين منطبقين على بعضهما بالتخالف ، ونجمة في الوسط تشبه الشارات التي كان « الماسونيون » يحملونها في اوربا[1] .

وهناك بعض المنازل البسيطة التي يقطنها النساجون يكون نصفها تحت الارض ، والجزء الاسفل منها مغلق اثناء النهار حيث تقوم فيها المناسج ، بينما يرقدون على سطوحها اثناء الليل .

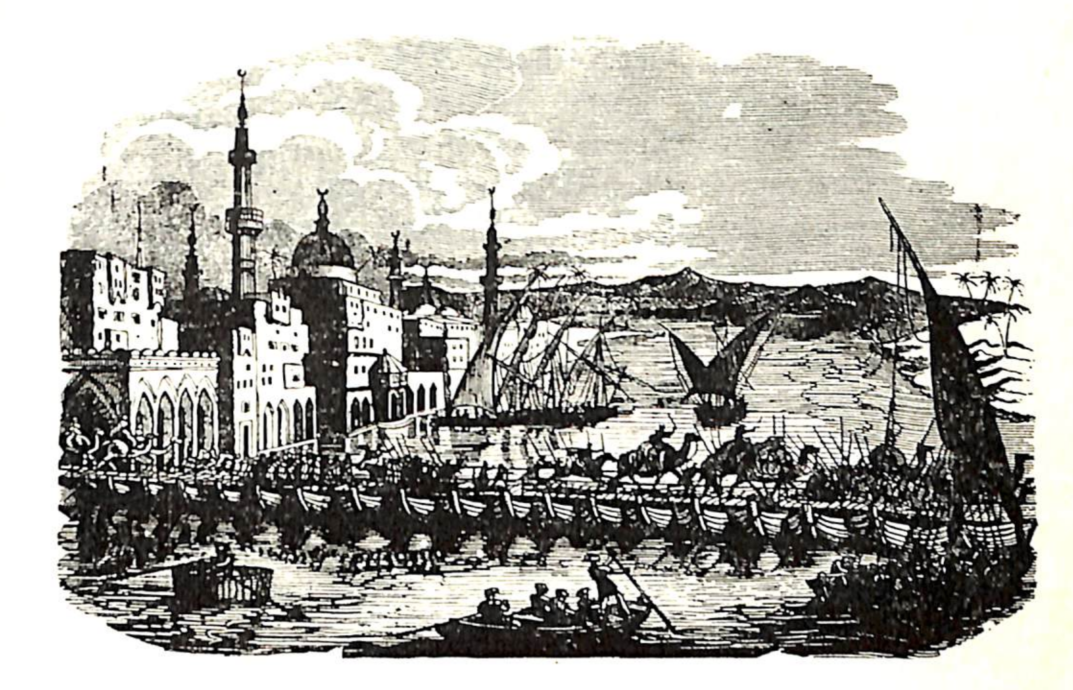
والكثير من هذه السطوح مسورة بجدران تحجب الذين ينامون فيها من تعرضهم للانظار . ولهذه المنازل منافذ مصنوعة من اسطوانات فخارية مجوفة ، وفيها مزاغل لتثبيت البنادق في الجدران استعدادا لاسباب الدفاع .

اما الاسواق فانها وان لم تكن مثل اسواق القاهرة في جمالها الا انها تتميز عنها بشيء واحد هو كثرتها ووفرة ما فيها من الحاجات والضرورات التي تأتيها من المناطق الجبلية . على ان هذه الاسواق مفتوحة ومغطاة بسقوف وهي قذرة بصفة عامة وغير متناسقة مما يشاهد امثاله في هذا الضرب من المدن الشرقية .

ولا توجد سوى سوق واحدة تباع فيها السلع الغالية وهذه افضل الاسواق في بنائها وتصميمها ، وهي تغص على الدوام بأصناف عديدة من السلع الثمينة مما تنتجه اوربا والهند .

والمقاهي في الموصل كثيرة وواسعة بوجه عام . والبعض منها قد يحتل احد الشوارع بطوله ويمتد زهاء مائة يرد ، حيث تصف المقاعد على جانبي الشارع الذي يظلله سقف من الحصر .

ويقدر عدد الحمامات بحوالي الثلاثين ومع انني قصدت بعض الحمامات



جسر الموصل سنة ١٨١٦ من رسم المؤلف

مقابل صفحة ٦٢

الكبيرة الا انني لم ار فيها ما يمكن مقارنته بحمامات القاهرة او دمشق ويبدو ان طريقة الاغتسال في حمامات هذه المدن متشابهة ، ولا اهمية للتفصيلات المتعلقة بصاحب الحمام او الخدم الذين يعملون فيه وهو امر شائع في المدن الكبرى بمصر وسوريا •

ويبلغ عدد المساجد في المدينة حوالي خمسين مسجدا منها ثلاثون صغيرة واعتيادية ، وعشرون كبيرة • ولكل من المساجد الشهيرة مئذنة موازية في حجمها لأي من المآذن الاخرى التي شاهدتها قبلا ، مشيدة بالآجر ومدورة الشكل من الاعلى وتقوم على قاعدة مربعة من الاسفل ، وهي ترتفع من القاعدة اشبه بعمود هائل تغطي سطحه الخارجي زخارف عربية رائعة من آجر ناتيء وبارز في البناء ذاته يزيد من تأثيره في نفوس الناظرين •

وقد كان المسجد الذى قامت فيه مثل هذه المئذنة واسعا وجميلا في الاصل لكنه تحول الان الى خراب •

ويستدل من تقادم المكان بان القسم الاسفل من البناء عريق في القدم وسابق لعهد الرسول محمد (ص) •

وهناك ما يؤكد ان هذه المئذنة ، وهي اجمل ما في المدينة ، قد شيدها نور الدين سلطان دمشق[٢] •

وعلى مقربة من هذا المسجد الكبير يقوم مسجد أصغر هرمي الشكل ، مثمن الزوايا ، مشيد من الآجر قيل عنه انه أقدم من الاول ، لكن ما يبدو من مظهره يجعل قدمه بعيد الاحتمال •

وهناك مآذن اخرى مشيدة بالآجر مطرزة بزخارف خلابة ذات الوان مختلفة لماعة لكنها مع ذلك لا تلفت الانظار اليها باحجامها او جمالها •

ويشاهد عدد من القباب مقورة او مضلعة اشبه بالقباب التي مر وصفها في ماردين • وبدلا من ان تكون ميازيبها ملتوية كالثعابين فاننا نجدها هنا مستوية وتتدلى في خطوط مستقيمة من القمة حتى حافة السقف •

ويبلغ عدد الكنائس حوالي اربع عشرة كنيسة ، خمس منها تخص طائفة واحدة من الكلدان ، واربع لطائفة اخرى ، وثلاث للسريان ، وواحدة لليعاقبة (كما يسمونهم هنا بهذا الاسم) وواحدة للروم الكاثوليك وذلك حسب النسق التـــالي :ـ

الكلدان الاولى : مسكنتا ، مار شمعون الصفا ، مار كوركيس ، (بثيون)[٣] ، ومريم العذراء •

الكلدان الثانية : مار اشعيا ، مار قرياقوس ، مار يوحنا ، مار جرجيس •

السريان : الطاهرة الفوقاني ، طاهرة الحجارين ، ومار توما •

اليعاقبة : مار حوديني •

الروم الكاثوليك : مريم العذراء*[٣-١] •

لقد تهيأت لي فرصة مشاهدة الرسوم الداخلية في كنيسة مريم العذراء الكاثوليكية هذه في الموصل • وكان المستر « ريج »[٤] المقيم البريطاني في بغداد قد صور هذه الرسوم اثناء زيارته للموصل وهي تعد من اقدم اماكن العبادة لدى المسيحيين والتي ما تزال قائمة حتى الان • ويقال انها شيدت على ذات الطراز الذى شيدت به كنيسة القديس جيمس المخربة في نصيبين • واطواق الممشى فيها من الطراز العربي الاعتيادي المدبب ، والانواع الصغيرة من هذه الاطواق مفرطحة بالشكل المألوف في الطراز السكسوني ، بينما تحيط بصحن

---

* يبدو ان عدد النساطرة كان في الموصل في عهد الرحالة « راوولف » كبيرا فهو يقول « كانت مدينة الموصل ، كما قيل عنها قبلا ، مأهولة فى اكثر اقسامها بالنساطرة الذين يزعمون انهم مسيحيون لكنهم في الواقع أكثر سوءا من أية امة اخرى • فهم لا يقومون بعمل ما سوى سلب عابرى السبيل ، والانقضاض على المسافرين والفتك بهم • ولهذا كانت الطرق التى تتجه بصفة رئيسة نحو نصيبين » (٥) [التى بلغناها بعد ان قطعنا فيافى رملية فى مدى خمسة أيام] خطرة جدا • فقد مكثنا اياما اخرى في انتظار من يرافقنا في مسيرتنا تلك كي نطمئن على انفسنا •
[رحلة راوولف ص ١٦٧]

الكنيسة افاريز من زخارف عربية وتركية متدلية وهي ما تعرف بالمقرنصات • واصغر هذه الزخارف وان كانت اعتيادية في مظهرها الا انها ليست متشابهة في تفاصيلها • والاقواس المفرطحة المقرنصة التي رأيناها في مسجد ابراهيم الخليل في «اورفه» تشاهد في هذه الكنيسة أيضا وفيها زخارف عربية بشكل ظاهر بينما نقشت الكتابات المحيطة بها بالخط السرياني ، ولهذا يمكن القول بان هذه الكنيسة من اقدم الابنية في هذا الجزء من البلاد ، وهو قول يلقي الظلال بدلا من النور على الاسئلة التي ما تزال تطرح عن اصل البناء القوطي وهل انه نشأ في الشرق ام في الغرب •

لم ار في الاختلافات العقائدية بين هذه الطوائف ما يرضيني ويبدو ان الاطفال يسيرون على خطى آبائهم ، وليس فيهم من يتعب نفسه في معرفة العقيدة التي يؤمن بها جاره لانهم يعتقدون ان الخلاف القائم في عقائدهم لا مجال للمصالحة فيه ، ولذلك فهم لا يحاولون التوفيق بين هذه العقائد او توحيدها •

ويظن اهل الموصل ان عددهم يتجاوز مائة الف نسمة لكنني بعد احصاء غير دقيق قمت به ، ومقارنة لارقام مختلفة اجريتها اعتقد بان عدد السكان اقل من نصف ذلك الرقم •

يؤلف المسلمون القسم الرئيس من السكان في المدينة وهم من نسب متساوية من العرب والاتراك والاكراد • وهناك حوالي ثلثمائة عائلة يهودية لهم بيعة يتعبدون فيها • اما الطوائف المسيحية فتتألف من اعداد نسبية • فالكلدان ، وهم لا يختلفون عن الكاثوليك الا قليلا ، يعتقد ان عددهم يبلغ حوالي الف عائلة ، والسريان حوالي خمسمائة عائلة ، واليعاقبة حوالي ثلثمائة عائلة •

ويحكم الموصل احد الباشوات يحمل رتبة طوغتين ولا تمتد حدود اقليمه اكثر من بضعة اميال خارج المدينة ، لكنه ، وقد تلقى امر تعيينه من السلطان في الاستانة ، فهو يعمل مستقلا عن باشوات حلب ، واورفه ، وبغداد •

والباشا الحالي ، واسمه حامد ، يتمتع بشعبية عالية وباحترام جميع الطبقات ، ويعد حتى في نظر الذين يحكمهم سيدا سموحا •

والقوة العسكرية الموكل اليها امر الدفاع عن المدينة وما جاورها لا تتجاوز الف رجل ، ومعظم هؤلاء من الخيالة • ويعمل نصف هذا العدد منهم في قصر الباشا او منزله الذى شيد واسع الارجاء ، وضم دواوينه ودوائره حتى بدا وكأنه احدى القرى الصغيرة •

والاستعراض الفخم الذى يقام هنا احيانا ، تشترك فيه جياد عربية جميلة مطهمة بالمخمل والذهب ، ويمتطي صهواتها فرسان من الاتراك يرتدون اردية فضفاضة ذات حواش ملونة ، وأردان ثمينة وشالات هندية ، وغيرها للتدليل على الابهة والثراء • وتبدو هذه المظاهر مفارقة بارزة تجاه الابنية التافهة بصفة عامة وازاء المظهر الخارجي التافه الكالح للقصر بصفة خاصة •

وتتألف تحصينات المدينة التى تمتد خارجا من سور مغلق ليست فيه مدافع ، اما من ناحية النهر فتقوم احدى القلاع بالدفاع عن المدينة • وهذه القلعة صغيرة مخربة تقع على جزيرة اصطناعية نشأت عن امتداد مياه دجلة من الضفاف التى تقع عليها القلعة الى الخندق العميق الذى يحيط بها • وهى تقع على مقربة من جسر القوارب الذى يعبر به النهر • والبناية مثلثة الزوايا وقد شيدت من الآجر وليس فيها سوى مساكن قليلة للجنود الذين يؤلفون الحامية فيها • وقد انتشرت على مقربة من القلعة بضعة مدافع من البرنز القيت هناك مهملة وغير صالحة للاستعمال •

وقد لاحظت على احد هذه المدافع شعارين اوربيين احدهما صورة صليب تحتل الماسورة كلها ، اما الآخر فكان مربعا رسم صليب على القسم الاعلى من يساره وعلى الجزء الواطىء الايمن منه ، ورسمت على مدفعين آخرين صورة ذراع ممتدة بيد مفتوحة ووشاح مطرز فوق الرسغ • اما التأريخ المدون على المدفع فهو السنة ١٥٢٦ ولم أعرف الوسيلة التي وصل بها الى هذا المكان •

لقد تقلصت تجارة الموصل التى اشتهرت فى وقت ما الى درجة واطئة جدا • ومع ذلك لا يزال فيها بعض التجار الذين ينتقلون منها الى حلب يحملون معهم عفص كردستان وبعض السلع الهندية التى تصل من البصرة ليتم تبادلها في سوريا مع السلع الاوربية • وكذلك تصل السلع الهندية أيضا الى «طوقات»[٦] والاجزاء العليا من آسية الصغرى حيث يجرى تبادلها مع النحاس الذى يرسل به من هناك الى بغداد •

والصناعة الوحيدة التى تمارس فى الموصل على نطاق ما هى صنع الملابس القطنية التى تصبغ باللون الازرق لاكساء الطبقات الفقيرة •

والذى لاحظته فى سكان الموصل ان تقاطيع وجوههم تميزهم عن غيرهم تماما فكأنهم من عنصر واحد تقريبا وقد اختلط الواحد منهم بالآخر وتمازج معه منذ زمن طويل • ذلك ان شكل الوجه مدور يختلف عن وجوه العرب او الاتراك ، وشعر الرأس اسود غالبا ، والعيون صغيرة حادة نفاذة بينما تكون هيئة البشرة مشابهة لبشرات سكان جنوبى اسبانيا •

ويلبس الصغار من الاولاد غالبا قرطا ذهبيا في احدى الاذنين ، بينما تلبس الفتيات حلية أشبه بالزر مرصعة بأحجار صغيرة من الفيروزج معلقة بثقب فى الانف •

ويرتدى الرجال اللباس التركى ما خلا العمائم والطرابيش العالية ، مثل أهالي سوريا ، بدلا من « القاووق » التركي[٧] ، والسراويل المصنوعة من نسيج صوفى جميل عوضا عن الثياب القطنية •

وتلبس النساء رداء واقيا ازرق اللون اشبه بما هو مألوف في مصر وسوريا ، ويستعملن حجابا من نسيج شعر الخيل الاسود يغطى الوجه كله وبذلك يظهرن بمظهر لا يثير الاهتمام غالبا •

وتشاهد في معظم ايدى مختلف الطبقات مراوح مصنوعة من الحصر تشبه الاعلام المربعة الصغيرة ولها مقابض وهي من النوع المعروف فى الشواطىء

العربية والحبشية من البحر الاحمر • اما اكثر الناس ثراء فانهم يستعملون المراوح المصنوعة من الريش توضع وسط سطحها مراة صغيرة ، وتعلق من ذراعها بشريط •

واللغة التى يتحدث بها اهل الموصل تختلف عن لغة اهل القاهرة وحتى اهل حلب • ففيها مزيج من الكلمات التركية والفارسية والهندية • وطرائق السكان وكثير من المظاهر الاخرى التى شاهدتها ، سبق لها ان ساعدتنى على تفهمي لهذا البلد •

لا يعرف عن تاريخ الموصل سوى مفردات قليلة ولكن الشيىء الذى لا جدال فيه هو ان فى الموصل آثارا ، وانها كانت فى وقت من الاوقات تتمتع بمجد أكثر مما تتمتع به فى الوقت الحاضر •

ويعتقد « غيبون » ان الموصل هي الضاحية الغربية من « نينوس »[٨] التي كانت تتبع نينوى • والبراعة والفراسة الدقيقتان اللتان اظهرهما ذلك المؤرخ بشأن علم الجغرافية القديم قد جعلت حكمه هذا قاطعا •

لكن المدينة لم تعرف باسمها الحالى ، الموصل ، الا فى عهد الخلفاء كما ذكر في موسوعة المخطوطات الشرقية[٩] التي وصفها « دربيلو »[١٠] •

وقد زار الحبر الشهير بنيامين التطيلى الذي بدأ رحلاته في الشرق سنة ١١٧٣ ميلادية هذه المدينة فى طريقه الى الهند وسماها « موتسل »[١١] ، ووضعها على بعد يومين من مدينة « جزيرة »[١٢] والتي تقع مثلها على الضفة الغربية من نهر دجلة • ويقول عنها انها كانت « عاشير الكبرى » ،* وهذا ولاشك هو الخبر المتبادل بين السكان هناك* •

---

* عاشير هو اسم الرسول الذى هاجر من أرض شنعار وبنى مدن نينوى، ورحبوت ، وكالح ، وريسين •

سفر الخليقة الفصل العاشر الإصحاح الثاني :

Genesis C.X V. 11

وكان فى المدينة نحو سبعة آلاف يهودي يخضعون لنفوذ رئيسين احدهما يسمى « زكي »[١٤] وهو امير من دم ، داود ، ملك اسرائيل ، والثاني يدعى يوسف الفلكى الذى كان مثل جده « دانيال » مستشارا للملك . وقد اصبح هذا الملك فيما بعد هو « زين الدين » شقيق « نور الدين » الملك الذى كان يحكم دمشق[١٥] .

وكانت الموصل منذ ذلك الوقت هى التى تحكم مملكة فارس ، وظلت تحتفظ بكل مجدها القديم . اما نينوى التى تحدث عنها بنيامين فانها تقع على الضفة المقابلة من النهر وهى خربة تماما .

وكانت الموصل من القوة الى درجة انها استطاعت الصمود امام الحصار الذى ضربه عليها صلاح الدين الشهير سنة **٥٧٩** هجرية[١٦] . وكان هذا الفارس نفسه من ابناء سكان جبال كردستان وهو ابن اخ لزعيم كردى شهير يدعى « اسدالدين شيركوه » او « اسد الجبل » . وقد اضطر الى الهرب من بلاده لانه قتل رجلا من عائلة شهيره كان قد انزل اذى بامرأة لا نصير لها*[١٨] .

وعانت هذه المدينة الويلات ثانية حين احتل التتر بغداد بزعامة جنكيزخان[٢٠] سنة **٦٥٦**هـ او **١٢٥٦** ميلادية [٢١] حيث قيل ان ما بين

* كان صلاح الدين الايوبي الشهير فى الحروب الصليبية ابن اخ لزعيم كردي يدعى أسد الدين شيركوه او اسد الجبل اضطر الى ان يهرب من بلاده لانه قتل رجلا من عائلة مشهورة بسبب ما الحقه من اذى بامرأة لا حامي لها ، وقد وجد عمه واخوته لهم ملجأ عند نور الدين محمود حاكم بعلبك وارسله نور الدين على رأس قوة لمساعدة والي مصر فى حربه ضد الكفرة فى الغرب .

وقد صحب الفتى صلاح الدين عمه فى هذه الحملة ثم ما لبث ان خلفه فى **منصب الوزير أو الوالي . وحين توفى الحاكم نفسه تولى صلاح الدين بالفعل حكم** مصر وسرعان ما أصبحت هي وسوريا خاضعتين لسلطانه . ومن ثم أصبح صلاح الدين من أكثر ابطال المسلمين نجاحا فى الحروب الصليبية الفرنجية الشهيرة .

[مالكولم : تأريخ فارس المجلد الثاني ص ٣٨٠ (١٩)

Malcolm : History of Persia Vol : 11 P 380.

سبعمائة الف وثمانمائة الف شخص كانوا قد قتلوا ، وان نهر دجلة غمرته امواج الدم .

وخربت المدينة كلها تقريبا مرة اخرى حين احتل تيمورلنك[٢٢] البلاد فى سنة **٧٩٦**هـ . ولذلك كان من المدهش تماما ان تظل المدينة تحتفظ باهميتها السالفة بعد كل تلك التخريبات المتلاحقة .

ولقد مر الرحالة البندقي الشهير ماركو بولو[٢٣] بالموصل فكتب عنها انها فى وقته تصنع النسيج الثمين من الحرير والذهب . وقد شاهد فى ذلك العهد فى الجبال التابعة لهذه المملكة رجالا يسمون «كرد »[٢٤] كان البعض منهم نسطوريين ، والبعض الآخر يعاقبة ، وغيرهم مسلمون ، وكلهم من كبار قطاع الطرق* .

ومما ذكره ذلك الرحالة غدا مفروضا ان اسم النسيج القطني « موسيلين » انما اخذ من اسم الموصل ، وهو يطلق على نسيج يصنع من خيوط حريرية وذهبية لان هذه المواد اما انها كانت تصنع في الموصل او تشترى منها +، .

وآخر ما ذكر من الحوادث التأريخية عن الموصل تعرضها سنة **١٧٤٣** للقصف طيلة اربعين يوما على يد الامبراطور الفارسي الشهير نادرشاه[٢٥] الذى

× المصدر السابق ص ٤٢٢ .

* **انظر مجموعة رحلات واسفار برجيرون ، بالفرنسية ، التي طبعها « جان نولم » في لاهاي سنة ١٧٣٥م ج ٤ ص ١٣ ، ١٤ (٢٦)**

Bergeron : Collection of Early Voyges and Travels. Printed By Jeane Neaulme at Hague in 1735.

+ كانت كل اوراق الذهب والحرير التى تدعى « موسيلينى » تصنع فى الموصل . **ماركوبولو الكتاب الاول الفصل السادس .**

وقد اقتبسه الدكتور فنسنت فى كتابه رحلة الى البحر الاحمر م ٢ ص ٢٧٣

Vincent : Periplus of Erythraen Sea Vol 11 P 273.

ما لبث إن اضطر الى فك الحصار عنهـا حيث كر راجعا الى فارس لاخمـاد ثورة نشبت هناك ٠

ومنذ تلك الفترة لم تصبها اية نازلة وان قيل عنها انها قد اخذت منذ ذلك الوقت تدهور باستمرار* ٠

* * *

* فيما يلي وصف اورده اثنان من الرحالين خلال الفترة التي مرت بين بنيامين التطيلي ونادر شاه ٠

تحدث السيد « بولاي لاغيز » (٢٧) ــ وهو سيد من « انجرز » (٢٨) طاف الجزء الاكبر من العالم في أوائل القرن السابع عشر ــ عن الموصل أثناء كلامه عن نينوى فقال عنها ، انها تقع على الدرجة السادسة والعشرين من خط الطول وعلى الضفة الغربية من دجلة ٠ وربما كانت تضاهي « بيزا » « ٢٩ » أو « انجرز » ولها جسر جميل من الزوارق يعبر به النهر الى ساحل ايران (٣٠) واكثرية سكان الموصل مسيحيون من طائفة اليعاقبة ٠ ولها باشا وعدد قليل من الجند العثمانيين ، وتشتهر هذه المدينة في كل انحاء آسيا بمنسوجاتها الزاهية ذات الالوان الحمراء ، والتي لم تفقد بهاءها حتى الآن ٠

كما تشتهر بالعفص الذي ينقل الى أوربا والاجزاء الاخرى وهو يأتي اليها من الجبال وتدبغ به الجلود المصنوعة في المشرق ٠ وفي ضواحي المدينة وعلى امتداد ضفاف دجلة يكثر عرق السوس الجيد الذي يسميه العرب « رغليس » (٣١) ٠ واوراق هذا النبات تمضغ بالفم ولها نفس طعم اللحم المتفسخ (٣٢) ٠ أما الجذر فهو من النوع الذي نجلبه الى أوربا لكنه ليس على الدوام مستقيما ولا سميكا كالذراع بالصفة التي رأيته فيها ٠ والطبيعي منه يستعمل فى الحمامات ، وهناك نوع آخر ٠

[رحلات ومشاهدات السيد بولاي لاغيز باريس ١٦٥٧

Voyages Et Obesrvations Du Sieur De La Boullaye Le Gouiz. Paris 1657.

أما الملاحظات التالية التي دونهـا الرحالة « اوتر » فانهـا تنطبق على فترة حدثت بعد ثمانين عاما أى سنة ١٧٣٦ ، وقبل ان يقصف نادرشاه المدينة بسبع سنوات حيث قال عنها ما نصه « الموصل عاصمة اقليم الجزيرة تقع على الضفة الغربية من دجلة وفي بلاد تمتد مسيرة ستة أيام من « ميافارقين » (٣٣) التي

عند المساء دخلت القافلة التي رافقتها من حلب مدينة الموصل ٠ وكان الاستقبال الذى لقيه الحاج عبدالرحمن هنا عظيما اذ خرج حشد من اصدقائه

تقع على الطريق المارة بحصن « كيفيا » (٣٤) ، وعلى مسيرة ثمانية أيام من ماردين٠ وقال عنها ابو الفداء ان فيها سورين قديمين وكبيرين بقدر الاسوار المحيطة بدمشق ٠ ومع ان بعض أجزاء المدينة قد تهدمت الا ان اسسها ما تزال قوية ٠ ويقوم اليوم أحد الاسوار ، وكله حفر وأنقاض ، على شاطىء النهر ٠

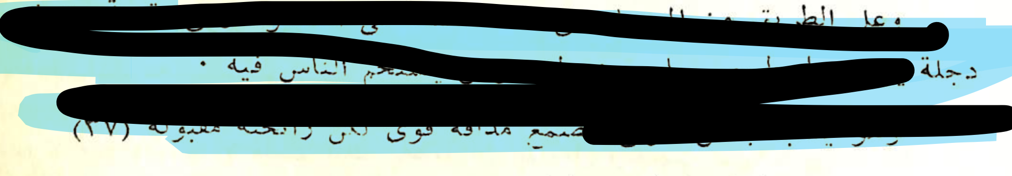
والجو جميل جدا فى فصل الربيع وهو من اقصر الفصول فى هذه البلاد٠ والحرارة جد قوية فى الصيف بينما يكون البرد قارسا فى الشتاء ٠ كما تنتشر الحميات فى فصل الخريف ٠ والمدينة غنية وسكانها شجعان وهم يتكلمون أربع لغات هى العربية والتركية والفارسية والكردية ٠ وهى ذات تجارة واسعة ٠ وتصنع فيها المنسوجات القطنية ذات الالوان البيضاء والسوداء كما تستورد السلع الهندية التى يؤتى بها الى البصرة ، وتنقل من الموصل الى حلب لتبادل بالجوخ والسلع الاوربية الاخرى ٠

[اوتر : الكتاب الاول ص ١٣٦ ـ ١٣٧]

Otter : Tome I P 136 — 137.

ويقابل الموصل على الشاطىء الآخر من النهر منبع للنفط (٣٥) ٠ والى الشرق بعيدا يوجد منبع آخر يدعى « راس النورة » (٣٦) قيل انهم يستخرجون منه طينا ازرق اللون اشبه بالزجاج ٠

أما الى الجنوب وباتجاه ضفة بغداد فانهم يستخرجون من الارض كميات من الصمغ يصنعون منه القطران الذى يطلون به القوارب والحمامات ٠



[اوتر : المجلد الاول ص ١٤

[Otter : Tome I P. 14.

وعلى مسيرة ساعتين من « كركوك » (٣٨) تقوم ربوة تسمى « بابا كركر » (٣٩) يقول أهل البلدة انه حين يحفر فيها على عمق قليل تظهر مادة تظل تشتعل فى الهواء الى درجة انها تجعل الماء يغلي ٠ لكن النار تنطفىء حين يرش التراب فوقها٠ وعلى مسافة منها الى ناحية الغرب تشاهد ثلاثة منابع للنفط تسمع لها زمزمة

واتباعه الى خارج اسوار المدينة لتحيته واصطحابه الى منزله وسط مظاهر الترحيب •

وحين التقينا بذلك الحشد بعد عودتنا من التجوال حول المدينة ، استغنيت عن حرس الباشا ، ورافقت الجماعة التى كانت تقصد منزل الحاج عبدالرحمن•

واذ بلغنا ذلك المنزل استقبلنا الخدم والعبيد فيه بكل ترحاب حيث كانوا في انتظارنا لكن ترحيبهم بالحاج وابن اخيه بلغ درجة التقديس • فما ان جلسا حتى اقبل الجمع عليهما يقبلون ملابسهما ويحيطون بهما بشدة وهم يدخلون ساحة الدار •

كان المنزل قد شيد حديثا ، ويبدو وكأنه يختلف عن بقية منازل المدينة ما خلا منزل الباشا • والواقع ان الزخارف في داخل المنزل ثمينة شبيهة بما سبق لى ان شاهدته لدى الخاصة فى الشرق ما عدا منازل اثرياء اليهود في دمشق •

وقد شرح الحاج بناء هذه الدار قبل ان يبدأ الحج وقد اكمله ، خلال السنتين اللتين غاب فيهما ، احد عبيده الذين يثق بهم او رئيس الخدم في بيته •

واذ غادرنا الحاج عبدالرحمن وابن اخيه لتتاح لهما فرصة استقبال نساء العائلة للترحيب بهما كان كل الغرباء قد تجمعوا فى المنزل ، وكان كل شيء فيه قد اعد لاستقبال رب البيت •

وهدير • وحين يلقى المرء فى هذه المنابع قطعة من قطن او نسيج يحترق ، يسمع صوتا مدويا ، ثم لا تلبث تلك القطعة ان تشتعل وتلتهب عاليا •

وحتى بعد ان يزول الدخان وتستهلك المادة التي القيت فيه يظل المنبع قائما وتظل النار متقدة فيه :

كذلك يوجد على مقربة من هذه المنابع منبع للماء يشبه الصمغ يسيل فى السهل • ولذلك فان المارين من هناك على حين غرة لابد ان يجذبهم ذلك المكان اليه

[اوتر : الكتاب الاول ص ١٥٣]

Otter : Tome I P. 153.

وما لبث الحاج وابن اخيه ان عادا الينا مسرعين وهما يرتدون ملابس بيضاء جديدة اعدت أثناء غيابهما ورتبت كي يرتديانها يوم عودتهما من الحج •

وانتهى المشهد بوليمة فخمة • وبينما جلس الحاج عبدالرحمن على بساط يحيط به كل الغرباء الذين سافروا معه في قافلته ، جلس ابن اخيه على بساط آخر ومعه ابناء المدينة الذين جاؤوا لتحيته هو وعمه بسلامة العودة •

وحتى في مثل هذا الوضع ووسط مظاهر الثراء والكرم لم يأنف الحاج الاشيب ان يساومني همسا على شراء جوادي حين علم انني سأضطر الى بيعه واسافر على خيل البريد الى بغداد بصحبة السعاة[٤٠] (اذ لا يستطيع حيوان آخر ان يسابقها) •

وبهذا التصرف ايد الحاج صحة المثل الذى يقال عن تأثير الرحلة الى مكة* وذلك لمحاولته اقناعي ببيع هذا الحصان الفاخر بنصف السعر الذى قد يباع به في السوق الاعتيادية • وكدت اذعن تقريبا لشروطه على اساس ان هذا الجواد الذي تعلقت به قد ينال معاملة حسنة ، وقد يكون أسعد حالا ورعاية مما لو ترك فى يد رجل غريب •

---

* هذا المثل يقول « ان ذهب جارك الى مكة مرة واحدة فعليك ان ترتاب فيه ، وان ذهب مرتين اجتنبه يحذر ، وان ذهب ثلاثا اغرب عنه ولا تقربن منزله » (٤١) •

شروح وتعليقات المعرب على الفصل الثالث

(١) الماسونيون (البنؤون الاحرار) Free Maisons جمعية سرية ظهرت في اوربا منذ عصور قديمة وقد اختلف المؤرخون كثيرا في بدء ظهورها • فالبعض يقول ان هذه الجمعية قد ابتكرها واقترح فكرة تأسيسها حيرام اليهودي وعرضها على ملك اورشليم هيرودس اكريبا سنة ٤٣ للميلاد وكان حيرام هذا واسمه الكامل حيرام ابيود يعمل مستشارا للملك هيرودوس وذلك لمحاربة المسيحية • وقد اقترح حيرام ان تكون هذه الجمعية تضم القوة اليهودية المهددة ولا يعلم أحد بمنشئها وأعمالها ومبادئها الا من كان عضوا فيها • وقيل ان الملك هيرودوس اقترح تسعة اسماء ليكونوا الاعضاء المؤسسين للجمعية •

وفي سنة ١٧١٧م ظهرت الماسونية الجديدة بثوبها الجديد وهو يمثل الادعاء بالعمل على نشر التآخي والمساواة ومحاربة الاديان والقوميات وكان من مؤسسيها في شكلها الجديد ديزاكوليه واندرسون وغيرهما • وقد تطورت الماسونية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بصفة خاصة فأصبحت أداة طيعة بيد الدول الاستعمارية الكبرى وراحت تدبر المؤامرات وتثير الفتن والحروب لكي تمهد بذلك لهذه الدول الاستعمارية الاستيلاء على بلاد الغير • وظهر هذا بارزا في القرن العشرين الحالي ايضا • فالفرنسيون ومن بعدهم الانكليز هم الذين ادخلوا الماسونية الى مصر وشجعوا عملاءهم من المصريين على انشاء المحافل الماسونية في القطر المصري وفعلوا ذلك ذاته في سوريا ولبنان والعراق • فقد أخذ القوم في بغداد والبصرة على اثر الاحتلال الانكليزي للعراق في اعقاب الحرب العالمية الاولى يتبارون في انشاء المحافل الماسونية تقربا من الانكليز واطاعة لاوامرهم وتنفيذا لقراراتهم التي كانت تهدف الى محاربة الاسلام والقومية العربية عن طريق بث الماسونية •

ولقد عثر في بغداد بعد ثورة تموز ١٩٥٨ مباشرة على اسماء شخصيات كبيرة أعضاء في الجمعية الماسونية في العراق ولكن يبدو ان الشيوعيين من الماسونيين استطاعوا أن يخفوا تلك الاسماء ويقبروا كل اسرار المسونية •

(٢) يقصد به نورالدين زنكي حاكم دمشق واسمه الكامل نورالدين ابو القاسم محمد بن زنكي بن آق سنقر مؤسس الدولة الزنكية في الشام والجزيرة وهي من متفرعات الدولة السلجوقية في العراق • وقد قامت الدولة الزنكية في الفترة ٥٢١ – ٦٤٨ هـ وكان نورالدين من ابطال المسلمين الذين حاربوا الصليبيين بلا هوادة بالاضافة الى شغفه بالعلوم والاصلاحات حيث انشأ العشرات من المدارس والاربطة والمساجد ورعايته للعلماء والادباء مشهورة ولا تزال آثاره الطيبة خالدة في العراق وسوريا ومنها الجامع النوري في الموصل والمدرسة النورية الكبرى في دمشق •

(٣) وتسمى هذه الكنيسة باسم فثيون ايضا وقد ذكرها المؤلف باسم مار بثيون •

(٣–١) اوضح الاستاذ الباحث المدقق كوركيس عواد بالنسبة لهذه الكنيسة انه لم تكن في الموصل طائفة نصرانية تنتمي الى الروم الكاثوليك وان ما اورده المؤلف بهذا الشأن انما يقصد به اتباع الكنيسة الرومانية اي الكاثوليك الذين يتبعون بابا روما وهم يعرفون باسم السريان الكاثوليك وليس الروم الكاثوليك •

(٤) المستر كلوديوس ريج (١٧٨٧ – ١٨٢٠) K. Rich المقيم البريطاني في بغداد وممثل شركة الهند الشرقية في العراق • عين لهذا المنصب سنة ١٨٠٨م واستطاع في فترة قصيرة ان يجتذب كل كبار الموظفين والوجوه في بغداد الى جانبه حيث اصبحت داره ملتقى لهؤلاء من مختلف الاديان والاجناس • وحين تولى داود باشا الكبير منصب الباشوية في بغداد لم يحتمل هذا النفوذ الواسع الذي كان يتمتع به المستر ريج وشركة لنج الانكليزية للنقل النهري فاخذ داود باشا يتصدى له ويضيق الخناق عليه فالغى سنة ١٨٢٠ م الامتيازات الواسعة التي كانت تتمتع بها المقيمية البريطانية

في بغداد والبصرة • ومنها خفض الرسوم المفروضة على سلع شركة الهند الشرقية • وحاول ريج ان يقاوم داود باشا لكنه لم يفلح فى ذلك فاعتزم مغادرة بغداد الى بومباى لكن داود باشا منعه من السفر وحاول اعتقاله فقاوم ريج الاعتقال بحرسه وخدمه • واذ وصلت الانباء الى حكومة الهند قررت نقله من بغداد • وقد توفى ريج بعد ذلك فى ايران مصابا بالكوليرا •
وكان ريج من الذين نقبوا فى اطلال بابل ووضع عنها كتابين كما طوف بالعراق ووضع مشاهداته عنه فى مجلدين كبيرين • ترجم المرحوم بهاء الدين نورى القسم الخاص بشمالي العراق من هذه الرحلة وطبعه بالعربية فى كتاب مستقل سنة ١٩٥١•

(٥) سماها الرحالة الدكتور راوولف باسم تسيبين Zibin

(٦) توكات Tocat من المدن الرئيسة فى تركيا وكانت تقع على طرق القوافل التجارية وتسمى طوقات وسماها ياقوت الحموى باسم طوغات فى كتاب معجم البلدان •

(٧) القاووق التركي Kaook لباس الرأس الذى كان يصنع من جلد الخراف ويكون اسطوانى الشكل ويحلى باشرطة عند الحافة السفلى وهو يختلف عن (الكلاو) فى استدارة شكله المنتظم •

(٨) نينوس Ninus قيل عنه انه هو ملك اشور الذى بنى مدينة نينوى التى اخذت اسمها منه وقيل ايضا انه هو آله آشور •

(٩) الخزانة الشرقية Bibliotheque Orientale وهي من الدراسات الهامة للمصادر التأريخية لبلدان الشرق التى تحتفظ بها المكتبة الوطنية فى باريس •

(١٠) دربيلو D'herbelot (١٦٢٥ ـ ١٦٩٥) عالم فرنسي ولد فى باريس ودرس فى جامعتها واختص باللغات الشرقية مكث مدة فى ايطاليا ثم عين

مترجما للغات الشرقية لدى ملك فرنسا • تولى تدريس السريانية فى الكوليج دى فرانس • أمضى معظم حياته في تأليف قاموس جامع للمؤلفات الشرقية وضعه على اساس كتاب حاجى خليفة (كشف الظنون) وسماه • دليل المطبوعات الشرقية Bibliotheque Orientale • وقد اكمل السيوفالان هذا الدليل سنة ١٦٩٧ وقد اعيد طبع هذا الدليل سنة ١٧٧٦ •

(١١) سماها موتسل Mutsul وهى الموصل ذاتها •

(١٢) الجزيرة Gezireh ويقصد بها جزيرة ابن عمر •

(١٣) عاشار الكبرى Great Assar يقصد بها الموصل وسميت بهذا الاسم لدى الرحالين الاوربيين نسبة الى آشور حيث اعتبروا مدينة نينوى هى اصل مملكة اشور •

(١٤) زاكى اوزاخى Zacchee

(١٥) هو الملك نورالدين زنكى الذى مرت الاشارة اليه فى الفقرة (٢) •

(١٦) حاصر صلاح الدين الايوبى مدينة الموصل هذه السنة بعد ان رفض حاكمها اطاعة الاوامر الصادرة اليه من الحكومة الزنكية فى دمشق حيث كانت الموصل داخلة فى نطاق هذه المملكة وكان صلاح الدين فى ذلك الوقت يعمل فى جيش الحكومة الزنكية مع عمه اسدالدين فى دمشق •

(١٧) أسد الدين شيركوه هو عم صلاح الدين الايوبي وهو ابن شادي الذي قدم من منطقة جبال الهكرية مع ولديه نجم الدين وأسد الدين فاستقر في بغداد وعمل عند شحنتها مجاهد الدين بهروز الذي اقطع له مدينة (تكريت) وقد وفد شادى مع ولديه الى تكريت واقاموا فيها وتوفى شادى فى تكريت ودفن بها ثم ما لبث ولداه نجم الدين واسدالدين ان غادراها على اثر حادثة وقعت لهما فيها •

(١٨) وقع بكنغهام ومالكوم وغيرهما من المؤرخين الاوربيين في خطأ كبير بالنسبة الى حادث هرب عائلة صلاح الدين • فالصحيح ان عائلة صلاح لم تهاجر

من بلادها ، الى منطقة الهكارية ، كما يخيل ذلك للقارىء مما كتبه بكنغهام ومالكولم وانما هاجرت العائلة من تكريت على اثر حادث وقع لها فيهـــا فقد ذكر ان رجلا تعرض لامرأة فى تكريت فشكته الى اسدالدين شيركوه الذى سارع الى اعدام ذلك الرجل فما كان من اهله واقاربه الا ان هاجوا وثاروا وتهددوا اسد الدين واخاه نجم الدين اللذين لم يجدوا أمامهما من مخرج سوى الهرب من تكريت حيث تسللا من المدينة ليلا خفية متجهين الى الموصل ومنها الى حلب وقيل ان صلاح الدين الايوبى ، وهو ابن نجم الدين ، قد ولد في تلك الليلة المشؤومة داخل تكريت أو في نقطة بعيجي المعروفة الان باسم ناحية بيجي .

(١٩) مالكولم Sir John Malcolm (١٧٦٩ – ١٨٣٣) ضابط وادارى ودبلوماسى ومؤرخ انكليـــزى ولد فى دمفريشاير وهـــو ابن مزارع ، التحق بالجيش الهندي وهو في سن الثانية عشرة . وصل الى مدراس في الهند سنة ١٧٨٣ تولى عدة مناصب في الهند تعلم فيها اللغة الفارسية وارسل الى طهران سنة ١٨٠٠ فتوصل الى عقد معاهدات تجارية وسياسية بيـــن بريطانيا وايران وعاد الى بومباى عن طريق بغداد ، وضع عدة مؤلفـــات منها تاريخ فارس في مجلدين ، ومذكرات عن الهند ، وصور من فارس .

(٢٠) جنكيزخان الفاتح المغولى الشهير الذى اجتاح ايران وتركيا والعراق وبلاد الشام فى الربع الاول من القرن الثالث عشر الميلادى . ولد سنة ١١٥٥م فى قرية على ضفة نهر آنون فى اقليم دولون يلدق الذى يدخل الان في أراضي الاتحاد السوفياتي . كن أبوه سوكاي أمير قبيلة من التتر بـــدأ فتوحاته بغزو الهند وتركستان وايران وروسيا تلقب بالامبراطور سنـــة ١٢٠٣ وتسمى باسم جنكيزخان عاد من فتوحاته فى بلاد العرب سنة ١٢٢٥ الى الصين ثم اصيب بمرض ومات سنة ١٢٢٧ قرب مدينة سان جو .

(٢١) اخطأ المؤلف فى تثبيت واقعة احتلال بغداد وتأريخ الواقعة على ايدى التتر فقبل كل شىء ان الذى احتل بغداد ليس هو جنكيزخان نفسه وانما قائده

هولاكو . وقد ذكر المؤلف ان بغداد سقطت ســـنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) والصحيح ان سقوط بغداد على يد هولاكو كان قد وقع سنة ٦٥٦هـ الموافق للسنة ١٢٥٨ ميلادية .

(٢٢) تيمورلنك مغامر مغولى وفاتح نشأ على مقربة من مدينة سمرقند عاصمة اتركستان فى اواخر القرن الرابع عشر بل فى سنة ٧٧٣هـ ١٣٧١م وقد بدا فتوحاته باستيلائه على بخرى وهراة وبلاد ما وراء النهر وتركستان . وفى سنة ٧٧٧هـ خرج بجموع غفيرة من المغول تحتل بلاد خراســـان ومنها انتقل الى أذربيجان وما لبثت قواته ان تدفقت على العراق تقتل وتحرق وتنهب وتسلب وما ان سمع سلطان العراق آنذاك وهو احمد بن اويس الجلائري حتى هرب بعائلته الى الشام وعندئذ دخل تيمورلنك بغداد فاتحا سنة ٧٩٥هـ ١٣٨٤م وظل يحكم العراق عشر سنوات حيث اخرجه منه السلطان أحمد بن اويس بعد ان استنجد ببرقوق سلطان مصر لكن تيمورلنك ما لبث ان اعد جيشا جديدا كبيرا سار به الى بغداد مرة اخرى ففتحها سنة ٨٠٢ هـ ١٤٠٠ م واعمل السيف في رقاب أهلها وقد دام حكمه فى بغداد هذه المرة خمس سنوات .

(٢٣) ماركو بولو رحالة وملاح ايطالى شهير من البندقية يعتبر اول الرحالـين الاوربيين الذين بدأوا رحلاتهم الى الشرق . ولد فى البندقية سنة ١٢٥٥ وكان ابوه ملاحا . وحين بلغ السادسة عشرة من عمره رافق اباه فـــى رحلة الى الصين وقد مكث هناك سنوات عديدة حتى اذا عاد الى وطنـــه البندقية اخذ يقص على ابناء قومه ما شاهده وسمعه من الحكايات والمشاهد الغريبة ومما رواه تتألف رحلته الشهيرة التي لم يدونها هو بنفسه . وقد اشترى اهله بعد عودتهم فى الصين سفينة لحسابهم اصبح ماركو قائدهـا وقد اسر فى معركة وقعت بين سفن البندقية وسفن جنوا فمكث ماركو في السجن اكثر من سنة فى جنوا وفى هذا السجن كان ماركو يقص مغامراته ومشاهداته على سجين يدعى « رستي شيللو » الذي كان يقوم بتدوين

ما يقصه ماركو حتى تألف من ذلك كتاب كبير ضم رحلة ماركو وقد كمل هذا الكتاب في السجن سنة ١٢٩٨ • واطلق سراح ماركو بعد ذلك بقليل فتزوج وانجب ثلاث بنات وعاش طويلا فى داره عيشة هناء وسعادة بما عاد به مع اهله من الصين من الغنائم النادرة •

(٢٤) دعاهم باسم كرديس Cardis او كرد Curd

(٢٥) نادرشاه من ملوك فارس تغلب على السلطان واحتل مكانه سنة ١١٤٨هـ ١٧٣٦م استولى على السند وتركستان وما وراء النهر وغزا العراق ثلاث مرات وقد بدأت الاضطرابات في مملكته حين بلغ الذروة في الحكم سنة ١٧٤٤ وبعد مرور ثلاث سنوات على ذلك دبر له اثنان من اولاد أخيه مؤامرة فقتلوه حين هاجماه وهو في خيمته سنة ١١٦٠هـ ١٧٤٧م •

(٢٦) بيرجيرون Bergeron مؤرخ فرنسى ورحالة ترجم ودون عددا من رحلات قام بها بعض الاوربيين من امثال فنسبان ليلان الذى زار مكة والمدينة فى منتصف القرن الثامن عشر وقد طبع برجيرون هذه المجموعة من الرحلات التي غدت تنسب اليه سنة ١٧٥٣ في لاهاي •

(٢٧) بولاي لاغيز Boullaye le Guiz مؤرخ ورحالة فرنسي ولد في مدينة انجرز الفرنسية وطاف بجزء كبير من العالم في أوائل القرن السابع عشر وقد زار العراق ودون مشاهداته عنه في كتابه الذي طبعه بباريس سنة ١٦٥٧ بعنوان [رحلات ومشاهدات لاغيز] •

(٢٨) انجرز Angers مدينة انجرز عاصمة مقاطعة مين ولوار التى تقع غربي فرنسا على بعد ١٩١ ميلا جنوبي غربي باريس يبلغ تعداد سكانها اكثر من مائة الف نسمة • وهي تقع فوق ارض مرتفعة على ضفتي نهر « المين » ولها ثلاثة جسور وكانت لها حصون قديمة قوية لكن هذه الحصون تم هدمها سنة ١٨٢٤ •

(٢٩) بيزا Pizza مدينة بيزا الشهيرة فى ايطاليا كانت عاصمة المقاطعة المعروفة باسمها وتقع على ضفتى نهر « ارنو » وكانت من المراكز التجارية الهامة في اوربا فى القرون الاولى من الميلاد وقامت في بيزا دولة بحرية قوية دخلت معارك بحرية عديدة مع العرب المسلمين فى نهاية القرن الحادى عشر وتشتهر بيزا ببرجها المائل وبجامعتها التى انشئت في ١٣٤٣م •

(٣٠) ظن الرحالة « لاغيز » ان جميع الاراضى التى تقع شرقي نهر دجلة تابعة الى المملكة الفارسية على اعتبار ان فارس تقع شرقي العراق •

(٣٠) رغلس Reglis مأخوذة من اصل الكلمة الفرنسية التى تطلق على السوس وقد كانت اللغة الفرنسية شائعة فى تركيا فى وقت من الاوقات قبل الحرب العالمية الاولى •

(٣٢) Carné De Mollles معناه بالفرنسية اللحم المتفسخ •

(٣٣) ميافارقن وميافارقين (بتشديد الياء) مدينة في شمالى العراق يعود بناؤها الى عهد الرومان وهي قاعدة مقاطعة صوب ، التي تقع شمالى العمادية • وتقع مدينة ميافارقين على جدول يصب في نهر البوطان أحد روافد دجلة • وتبعد بحوالى سبعين كيلومترا شمالى شرقى ديار بكر وتعرف الان باسم « سلوان » وقد افتتحها المسلمون بعد افتتاح الموصل وفيها قبر سيف الدولة الحمداني وهى الان تابعة لتركيا •

(٣٤) حصن كيفا بلدة شهيرة ذات قلعة عظيمة تقع على نهر دجلة بين ديار بكر وجزيرة ابن عمر وكانت تتألف من جانبين يصل بينهما فوق نهر دجلة جسر حجرى متين وتقع اليوم داخل الاراضى التركية •

(٣٥) لا يوجد اى تأكيد عن وجود آبار للنفط على الضفة الشرقية للموصل وربما وجدت بعض عيون الكبريت او القار ويظهر مما ذكره الرحالة اوتر عن منبع النفط هذا انه لم يشاهده بنفسه وانما استقى خبره من بعض الافراد ولعل المقصود بذلك هو آبار نفط كركوك •

(٣٦) رأس النورة لعله احد التلال الجبسية التى تكثر فى انحاء الموصل ويصنع منها الجبس الذى يسميه العامة عندنا باسم (النورة) اما ما قاله الرحالة عن موضوع الزاج فقد نقله عن السماع كما هو ظاهر •

(٣٧) يقصد بهذا عين الكبريت القائمة فى ناحية حمام العليل التى تقع على دجلة الايمن وعلى بعد اربعة وعشرين كيلومترا جنوبى الموصل •

(٣٨) سماها المؤلف كيركيوك Kierkiouk

(٣٩) سماه كيوركيور بابا Kiourkiour Baba وهو تصحيف للاسم المعروف حتى الان باسم بابا كركر ، •

(٤٠) ساعى البريد يعرف لدى الاتراك باسم « ططر ، Tatar ويشتهرون بسرعة الجري ومنه اخذ العامة عندنا قولهم جاؤا ططر بمعنى مسرعين •

(٤١) يبدو ان المؤلف بكنغهام قد اخذ هذا المثل عن بعض العابثين ولا يزال هذا المثل شائعا عندنا بصفات اخرى كلها متقاربة • والواقع ان ما صدر من تصرفات مسيئة من بعض الذين ادوا فريضة الحج ولاسيما بالنسبة الى المعاملات التجارية قد اضعف ثقة الجمهور بهم • ومع ان اولئك المسيئين قلة ولكن التهمة تسري على جميع الحجاج • والواقع ان اكثرية الذين يؤدون فريضة الحج تصلح اخلاقهم ويتنكبون عما كانوا يرتكبونه من معاص قبل ادائهم فريضة الحج •

الفصل الرابع

زيارة خرائب نينوى والسفر من الموصل الى نهر الزاب

السابع من تموز :

اعد كل شيء لسفري مع سعاة البريد الاتراك من الموصل الى بغداد • وتسلمت اشعارا من رئيس اولئك السعاة بان خيولنا قد اعدت للسفر فى الساعة التاسعة من هذا الصباح ، وانه لا يمكن السماح بأي تأخير بعد تلك الساعة • ولما كنت قد استيقظت قبل طلوع الشمس فقد قررت ان استخدم جوادى ودليلا اطلبه من مضيفي المسيحي ، وان أسعى الى زيارة خرائب نينوى التي تنتشر على امتداد الساحل الشرقي لدجلة •

وحين هبطنا من المدينة الى النهر عبرناه على جسر من القوارب يبلغ طوله زهاء مائة وخمسين خطوة حصان • كانت القوارب سيئة الصنع ، ولم تربط ببعضها البعض ربطا محكما • فقد كان الجسر كله يتحرك لادنى اضطراب يصيب الماء ، وكانت القوارب ذات رؤوس موثقة وتدار بسلاسل حديدية نهاية كل واحدة منها مدببة • وكان معدل سرعة التيار وسط النهر لايزيد فى الوقت الحاضر عن ميلين فى الساعة الواحدة ، ولكن الجميع يقولون ان هذا هو ابطأ

معدل يجرى فيه ، وانه فى بعض الاحيان يبلغ ثلاثة امثال سرعته الحالية • ويبلغ عمق النهر الآن أكثر من ثلاث أو أربع قامات ، ولونه أصفر موحل ولو انه سرعان ما يصفو حين يخلد الى الركود ويكون فى كل الفصول جميلا حلو المذاق •

اتجهنا من هناك نحو الشمال الشرقي وعبرنا جسرا حجريا من صنع المسلمين شيد فوق جدول صغير تصب مياهه فى دجلة ، وبعد ساعة بلغنا التلال الرئيسة التى يظن انها تشير الى موقع نينوى القديمة • هناك اربعة تلال تبدو فى شكل مربع ، وهى كما ظهرت ليست من الآجر او الحجر ولا من مواد البناء الاخرى ، وقد علاها العشب فى كثير من الامكنة فغدت تشبه التلال المتخلفة عن الخنادق والتحصينات التى تميز المعسكرات الرومانية القديمة • ويمتد اطول هذه التلال نحو الشمال والجنوب ويتألف من عدة حواف ذات ارتفاعات غير متساوية وتبدو كلها وكأنها تمتد زهاء اربعة او خمسة اميال طولا •

وهناك ثلاثة تلال اخرى تختلف عن السابقة ، وكلها قريبة من النهر وتقع باتجاه الشرق والغرب •

واول هذه التلال ، وهو يبدأ من ناحية الجنوب ، يدعى « نبي يونس » فيه قبر يظن انه يضم رفات النبي يونس[1] وقد تشكلت قرية حواليه •

اما التل الثاني ، ويقع في الناحية الشمالية فيدعى « تل حرموش »[2] وليست له اية ميزة خاصة •

اما التل الثالث الذى ارتقيناه قبل غيره ويتميز بارتفاعه وانتظامه فيدعى « نينوى »* •

---

* قد يكون هذا التل على وجه التأكيد هو التل الذى تكلم عنه ديودورس (٣) فى الفقرات التالية ، اذ لا يوجد تل سواه ينطبق عليه الوصف الذى اورده ديودورس • فهو يقول « دفنت سميراميس (٤) زوجها • نينوس ، فى القصر الملكي بنينوى ثم اقامت فوقه تلا من التراب مساحته كبيرة وارتفاعه

ولكي احدد موقع هذا التل بدقة اخذت عدة قياسات من وسطه لمعرفة المقاطع الرئيسة الظاهرة منه وذلك باستعمال الحك*** •

والى الشمال من هذه التلال تلوح مظاهر تلال وخرائب تمتد عدة اميال الى الجنوب وكلا النوعين من هذه التلال اقل وضوحا من التلال القائمة فى الوسط •

وتمتد بين هذه التلال ارض سهلة مستوية تتناثر قطع الفخار فى كل جنباتها ، كما تشاهد انقاض الابنية المتهدمة حواليها* •

تسعة فراسخ اغريقية ، وعرضه عشرة فراسخ (٥) • ولما كانت المدينة فى سهل قريب من النهر فان التل يبدو من بعيد وكأنه قلعة قائمة •

وقيل ان القلعة لا تزال قائمة حتى اليوم وان كان الماذيون (٦) قد خربوا نينوى حين قضوا على الامبراطورية الاشورية » •

[ديودورس الصقلي : الكتاب الثاني ف ١ ص ٥٩] •

Diodorus Siculus B. 11. C 1 P59.

*** **من أقصى جنوبي الموصل ، جنوبي الجنوب الغربى ٣ أميال ومن أقصى** قبر النبي يونس الى الجنوب ميل واحد •

شمالى الموصل من الغرب والجنوب الغربى ميلان

وسط المدينة منارة جامع بدر الدين الكبير : من الجنوب الغربى ميلان

قرية القاضية (٨) الشمال الغربى ¾ الغرب ميلان •

دير الخوزى (٩) قرية على اطلال نينوى من الشمال الغربى الى الغرب ١½ ميل •

جبل كارا (١٠) اعلى جبال كردستان مغطى بالجليد من الشمال الى الشرق ٥٠ ميلا •

منحدر جبل مقلوب (١١) فى كردستان من الشمال والشمال الشرقى الى الشرق عشرة اميال •

وسط تل حرموش من الجنوب ¾ الغرب نصف ميل •

* ما دامت المدينة كانت قديمة جدا فلابد انها كانت واسعة جدا فقد وصفت فى انجيل يوحنا (١٢) بانها تلك المدينة العظمى [١ ، ٢ و١١١ ، ٢] وانها مدينة كبيرة بشكل مفرط [١١١ ، ٣] • وجاء فى الاصل انها مدينة الله العظمى [Deo Magna Cnitas ومثل هذا قال القديس سطيفان (١٣) عن (موسى) (١٤) فى اعمال الحواريين Acts Of Apostles

واذا كان ما اكده « سترابو »[7] وغيره من المؤلفين الاوائل صحيحا بان نينوى كانت اكبر مساحة من بابل ، فمن الممكن حينئذ ان يقال بان نينوى كانت اكبر مدينة ظهرت فى العالم ، وان يصدق المرء ما ذكره عنها من ان مساحتها تبلغ مسيرة ثلاثة ايام*** وهذا لا يقصد به طول محيطها كما قيل عنه + + ، وانما طول المدينة •

فالنبي يونس لم يعلن ما انذر الله به المدينة الا بعد ان دخلها ووجد ان طولها يبلغ مسيرة يوم واحد • وقد تكون المدينة قد اتسعت فيما بعد فاصبح محيطها يبلغ مسيرة ثلاثة ايام •

لكننا حصلنا على مساحتها الحقيقية باستعمال الذرعة التي استطعنا بها أن تقرر ما اذا كانت مساحتها النسبية اكبر من مساحة بابل ام لا •

فهيرودوتس يقدر مساحة بابل بانها مربعة الشكل تبلغ اربعمائة وثمانين فرسخا اغريقيا وان محيطها يبلغ ستين ميلا على اساس ان طول كل جانب من جوانبها الاربعة خمسة عشر ميلا ، وان مساحة الملعب الرياضى فيها كانت تتراوح بين ثمانية اميال وميل واحد* •

اما ديودورس الصقلي فانه يقدر مساحة نينوى بمائة وخمسين فرسخا

[الاصحاح السابع ١٠] انها حسنة لله أو حسنته بشكل مفرط ، كما يطلق عليها مترجمونا ذلك بحق • وكذلك يرد القول بان جبال الله [الزبور الاصحاح ٢٦، ١٠ (١٥)] هى جبال عالية جدا ، وان ارز الله [الزبور ٣٠١ ، ١٠] هى من اعلى اشجار الارز •

[نيوتن : عن النبؤات ص ١٤٤ ، ١٤٥ (١٦)] •

Newton, on the Prophencies PP. 144 - 145] .

*** يونان الاصحاح الثالث ، الآية ٣

Jonah C III - V. 3

+ + كنيير : مذكرة جغرافية عن ايران ص ٢٥٩ (١٧)

Kinnier's Geographical Memoir on Persia P 259.

* هيرودوتس :

طولا ، وتسعين فرسخا عرضا او نحو تسعة عشر ميلا من الجهة التى تمتد بامتداد النهر ، واحد عشر ميلا وربع عرضا ابتداء من ضفة النهر حتى سموح الجبال وقد اعطى للملعب ذات المساحة* •

صحيح ان مدينة نينوى كانت اعظم طولا الا ان مساحتها الحقيقية ضمن الحدود التى حددت لها تجعلها اقل من مساحة بابل بعض الشيىء •

والمعترف به هو ان بابل اقدم عهدا من نينوى ذلك لان العاصمة الثانية العظمى لآشور لم تزدهر الا بعد ان كانت العاصمة الاولى ، التى ترقى الى الفترة التى اعقبت الطوفان ، قد اصابها الاندثار* •

وتقرر طبيعة الارض هنا بدقة تامة صفة المظاهر المحلية لها ، وتؤكد صحة اقوال المؤرخين الذين وصفوها بالشكل المستطيل •

---

* مان ان بز نينوس كل اسلافه بالمجد ونجح باسلحته حتى انطلق الى بناء مدينة كانت من العظمة والسعة لا تعتبر اعظم مدينة فى العالم حسب بل ان كل من سيأتى بعده لن يستطيع ان يتخطاها بسهولة • وطبقا لذلك هيأ عددا هائلا من قواته ، **واعد النقود والاموال والمواد الضرورية الاخرى لهذا الغرض** • فشيد على مقربة من نهر الفرات (دجلة) مدينة اشتهرت باسوارها وتحصيناتها وشكلها المستطيل • فهي تمتد على كلا الجانبين مسافة مائة وخمسين فرسخا (**حوالى تسعة عشر ميلا**) • **وكان طول كل من الزاويتين الصغريين** تسعين فرسخا وبذلك كان محيط المدينة اربعمائة وثمانين فرسخا (حوالى تسعين ميلا) ولقد كان المعماري مخلصا فى عمله لانه لم يأت بعده من استطاع ان يشيد مدينة **مثلها سواء كان ذلك في سعة محيطها أم في متانة أسوارها** • فقد كان ارتفاع السور الواحد مائة قدم وكان من السعة بدرجة تكفى لمرور ثلاث عربات دفعة واحدة • وتقوم على الاسوار الف وخمسمائة برج ارتفاع كل واحد منها مائتا قدم • وقد قرر نينوس ان يسكن المدينة الاغنياء من الاشوريين وان يسمح لابناء أية أمة اخرى بالسكن فيها مهما كان عددهم • وكذلك سمح للمواطنين باراض واسعة ملاصقة لدورهم واطلق اسمه (نينوس) على المدينة ذاتها •

(ديودورس الصقلى : الكتاب الثانى ف ١ ص ٥٥)

Diodorus Siculus : B. 11 C. 1. P. 55.

* سفر التكوين : الاصحاح العاشر آية ٢ •

فبالنظر الى سعة السهل الذى تقوم فيه مدينة بابل كان لابد لها ان تمتد ذلك الامتداد الذى ذكر عنها ، وان تقف حدودها الغربية عند المستنقعات والبحيرات التى كانت قائمة هناك •

وكان لابد لمدينة نينوى هى الاخرى ان تمتد على ضفة النهر الى ابعد مسافة لكن عرضها كان محددا بما يتراوح بين عشرة واثنى عشر ميلا وذلك هو عرض السهل الممتد على الضفة الشرقية من نهر دجلة ، اى من النهر حتى سلسلة جبل مقلوب التى تؤلف الحدود الشرقية للمدينة •

واذ ارتقينا أعلى قمة في تل نينوى والقينا منه نظرة على ما حوالينا شاهدت تلالا من خرائب مماثلة لهذه الخرائب القريبة منه وأقل منه بروزاً •

ففى اقصى ما تستطيع العين رؤيته من ناحية الشرق ، وفي السهل الممتد الى الشرق منا ، او بين النهر والجبال ، تقوم مجموعات من خرائب كبيرة كالحة اللون اشبه بتلال انقاض متناثرة على مسافات فوق الاراضى المزروعة •

ومهما كانت أبعاد نينوى صحيحة فقد كانت مدينة واسعة بلا جدال ، وكانت فى عهد مجدها السامى كأي من المدن الكبرى القديمة الاخرى ، تغرق فـي الرجس والمنكر •

فتأريخ النبي يونس الملىء بالكوارث ، ومكوثه وحيداً طيلة ثلاثة أيام وثلاث ليال وهو في طريقه الى المدينة ليحول دون تدميرها ، كل هذه من الامور المعروفة الشائعة[١٨] •

على ان هناك عبارة تستحق الذكر لانها تنقل بصفة خاصة شهرة نينوى في الفترة التي يجري الحديث عنها • هذه العبارة هي التي يقولها الله معنفا بها يونس لانه غضب من الحرارة ، ولانه دمر الارض التى التجأ اليها هربا من حرارة الشمس ، وبسبب شفقته على اليقطين ، حين يقول الله مخاطبا يونس : « انت لقد اشفقت على اليقطين الذى لم تتبته انت ، ولم تدعه ينمو ، وهو الذى ظهر في ليلة واختفى في ليلة ؟ افلا يحق لى ان ازيل نينوى من الوجود

تلك المدينة التى يسكنها اكثر من مائة وعشرين الف شخص لا يعرف الواحد منهم ان يميز يده اليمنى عن اليسرى ، والتى تضم الكثير من الماشية ؟ »*

واذا ما اخذنا بنظر الاعتبار ان هذا العدد ، مائة وعشرون الف ، ينطوى على الصغار والاطفال الذين قد يعدون مثل المواشى التى احتسبوا معها وهم من الابرياء ولا يستحقون ان يعتبروا من الشركاء فى الجريمة التى استوجبت نقمة الله ، استطعنا ان نحدد مجموع عدد السكان وهو عدد قد يصل الى حوالى نصف مليون نسمة حسب النسب الاعتيادية لعدة طبقات •

وكانت انذارات النبي ناحوم[١٩] لهذه المدينة بليغة جدا تشوبها شدة الحنق الذى تنطق به الالسن الاخرى التى تهاجم الامبراطوريات والممالك العظمى فى العالم القديم*** •

على ان ما أعقب ذلك الانذار ، مما تصوره الجغرافية القديمة ، شيء عجيب جدا لا يمكن حذفه • فهو يتضمن السؤال الذى كان بطرح على نينوى حين يقال لها « أأنت أفضل من مدينة (نو) »[٢٠] الآهلة بالسكان ؟ لقد كانت تلك المدينة تقع بين الانهار ، وكانت تحيط بها المياه ، فكان سدها بحرا

* يونان الاصحاح الثالث والاصحاح الرابع Jonah C. III. & IV

*** ويل للمدينة الدموية ! انها ملء بالاكاذيب والرشوة • فاعمال السلب لم تتوقف فيها ولم تخفت أصوات السياط وجلبة العجلات المجلجلة ، والخيول الواثبة ، والمركبات القافزة • كان الفارس يرفع حسامه اللامع ورمحه المتلألىء • وكان هناك عدد هائل من الناس الذين ذبحوا ، واكثر من هذا عدد الجيف والرمم • ولم تكن لتلك الاشلاء من اشلاء فقد تراكمت فوق بعضها البعض • ونظرا لما ارتكبته تلك العاهرة الجميلة من فجور فقد اخذت ربة السحر تشتت الامم لما أتته من فجور ، وتفرق العوائل بفعل السحر • وهتف رب القرابين « انظروا انا ضدكم » • اننى سارفع اطراف ثيابكم الى وجوهكم ، اساظهر للامم عريها ، وللممالك خجلها ، وسالقي بالدنس المقيت عليكم واجعلكم اخساء ، وادعكم اضحوكة ، وسيتعرض للفناء كل ما يبدو عليكم • سيهرب من ايديكم • وستقولون « ضاعت نينوى فمن ذا الذى ينوح عليها ، ومتى سابحث عن المعزين لكم ؟ » [ناحوم الاصحاح الثالث ، ١ – ٧]

وسورها بحرا ؟ كانت قوتها تمثل الحبشة ومصر فلا انتهاء لها ولكبرها .

وكانت (بت) و (لوبيم)[٢١] من انصارها . ومع ذلك تم احتلالها ووقعت في الاسر ، وقطع أولادها الصغار اربا في رؤوس الشوارع ، والقيت القرعة على رجالها الشرفاء واوثق كل رجالها العظام بالاغلال* .

وأذكر ان الرحالة الحبشي « بروس »[٢٢] كان يقول ان مدينة (نو) هذه لابد وان تكون هي مدينة « طيبة »[٢٣] المصرية . وحين زرت طيبة تلك مدينة الآلهة ذات المائة باب خطر لي ان تسميتها في التوراة باسم « نو » لم تكن صحيحة بسبب ما قيل عنها بان البحر يؤلف حاجزا لها . وحين كنت في خرائب نينوى المهدمة ، وقرأت انذارات الأنبياء بالانتقام منها ، وقارنت حالتها بما كانت عليه (طيبة) عاصمة مصر ، تأثرت تأثيرا قويا وتكون لدي انطباع بعدم وجود مدينة قديمة غير هذه ، تنطبق عليها التلميحات التي أوردهـا النبي في حديثه عن مدينة « نو » .

فطبقا لعدد القنوات ، وانحناءات نهر النيل عند مروره بمدينة طيبة يمكن القول بقدر كبير من الصواب ان المدينة « تقع بين الانهار » وان « المياه تحيـط بها » . ولما لا يستطاع فصل مصر كلها عن البحر يمكن القول بان البحر يؤلف سداً للمدينة ** . اما أسوارها الشهيرة فقد انشئت للدفاع عنها وهي تؤلف الحاجز

* ناحوم الاصحاح الثالث ، الآية ٨ ـ ١٠
Nahum : C III V. 8 — 10.

** لم أجد وصفا ، بين القدامى والمحدثين ، له مثل هذا الايجاز والمتعة كالوصف الذي كتبه « يوسفس » عن هذه البلاد ولذلك يمكن الاعتمـاد على وصفه لتأكيد ما سبق التأكيد عنه أعلاه . يقول يوسفس « كان يصعب اجتياح مصر من ناحية البر . ولم تكن لها مرافيء حسنة على البحر . وفي جهتها الغربية تمتد صحراء ليبيا القاحلة بينما تفصلها « سيين » (٢٨) من الجنوب عن الحبشة كما ان شلالات النيل لا يمكن الابحار فيها . اما في الشرق فيمتد البحر الاحمر حتى « كوبتوس » (٢٩) . ويحصنها من الشمال حزام يربط سوريا بما يسمى بالبحر المصرى الذى لا توجد مراسي للسفن فيه . تلك هى مصر المحصنـة من كل جانب » [يوسيفس : حروب اليهود ك ٤ ف ١٠ ق ٥
Jos. Wars Of Jews B. IV C. 10 Sect 5.

الشرقي لارض تمتد من « بيلوسيوم »[٢٤] الى شلالات (فيليه)[٢٥] التي مزالت آثارها ظاهرة فى مصر مما امكن ان يقال عنها بحق انها جزء من البحر .

والواقع ان الحبشة ومصر كانتا تؤلفان قوة مدينة « نو » وتلك القوة ، طبقا لكل الشواهد ، لا نهـاية لها . ومع ذلك فان « هكتومبيلون » مدينــة الشعراء[٢٦] *** وديوسبوليس مدينة المؤرخين[٢٧] + + وهما اسبق شهرة في القدم ، واعظم صيتا فى المجد كانتا قد سقطتا ووقعتا فى الاسر ، فدنست معابدهما ، ودمرت هياكلهما ، وذبح اطفالهما العزل ، وقيد الاجلاء من قادتهما وأخذوا اسرى بايدي الفاتحين القادمين من الشرق .

لقد قيل ان نينوى كانت محاطة باسوار ترتفع مائة قدم* وان عرضهـــا

*** هومير Homer + + سترابو وديودورس Strabo And Diodorus

* الى الشمال من الزاب الكبير (٣٠) وعلى مقربة من نهر دجلة وجد العشرة آلاف عند تراجعهم مدينة لم تكن اسوارها اقل ارتفاعا من اسوار نينوى. ويقول زينفون في كتـابه [الصعود = اناباسيس ج٣ ص ٢١٢] عن هؤلاء المتراجعين « ما ان ساروا النهار كله من دون كلل حتى وصلوا نهر دجلة حيث تقوم مدينة كبيرة غير مأهولة تدعى « لاريسا » كان الماذيون يسكنونها قبـلا وكان عرض اسوارها خمسة وعشرين قدما ، وارتفاعهـا مائة قدم ، ومحيطها ثمانية اميال مشيدة كلهـا بالاجر ما عـدا الاسس التى شـيدت بالحجارة الى ارتفاع عشرين قدما .

وهذه المدينة التي سماها زينفون « لاريسا » ذكرها « بوكارت » (٣١) بانها هى مدينة « ريسين » ذات الكتابات القـديمة التى ذكرت فى سـفر التكوين [الاصحاح العاشر الآية الثانية] . وهو يزعم ان الاغريق عندما سألوا أهل البلاد عن خرائب تلك المدينة ردوا عليهم بانها مدينة « لارسن » أي « ريسين » .

ويقول « سيلمان » (٣٢) ان من السهل علينا ان نتصـور كيف خففت كلمة ريسين هذه حين وضعت لها نهاية اغريقية فأصبحت تلفظ « لاريسا » .

وعلى مسافة قصيرة من « ريسين » اجتـاز الجيش قلعة واسـعة جدا غير مأهولة بالسكان تقع على مقربة من مدينة « مسـبيلا » (٣٣) التى كان الماذيون يسكنونها قبلا أيضا .

« كانت قاعدة السور مشيدة من الحجر الصقيل المطعم بالصدف . وكان عرضه خمسين قدما وارتفاعه اكثر من هذا الرقم عدة مرات . ويقوم فوق هذا

واسع يكفي لمرور ثلاث مركبات فوقها دفعة واحدة ، ويجري الدفاع عنها بألف وخمسمائة برج تمتد بامتداد هذه الاسوار يبلغ ارتفاع كل واحد منها مائتي قدم .

وإذا كانت اسوار بابل ، وهي احدث في البناء ، لم يبق منها اى اثر قائم فان اسوار نينوى قد زالت كلها تماما . ولقد تطلعنا من المرتفع الذى صعدنا فوقه الى مسافات شاسعة مما حولنا فلم نر أي رسم بارز لاي أثر كبير عدا تلال واكوام صغيرة من الانقاض كانت تتناثر بنطاق واسع فوق ارض السهل وهي تكفي لتبرهن على ان الموقع الاصلي للمدينة كان يحتل مساحة شاسعة من الارض على الرغم من ان بعض الذين زاروا هذا المكان خيل اليهم ان آثار المدينة منحصرة فى التلال القليلة القائمة فى منطقة الوسط حسب .

ويؤكد مكدونالد كنيير ان الخرائب القائمة فى هذا المكان هي خرائب « نينوس » التى خلفت نينوى وليست نينوى نفسها .. وواضح ان هذا المؤلف لم يتحدث الا عن التلال القائمة في الوسط والتي قال ان ما شاهده من بقاياها

السور آخر من الآجر عرضه خمسون قدما ايضا وارتفاعه مائة قدم ، ومحيطه اثنا عشر ميلا . كانت الكلمة يقصد بها « مدينة » فى الاصل ولذلك عجبت اذ وجدت المستر « سبلمان » يتعقب الترجمات اللاتينية فيترجم الكلمة الى «قلعة» وهي احسن تفسيرا من كلمة (مدينة محصنة) . والعبارة التى ترجمها بانها (حجر مليء بالصدف) التى وصفت بها هذه القلعة جاءت مطابقة لما هو شائع بين المعلقين على مثل هذه العبارات .

فلقد تصور « ليونكلافيوس » (٣٤) ان المؤلف كان يعنى بتلك العبارة « احجارا نحتت عليها رسوم من الصدف » اما « هتشنسون » (٣٥) فيجد نفسه مضطرا الى اقرار هذا الرأى اذ يعتقد بان الصدف كان من صنع الطبيعة وقد كان **مصيبا في هذا دون شك .**

والشيء المؤكد هو ان ذلك الحجر كان من نفس النوع الذى استخدم فى **اسوار « اورفه » [أنظر الصفحة ٢١٤ من هذا المجلد] . وقد شوهد هرم فريد البناء على مقربة من « ريسين » . [وعلى مقربة من المدينة ينهض هرم مشيد** بالحجر مساحته مائة قدم مربع وارتفاعه مائتا قدم كان يقف عليه عدد كبير من البربر الذين هربوا من القرى المجاورة للنجاة بانفسهم] .

لا يتجاوز اربعة اميال ، وانه لم ير احجارا ولا انقاضا من اى نوع كان وان كانت هذه التلال قد تكونت فى الاصل من تلك الانقاض* .

واذا كان معبد « اراسكه »[٣٦] الذى ذبح فيه « سنحريب »[٣٧] بعد عودته من حربه في مصر حيث قرضت الفئران دروع جنوده في ليلة واحدة*** ، فى بيلوسيوم[٣٧-١] وهلك جيشه البالغ مائة وخمسة وثمانين الف رجل بكل رؤسائه وقواده امام اسوار « اورشليم »[٣٨] فى ليلة اخرى + + ، اذا كان هذا المعبد معادلا في سعته لمعبد « بريابوس »[٣٩] فى طيبة ، او معبد « بيلوس » في بابل[٤٠] فان هذه التلال التى تؤلف هنا مربعا مستطيلا على مقربة من وسط المدينة يمكن ان تشير الى موقع ذلك المعبد . لكنني لا اتذكر اية تفصيلات خاصة تتعلق بمساحة ذلك البناء او شكله مما قد يساعد على توضيح هذه المسألة .

ولقد عثر بين انقاض نينوى على الكثير من الجواهر والاختام والنقوش « الهيروغليفية »[٤١] على الحجر . وقد ذكرت أوصاف البعض من هذه المقتنيات ورسومها في كتاب المستر « ريج » المقيم البريطاني ببغداد والمعنون « كنوز الشرق »[٤٢] .

وقبل مدة عثر هنا على حجر كبير يحمل بعض الصور وحروفا غير معروفة وقد وقع ذلك الحجر بيد الاتراك فحطموه اربا .

* * *

حين هبطنا من تل نينوى سرنا في ارض مستوية تقع بينه وبين التلال الرئيسة الاخرى القريبة من النهر حيث كانت الارض مغطاة بقطع من الفخار

* فى كتابه مذكرات جغرافية عن ايران ج٤ ص ٢٥٩

Macdonald Kinnier : Geographical Memoirs on Persia 4 To P.259.

*** هيرودوتس (٤٣)

+ + بيروسوس وقد اقتبسه يوسفس فى كتابه (ج ١٠ ف ١ قسم ٥)

Berosus, Josephos Ant. B. 10 C. 1 S. 5.

الجيدة الانواع وكانت مضلعة الاشكال بصفة عامة ولو انها من نوع قديم كما هو ثابت فعلا* .

---

* قيل ان « ارباسيس » (٤٤) المادى ساوى نينوى مع الارض ، وجعلها اداة للعجب ورغم تدميرها الكامل فان آثارها لا تزال ظاهرة .

يقول الاسقف «نيوتن» [ان النقطة المتفق عليها بصفة عامة هي ان الماذيين والبابلين قد احتلوا نينوى وخربوها . فلقد ثاروا ضدها سوية فقوضوا الامبراطورية الآشورية . لكن المؤرخين يختلفون كثيرا بشأن الزمن الذي احتلت نينوى فيه ، وشأن الملك الاشوري الذي سقطت المدينة في عهد حكمه ، والاشخاص الذين تولوا قيادة تلك الحملة .

فهذا هيرودوتس يؤكد ان « كي اخسار » (٤٥) ملك الماذيين هو الذي احتل المدينة [هيرودوتس : الكتاب الاول فصل ١٠٦ ص ٤٥ طبعة غيل] . بينما يؤكد سانت جيروم بالاضافة الى السجلات العبرية ان الذي احتل نينوى هو « نبوخذ نصر ملك البابليين » (٤٦) [هيرون في نعوم ١١ ١٢ ص ١٥٧٤ مجلد ٣ طبعة سدير البندكيتي Benedict Seder] ولعل من العسير التوفيق بين هذه الاقوال لان كلا من كي اخسار ونبوخذ نصر قد احتلا نينوى بقواتهما المشتركة وهذا واقع فعلا كما جاء ذلك في كتاب [توبيت (٤٧) Tobit الجزء ١٤ ف ١٥] ، اذا كان « اشيروس Assuerus الذي ذكره توبيت هو نفس كي اخسار الذي أورده هيرودوتس [وهناك سبب كبير يحملنا على الاعتقاد بانه ذات الاسم] .

وقد سمع « طوبيا » (٤٨) قبل ان يموت بخراب نينوى التى استولى عليها نبوخذ نصر واشيرووس وكان قبل موته قد فرح لما حل بنينوى . وقال يوسفس فى أحد المواضع ان الامبراطورية الاشورية دمرت على ايدى الماذيين لكنه ما لبث فى موضع آخر ان قال ان الماذيين والبابليين هم الذين دمروا الامبراطورية الاشورية [يوسفس : الكتاب العاشر ف ٢ ص ٤٣٥ قسم ٢

Assyriarum Imperium A Medis Eversum Iri Contigit. Joseph. Ant. Lib X Cap 2 Sect 2 P.435.

دمرت الامبراطورية الاشورية على يد الماذيين « فهو يقول »

Medos Et Babylonios Qui Assyrirum Evertrant Imperium. Ibid. Cap V Sect 1 P. 441.

وترجمته فالماذيون والبابليون هم الذين دمروا الامبراطورية الاشورية . ذات المصدر ف ١٠ قسم ١ ص ٤٤١] .

وحين اجتزنا ذلك السهل مررنا بجدول ماء صغير (ماء كوسا)(٤٧) ينبع من الجبال الشرقية ، ويمر بمحاذاة تل حرموش ، ثم يصب في نهر دجلة .

ولقد اجريت فى هذا التل حفريات واسعة . ويبدو ان الهدف منها هو التأكد من المادة التي شيدت منها واستخراج الآجر من ذلك التل واستعماله في البناء كما حدث ذلك بالنسبة لخرائب بابل . ولكن الظاهر لا يبين وجود آجر في ذلك التل لان البناء كله قد تحول الى كتلة صلدة بفعل الزمن وطبيعة المواد

ويذكر هيرودوتس ان الماذيين استولوا على نينوى واخضعوا الاشوريين لحكمهم ما خلا الجزء الخاص بالبابليين لان البابليين كانوا احلافهم وشركاءهم [فقد قال

Et ninum Expugnaverunt Assyriosque Exepta Babylonica Portione Subegerunt. Herod. Lib. I C. 106 P. 45.

وترجمته وقد استولوا على نينوى وآشور ما عدا القسم الذي كان يخضع للبابليين . هيرودوتس الكتاب الاول ف ١٠٦ ص ٤٥] .

ووصف ستياس (٤٩) ومن بعده ديودورس الصقلى احتلال نينوى واخضاع الامبراطورية الاشورية على يد ارباسيس ملك الماذيين حيث ساعده في ذلك « بلسيس » (٥٠) ملك البابليين .

[ديودورس الصقلى الكتاب الثانى ص ٧٨ طبعة ستيفن وص ١١٠ طبعة رودمانى] .

والذى اعرفه هو ان اوسابيوس (٥٢) ومن بعده عدد من المؤرخين امثال « بوشر » (٥٣) و «بريدو » (٥٤) وغيرهم قد خيل اليهم ان هذه الواقعة تختلف عن تلك ولذلك فقد دونوها فى اوقات مختلفة . فلا يوجد ما يؤكد ان المدينة قد تم تدميرها مرتين ، وان الامبراطورية الاشورية قد تم الاستيلاء عليها مرتين أيضا ومن قبل ذينك الشعبين المتحالفين . [سجلات مارشامي كرونيكون Marshami Chronicon المجلد الثامن عشر ص ٥٥٦ .S & C. XVIII P. 556

ولم يشر ديودورس الذى قص هذه الواقعة الى اخرى غيرها ولكنه قال ان ارباسيس وزع سكان نينوى على قرى البلاد ، وانه ساوى المدينة مع الارض ، ونقل اوزانا كثيرة من الذهب والفضة الى « اكباتانا » (٥٥) عاصمة ملوك الماذيين . وعلى هذه الصورة انقرضت «امبراطورية الاشوريين» [كتاب الاسقف نيوتن عن النبوءات ص ١٤٩ _ ١٥١] .

Newton : On Prophecies PP. 149 — 151.

التي يتألف منها* •

وحين مررنا بالتل الذى يدعى « نبي يونس » فحصت باهتمام متزايد ، فتحة استحدثت في الناحية الشمالية منه حديثا حيث شاهدت بوضوح جزءا من البناء فيه • كان البناء مشيدا باللبن طول الواحدة منه شبران ، وعرضه شبر واحد وهو من النوع غير الصقيل وقد بنى بالملاط •

ويقوم القبر الذى يفترض فيه انه قبر النبي يونس على رأس التل وقد تجمعت حوله قرية كبيرة يسكنها المسلمون • وقد ظهر لي انه أشبه ببقية قبور الائمة المعروفين المنتشرة في الشرق • وقد تأثرت لانني لم ازره وذلك بسبب اضطراري للعودة الى الموصل في وقت اسرع •

وحين هبطنا من هناك الى الضفة الشرقية من دجلة باتجاه الجسر المؤلف من زوارق فوق النهر ، عبرنا للمرة الثانية جسرا حجريا فوق نهير يجرى من الشرق ثم يختلط بنهر دجلة على مقربة من هذا الجسر • وقد لاحظت ان القناطر الخمس عشرة التي يتألف منها الجسر مبنية على طراز مختلف •

وحين دخلنا الموصل من الناحية الشرقية بطريق عودتنا كان منظرها من هذه الناحية أكثر اثارة منه يوم دخلناها من الناحية الغربية • فقد ظهر انها تمتد من هناك بامتداد الضفة الغربية للنهر مسافة ميل واحد • وقد بدت المنازل فيها كثيفة متزاحمة والمساجد فيها قليلة •

وفي وسط المدينة الذي يقوم على أرض مستوية أكثر من ناحيتيها الشمالية والجنوبية تبرز منارة مسجد نورالدين مرتفعة من ذلك المسجد بشكل ظاهر •

---

* [وانه سيمد يده نحو الشمال ويخرب آشور انه سيخرب نينوى ويجعلها قفرا بلقعا وستندفع الى وسطها كل قطعان الامم ووحوشها • وستعشعش الغربان والبوم فى طبقاتها العليا ، ويتردد نعيبها فى نوافذها • وسيبلغ الخراب فيها حتى عتبات ابوابها ويغطى نقوش الارز فيها • تلك هى المدينة المرحة التى كانت تعيش من دون اكتراث • تلك هى التى كانت تقول فى سرها « انا ولا يوجد سواي » كيف أصبحت الان خرابا ، ومأوى للوحوش ؟ ان كل من سيمر بها سيصفر ويلوح بيده ساخرا » [سفنيا] : الفصل الثانى م١٣ـ١٥
Zephaniah. C. II V. 13 — 15.

ولم تكن الارض فى شمالى المدينة ذات اهمية بينما امتدت فى الجنوب بساتين الباشا وتناثرت بعض المنازل الصيفية الصغيرة بين الاشجار فاكسبت الريف منظرا بهيا •

وعندما بلغنا الجهة المقابلة للنهر دخلنا المدينة مرة اخرى وتجولنا فى سوق الخيل وهنا شاهدت المنارة الحجرية الوحيدة التي شاهدتها في المدينة ، حتى وصلنا مركز سعادة البريد « قوناق ططر اغاسى » على مقربة من قصر الباشا » •

كانت الخيول التي هيئت لسفرتنا قد اسرجت ، وراح السعاة يفرقعون بأسواطهم ، وينتقلون هناك بأحذيتهم الثقيلة ، ويشتمون السائسين والمعتنين بالخيول ، ويشمخون بما الفه الناس عن اقرانهم في انكلترا ومنهم فتيان البريد وسائقو العربات وما شاكلهم •

* * *

امتطينا خيولنا وبدأنا رحلتنا من الموصل الى بغداد بعد الساعة التاسعة مباشرة • وركب الساعيان يونس وعلي اللذان جاءا من ديار بكر جواديهما وكانا قد رافقا قافلتنا عبر سنجار وهما يحملان رسائل من السفير البريطاني في استنبول الى المستر ريج في بغداد •

ولما كانت خيولنا غير متعبة وجيدة ، وسروجنا وامتعتنا قد أعدت اعدادا صحيحا أثناء اقامتنا القصيرة في الموصل فقد بدأنا الرحلة بهمة علية ، فتحركنا أنا وعلي ، مسبقا وتركنا يونس ليلحق بنا •

وبعد أن عبرنا جسر الزوارق الذي سبق لنا وصفه ، سرنا في اتجاه الجنوب وأخذنا نبتعد بالتدريج عن الضفة الشرقية للنهر اذ كان مجراه هنا يتجه نحو الجنوب والجنوب الغربي وفي الساعتين الاولين اللتين قطعنا فيهما نحو عشرة أميال ، كنا نسير بين الروابي والاكام التي كانت تبدو وكأنها مؤلفة كلها من أنقاض أبنية سابقة • وهذه تشبه الخرائب والاطلال التي تشاهد في مواقع

المدن المخربة الاخرى كالاسكندرية ، وممفيس وسايس وتانيس (٥٦) في مصر ، وهي بلاشك تشير الى اتساع مدينة نينوى القديمة الذي يعادل المساحات التي حددها لها المتقدمون من الجغرافيين والمؤرخين •

واذ خلفنا هذه الروابي وراءنا دخلنا سهلا مشجرا فوصلنا بعد الظهر مباشرة أول مرحلة (٥٧) في قرية واسعة تدعى قرەقوش ٠٠(٥٨) • وكنا في طريقنا هذا عبرنا جدولين من الماء ينحدران من الجبال الشرقية ، ويجريان عبر مواقع نينوى ، ثم يصبان في نهر دجلة • كما شاهدنا في ناحيتنا الشرقية أو على يسارنا جملة أماكن صغيرة لم استطع معرفة اسمائها •

كانت كل الدور في قرية قرەقوش مبنية باللبن والطين على غرار الابنية التي شاهدتها في تل حرموش والذي يعتقد بانه تكون من بقايا المنازل القديمة التي كان يسكنها أهالي نينوى •

والواقع ان هذا هو طراز البناء الذي يستعمله الفقراء في هذه البلاد بسبب فداحة نفقات الحصول على الحجر ، ولسهولة بناء منازل الطين •

صحيح انه لا يمكن نقل الحجر مسافة عشرة او اثنتي عشر ميلا من اقرب سفح من سفوح الجبال الشرقية وبالشكل الذي شاهدناه في الموصل ، الا ان المرمر أو الجبس المجزع يؤتى به من جبال في شمال تلك المدينة ولا يستعمل الا بتقتير حتى في منازل الاغنياء ، في اطر اطر الابواب والاعمدة وما شاكلها •

ولما كانت هذه هي الاسباب الدائمية التي تؤثر في طريقة البناء في الوقت الحاضر فأن ذات الاسباب كانت موجودة في العصور القديمة وقد نجمت عنها نفس المؤثرات بشكل طبيعي • فما خلا الآجر الذي شاهدناه في نينوى وردت اشارة عن مواد في الانذار الذي وجهه النبي بسقوطها •

توجد بين بيوت قرەقوش المصنوعة من اللبن بعض البيوت الكبيرة ذات

* [احتفظوا بالمياه لديكم استعدادا للحصار • حصنوا مراكزكم القوية • هيأوا الطين واصنعوا الملاط • عززوا افران « شي الآجر » [ناحوم الاصحاح الثالث آية ١٤ • Nahum C. III V. -4.

الشرفات يحيط بها اطار مجوف من الجبس • على ان القسم الاكبر من البيوت يتألف من اكواخ صغيرة ذات سقوف طينية مخروطية الشكل كأنها مجموعة من خلايا النحل •

واغلب السكان مسيحيون من اتباع الكنيسة السريانية وهم لا يتحدثون فيما بينهم الا باللغة السريانية لكنهم يخاطبون الاجنب بالعربية والتركية •

والحرفة الرئيسة لسكان قرەقوش هي الزراعة ورعي الاغنام لكنهم يعيشون في فقر مدقع بصفة عامة •

كان في استقبالنا محافظ خيول البريد (سروجي باشى) وهو الذي تحفظ خيول البريد الحكومية عنده وقد عاملنا هو وأتباعه باحترام بالغ • فخصصت احدى الغرف لاستراحتنا وقد فرشت بالابسطة والمقاعد • وهيئت لنا غلايين التبغ والقهوة، واعدت الصحون الكثيرة •

ولما كان يونس لم يلحق بنا بعد فان علي ، وهو اصغر سنا ، لم يسمح لنفسه ان يتناول شيئا من الطعام او الشراب من دون ان ينتظر رفيقه طويلا •

انتظرنا هنا مقدم مقدم يونس زهاء الساعتين وقد قيل لنا انه انشغل هذه المدة بمغازلة زوجته الشابة التى تزوجها حديثا فى الموصل والتى تأبى ان تغادرها معه •

ان الحياة الشاقة التي يحياها هذا الساعي وهو في سفر مستديم من أقاصي الامبراطورية الى ادانيها ، بوسائل ليست ملائمة له ، ان هذه الحياة قد تبدو ذات متع خفيفة لو انه استطاع ان ينفذ ما سمح به القانون والنبي وذلك بامتلاك اربع زوجات يوزعهن بحكمة على الطريق المعتاد الذى يطرقه فيدع اجملهن تسكن فى استنبول ، ويسكن اكبرهن فى ديار بكر ، ثم اصغرهن فى الموصل ، واغناهن فى بغداد • وهكذا يتوفر له الجمال والغنى ويتسلى بهما عن شدائد السفر ، وتظل الحيوية والشباب تريحانه فى طريقه •

نفذ صبرنا فى انتظار لا أمل فيه وصول يونس واذ ذاك تناولنا وجبتنا من

دونه . وبعد ان دخنا الغليون الثاني امتطينا جيادنا الجديدة وبدأنا مسـيرتنا . اصبح لدينا الان سائقان يقود كل منهما جوادين محملين ببعض الصناديق وغيرها مما كان علي يعنى به من قبـل وبذلك صار عدد خيولنا الآن ثمانية والسائقون اربعة حسب .

كانت الساعة حوالي الثالثة حين غادرنا هذه القرية متجهين منها الى الجنوب والجنوب الشرقي ونحن نسير بمعدل ستة اميال فى الساعة الواحدة .

وفي الرابعة عبرنا جدول ماء كبير رائق وكن عميقا يندر خوضه بالارجل كما عبرنا في الســاعة الخامسة جدولا آخر ممــاثلا وكان كلاهما يدعــان « كوثر » أو كوزر[٥٩] وقيل ان الفرعين ينحدران من جبال كردستان الى الشمال الشرقي منا وحين يؤلفان جدولا واحدا الى الجنوب الغربي قليلا ، تصب مياههما فى دجلة .

في أحدث وأوسع خريطة نشرت في كتاب مكدونالد كنير المعنون « مذكرات جغرافية عن البلاد الواقعة بين الفرات والاندلس » حذف موقع « قره كاوا »[٦٠] ولو انه ذكر في المذكرات ذاتها بأن هذا الموقع يبعد أربعة فراسخ أو خمسة عشر ميلا عن الموصل* .

وحين غادرنا ذلك المكان وعبرنا الجدولين وجدنا مجاريهما قد تعــددت

* « فى التون كوبرى وباتجاه الشمال وصلنا اربيل (اربيليس) [٦١] بعد مسيرة عشرة فراسخ ، وتقع هذه المدينة على اكمة تضم سهلا واسعا ينتج ذات ما تنتجه منطقة كركوك . وتشتهر اربيل بالانتصار الذي حققه الاسكندر في سهولها على جيش داريوس . وتعتبر من المواقع المحصنة التي يحتفظ بها باشوية بغداد . ويحكمها « بيك » او ملازم . وفيها قلعة ومصانع كثيرة لصنع منسوجات الكتان والقطن . ويمر قنال كبير في الحقول الخصبة . ويرشد سكانها الرحالة المنقبين الذين يجوبون المناطق المحيطة ، الى الـكثير من خرائب القلاع القديمة التى يزعمون انها قد شيدت هناك لملوك السلالة الفارسية الاخيرة » .

[روسو : وصف باشوية بغداد ص ٨٥ ، ٨٦]

Rousseau : Description Du Pachalik De Bagdad PP. 85 — 86.

وتفرعت بصفة غير دقيقة حيث يختلط فـرعا « الخوصر »[٦٢] بنهر الـزاب الكبـير .

وليس من شك في ان نهر « الخوصر » في هذه الخارطة هو نهر بوماديس او بوماد او بومالوس[٦٣] الذى سماه به القدامى من الجغرافيين والمؤرخين* ولكن الشيىء المؤكد هو ان فرعيه او ذراعيه اللذين عبرناهما يختلفان عن الزاب الاكبر طبقا لكل الاوصاف الحديثة لذلك النهر .

ففي هذه السهول الشاسعة وعلى ضفاف بوماديس اقام « داريوس »[٦٤] معسكره تماما قبل وقوع معركة « غوغاميلا » المهلكة[٦٥] . فبعد ان عبر الاسكندر فى حملته على الشرق نهر دجلة من دون مقاومة واسر كتيبة خيالة عائدة الـى الفرس عرف منها ان داريوس على مقربة منه ، سمح للقوات ان تستجم ولكـن لايام قلائل ، وان تسترد قوتها وعزيمتها التى تبددت ونفذت وهي تجتاز سهول ارض الرافدين المحرقة حين قادها الاسكندر بنفسه مرة اخرى ووقف بها على بعد ستين ذرعة من الجيش الفارسى .

تلك هي المميزات الاولى التي أوردها « اريان »**[٦٦] وقد استقاها من ديودوروس الصقلى الذى اشار ايضا الى ان الجيشين قد عسكرا على مرأى من احدهما الآخر ، وان المعركة قد استمرت يومين بعد ان عبر المكدونيون النهر*** وهذا يعنى ان احتساب ايام مسيرتهم من دون ادخال فترات الراحة فيها ، يأتـي متفقا مع بعد المسافة اتفاقا صحيحا .

ولقد كشف المؤلف العالم لكتاب « بحث انتقادى لمؤرخي حياة الاسكندر

* كونتوس كورتيوس ك ٤ ف ٩

Quintus Curtius : Lib 4 C. 9.

** اريان حملة الاسكندر ج ١٨

Arrian : Expedition Alexandrien Lib XVIII.

*** ديودورس الصقلى الكتاب السابع عشر

Diodrus Siculos : Lib XVII.

الكبير »(٦٧) عن التناقضات التي وقع فيها كونتوس كورتيوس الذي يبدو عليه انه قد ضحى بما يجب أن يتحلى به المؤرخ من استقامة ، فيما كتبه عن معركة اربيل، وذلك لكى يعرض لنا مقدرته كمتضلع فى علم البـلاغة ! فقد قص علينـا كورتيوس انه كان في السهل جيشان يقابل أحدهما الآخر ، وانه لم تكن تشاهد فيه ادغال ولا اشجار • وكان مدى الرؤية واسعا لا حدود له كأنه الافق + + ومع ذلك فقد اصدر الاسكندر اوامره بازالة كل عقبة تعترض تحركات الجند** وطبقا لما ذكره المؤلف نفسه فان احدى الكتائب المكدونية قد احتلت ، قبل ان تبدأ المعركة تماما ، مرتفعا كان الفرس قد تخلوا عنه* بينما يقول نفسه بعد ذلك عند حديثه عن المعركة ذاتها ، بأن الغابات والاودية كانت تردد صدى أصوات الجيوش*** •

+ + يقول كورتيوس

Opportuna Explicandis Copiis Regio Erat Equitabilis Et Vasta Planities : Ne Stripes Quidom Et Brevia Virgulta Operiunt Solum : Liberque Prospecthus Oculorum Etiam Quae Procul Recessère Permittitur.

** كونتوس كورتيوس ك ٤ ف ٣٥ مجلد ٢ ص ٢٣٣

Quintus Curtius Lib. IV C 35 Tomus II P. 233.

Itaque Si Quà Campi Eminebant, Jussit Aequari Totum Que Fastigium Extendi Lib 4 C 35 .

* كونتوس كورتيوس ك ٤ ف ٣٥

Mazaeus Cum Delectis Equitum in edito Coll, ex Quo Maccdonum Prospiciebantur Castra Consederat — Macedones cum Ipsum Collem, Quem Deseruerat, Occupaverunt, Nam et Tutior. Planitie erat, Lib 4 C 48.

*** كونتوس كورتيوس ك ٤ ف ٤٨

*** Macedones, Ingentum Pugnantium More, Edidere Clamorem — Redditus et a Persis, Nemora Valles Que Circomjectas Terribili Sono Impleverat.

ذات المصدر ك ٤ ف ٤٨

على ان شيئا من الحقيقة يبدو في غمرة هذه المتناقضات وربما كان مرد الاخطاء التي وقع فيها المؤلف الى تأثير الوصف والتلوين أكثر منه الى الرغبـة فى المحافظة على الوقائع • فالارض التى تقع بجوار هذه الجداول هنا تفتقر تمام الافتقار الى التلال الظاهرة كيما يطلق عليها بصفة عامة اسم « السهل الواسع » وصحيح حقا انهـا لم تكن على سعتها التي شـهدتها أنا بنفسي ، ولم تكن ترى فيه اية شجرة ايضا وكان المنظر فى كل اتجاه « شاسعا » وفى اماكن كثـيرة « لا حدود له كالافق » •

ومع كل هذا فهناك عدد كاف من السفوح المتموجة التى تؤلف « المرتفعات والاودية » في المعنى العسكري ، حيث يكون أقل اختلاف في مستوى الارض ذا اهمية فى اختيار المواضع ، ولذلك قد يكون المقدونيون احتلوا فعلا مثل هذه الربوة بعد ان تخلى الفرس عنها • ولكـن كان من الضرورى حذف عبـارة « الغابات والوديان التي كانت تردد أصداء أصوات الجيوش المتلاحمة » لان هذا لا ينطبق على مسرح الحادثة ولا يوجد له اثر الا فى مخيلة المؤلف الرومانـي المبدعـة •

كان عدد الرجال الذين قدر به ، خيرة المؤرخين في ذلك الوقت ، الجيش الفارسى يبلغ مليونا كما لاحظ ذلك احد النقاد الفرنسيين* ولو ان العدد قـد يبدو مبالغا فيه الا انه فى الواقع لا يتعدى حدود الاحتمال فالحقيقة ان جميـع الامم من بحر « اليوكسين »(٦٨) حتى اقاصي الشرق كانت لها قضية مشتركة مع داريوس ولذلك امدته بالتعزيزات العديدة القوية • فقد كانت العادة الجارية حينذاك ، وكما هى عليه الان ، ان يحمل الاسـيويون معهم فى حملاتهـم العسكرية زوجاتهم واولادهم • وكان الرخاء الذى يتمتع به الفرس لايدعهم

---

* هو البارون دي سـان كروا فى مذكرات الاكاديميـة الآداب والفنون الجميلة : باريس

Baron De St. Croix Memoires De L'academie Des Inscriptions Et Belle Lettres Paris.

يفكرون بالحاجة الى ذلك الحشد من أتباع لا نفع لهم في المعسكر • ولذلك وجدت حالتان يمكن بهما احتساب العدد الحقيقى والفعال للجند •

واذا ما اخذنا بنظر الاعتبار ايضا موجات البرابرة الحية التى انتشرت خلال عصور متباينة فى العالم الغربي ، وهذه الاعداد الهائلة من القوات النظامية التى استطاعت تحت قيادة امراء التتر ، ان تحتل كل اقاليم آسيا تقريبا ، استطعنا ان نقتنع بيسر انه كان فى الامكن جمع مثل ذلك الجيش اللجب ليحارب فى سهول اشور دفاعا عن سلامة الامبراطورية الفارسية •

كانت نهاية هذه المعركة انهيار قوة داريوس وتشتت عشرات الالوف من اتباعه المخلصين واندحارهم امام المقدونيين الفاتحين ذوى التدريب العسكرى العالى والشجاعة الفائقة •

* * *

بعد ان عبرنا الفرع الثاني او الشرقي من النهر واصلنا سيرنا نحو الجنوب الشرقي واخذنا عند الغروب تنحدر نحو مستوى اوطأ يمر عبر تلال مكونة من خليط من الحصى تخترقها كهوف ذات عمق ملحوظ ظهر فيها الحصى المدور وسط قطع من الكلس يصعب الاعتقاد بانها لم تكن بقايا بعض المبانى القديمة او انها لم تكن على الاقل من صنع يد انسان وليس من انتاج الطبيعة • وانتهى بنا هذا الانحدار الى سهل تقوم فيه قرية صغيرة مساكنها ذات سقوف من القش مخروطية الشكل ولو ان الشكل المعتاد فى البلاد هو ان تكون السقوف مسطحة •

كان الوقت ظلاما حين بلغنا الضفة الشمالية الغربية من جدول ماء يجرى من ناحية الشرق وهو اوسع واعمق واسرع جريانا من اى جزء من اجزاء نهر دجلة ذاته كنت قد شهدتها حتى الان ، وهكذا كنا ، مذ غادرنا قره‌قوش ، قد قطعنا مسافة حوالى اربعة وعشرين ميلا باتجاه الجنوب والجنوب الشرقى •

هنا نزعت عن خيولنا سروجها وركب فتياننا قربا نفخت هواء وعبروا الى الجانب الثاني من الجدول وهم يسحبون الخيول بايديهم فى الوقت الذى كانوا يعبرون فيه الماء • اما نحن فقد نقلنا فيما بعد مع امتعتنا وادوات الخيل فوق

(أكلاك) أو ارماث صنعت من أغصان الشجر عززت بالقرب المنفوخة بالطريقة التى كانت تجرى الملاحة بها فى هذه الانهار خلال اقدم العصور* •

ولما كانت الاشجار الكبيرة نادرة هنا فقد كانت المجاديف تصنع من اجزاء صغيرة من القصب تشد الى جانب بعضها البعض وتكون مشابهة للمجداف التقليدي الذي يشاهد في المنحوتات الاغريقية •

نقلنا عبر النهر على هذه الارماث وسط أغاني الملاحين المبهجة دون ان

* أنظر هيرودوتس فى وصفه التجارة والتجهيزات فى بابل فقد استخدمت هذه الارماث ايضا ، فى عهد كورش الاصغر ، للملاحة فى نهر الفرات • يقول زينفون « ولقد اكتشفوا أثناء مسيرتهم في الصحراء مدينة كبيرة آهلة بالسكان تقع على الجانب الآخر (العربي) من الفرات تدعى « كرماند » (٦٩) وكان الجنود الذين يشترون السلع يصلون الى المدينة فوق ارماث وذلك بان يملأوا القرب التى كانوا يستفيدون منها فى الخيم بالعشب اليابس ويخيطونها معا بشكل موثق كيلا يدخل الماء فيها » • ويلاحظ « سبلمان » فى اشارته الى هذه الفقرة ان هذا النوع من الارماث التى جاء الحديث عنها كانت تستعمل قديما فى عبور الانهار ويضيف الى ذلك قوله « لقد عبر الاسكندر عدة انهار بهذه الطريقة ولا سيما نهر « اوكسوس » (٧٠) فى مسيرته الظافرة عبر اسيا » •

[انابابيس : الكتاب الاول صفحة ٦٠] • ونجد فى الكتاب الثالث من ذات المؤلف وصفا لاختراع بارع جدا استحدثه شخص يدعى « روديان » لنقل عشرة آلاف جندي فوق دجلة « فبينما كانوا (الجنرالات والرؤساء) فى حيرة جاء شخص يدعى (روديان) اليهم وقال « ايها السادة ساقوم بنقل أربعة آلاف جندي مسلح فى وقت ما اذا ما زودتموني بما اريده ومنحتموني وزنة ذهب لقاء اتعابى • وحين سألوه عما يريده اجاب « أريد منكم الفي كيس من الجلد اننى ارى هنا عددا كبيرا من الاغنام والمعز والابقار والحمير فاذا ما سلخت هذه ونفخت جلودها استطعنا ان نعبر بها النهر بيسر • كما اطلب منكم ايضا احزمة سروج الخيل التى تحمل الامتعة • فبهذه الاحزمة سوف اربط الاكياس الى بعضها البعض ، واعلق بها الحجر وانزلها الى النهر بدلا من المراسي ، ثم اشد الاكياس من نهاياتها حين تكون فوق الماء والقي بالحطب فوقها واغطيه بالتراب» وواصل قوله « وساجعلكم تطمئنون بانكم لن تغرقوا • ذلك لان كل كيس سوف يحمل رجلين وان الحطب والتراب سوف يمنع الاكياس من الانفلات •

تخشى صغر المركب اذا ما قورن مع وزن حمولته وسرعة جريان الجدول الذى كانت دواماته تدير رمثنا الصغير دورة فدورة وتقاوم قوى المجداف المسيطرة •

كن الجدول الذى يصعب التأكد من سبرغوره بسبب سرعة تياره يجرى بمعدل خمسة اميال فى الساعة حين عبرناه • وقيل ان منابعه فى جبال كردستان وعلى مسيرة اربعة او خمسة ايام الى الشرق من هذا المكان وهو يكون اوطأ في شهور الربيع والشتاء واعلى فى شهور الصيف والخريف وذلك اولا نتيجة ذوبان الثلوج ، وثانيا فيضانه بمياه الامطار ولكن من طبيعة الحوض الذى يجرى فيه تكون مياهه على الدوام رائقة وحلوة • واسم النهر هنا « ثربا » أو « زربا »(٧١) كما يلفظ ذينك الاسمين سكان البلاد ، وهذا النهر ، وهو يتميز عن فرعي نهر الخوصر اللذين يتحدان معا ويجريان كنهر واحد في دجلة ، يؤلف بلا شك نهر الزاب الكبير لدى القدماء فهو زاباتوس كما سماه زينفون ، و « ليكوس » كما سماه « بيطليموس »(٧٢) •

ويفترض دانفيل وجود خطأ اما فى النص او فى ترجمة ماكتبه الجغرافي العربي ، الادريسى(٧٣) حين يقول ان الزاب الاكبر والزاب الاصغر يتحد احدهما بالاخر وان النهر المؤلف منهما يعادل او يزيد عن نصف نهر دجلة ويقول الجغرافي الفرنسى « لان من الذائع انهما لا يتحدان بدا »* •

وهذا انتقاد ثابت اذ لا شيىء اكثر عرضة للتبدل من مجرى الانهار وفى اراضى منبسطة كهذه البلاد حيث تتعرض نقاط الاندماج والانفصال ، ولا سيما حين يكون الفرعان احدهما قريب من الاخر ، لكثير من التغيرات العديدة الظاهرة •

---

* « **هناك بعض الخطأ لدى ترجمة ما كتبه الادريسى وانه أخطأ نفسه** فى القسم السادس عشر من الاقليم الرابع عشر حين قال ان الزابين حين يتحدان معا يؤلفان نصف ماء دجلة او يزيدان عليه اذ المشهور انهما لا يتحدان » •

[دانفيل فى كتابه عن « الفرات ودجلة] الكتاب الرابع باريس ١٧٧٩]

D'anville : Sur Euphrates et Tigre Tom 4 Paris 1779.

كذلك لم يكن مستحيلا ان يكون الجغرافي العربي قد تحدث عن فرعي نهر « الخوصر » كما علمت من اهل البلاد الذين يميزون بينهما ، فاطلق الاسم على الفرعين اللذين عبرناهما بين قرهقوش وهذا المكان • فهذان يتحدان فعلا ومن ثم يصبحان مساويين لنصف عرض نهر دجلة في حين ان الزاب الكبير كان في نقطة اختلاطه بنهر دجلة يبدو ، في نظر اليونانيين طبقا لما ذكره زينفون ، كبيرا مثل دجلة ذاته • ولقد كان في النقطة التي عبرناه فيها واسعا تماما*** •

فهذا النهر سماه بطليموس باسم ليكوس • ويقول دانفيل « ان سرعة جريانه التى توازى وثبة الذئب هى التى جعلت الفرس يسمونه (آب جنون) اى (النهر المجنوب) » • اما « بليني »(٧٤) فقد ذكره باسم « زربيس »(٧٥) وهو اسمه الحالي الذي ينتهي نهاية اغريقية في آخره • ودعاه « زينفون » باسم زاباتوس • وسماه الآخرون من المؤرخين القدامى باسم « زابوس » وكل هذه ليست سوى تغيرات فى اصل الكلمة* •

*** كان عرض هذا النهر فى عهد زينفون والعشرة آلاف جندى الذين عبروه حين تراجعهم أربعمائة قدم • ولم توصف الوسيلة التى عبروا بها النهر [اناباسيس المجلد الثالث] • وهاك ما كتبه « اوتر » – وهو رحالة مدقق ، عن « الزاب » فقال « يختلط الزاب بنهر دجلة على مسيرة يومين جنوبى الموصل فوق [حديثه] (٧٦) • العاصمة الثانية للبلاد • ويقول ابو الفداء ان «الزاب» يسمى بالنهر المجنون لسرعة جريانه • وتذكر « الجغرافية التركية ان هذا الاسم يطلق على نهر يدعى « زيبار » (٧٧) يخترق اراضى «عمادية» وقد سمي الزيباريون بهذا الاسم لانهم يسكنون على ضفاف هذا النهر وربما كان نفس هذا النهر يعرف باسماء مختلفة (٧٩) •

[اوتر : المجلد الاول ص ١٤٧ ، ١٤٨

[Otter : Tome I PP. 147 — 148.

* يسمى بطليموس نهر الزاب الكبير باسم ليكوس وذلك بسبب سرعة جريانه التى تقارن بسرعة الذئب ولهذا يسميه الفرس « آب مجنون » اى النهر الثائر • اما اسم « زربيس » الذى اطلقه « بلينى » على الزاب [المجلد السادس فصل ٢٦] **فهو مشهور وشائع لدى أهل البلاد** وقد سماه كل من « تفينو » (٧٩) و « تافرنية » (٨٠) باسم [زارب Zarb]

ويقول نقولا الدمشقي [٨١] ان « انتيخوس »[٨٢]* اقام نصبا على ضفة نهر ليكوس كذكرى لتغلبه على « انداتيس »[٨٣] قائد البارثين • اما « يوسفس » الذى اعتبر هذا النصب دليلا على حسن تصرف انتيخوس تجاه امته فانه يضيف الى ذلك قوله « ان هذا ما كان يريده (هركانوس) » [٨٤] لان هذا النوع من الاحتفاء قد انتقل اليهم من اجدادهم الذين لم تكن قوانين اليهود لتسمح لهم بالسفر •

ويلاحظ المؤلف ذاته ان يومي الراحة هذان قد منحا بمناسبة حلول عيد العنصرة الذى جاء بعد يوم السبت مباشرة*** •

* * *

عند نزولنا على الضفة المقابلة لهذا النهر تلقانا شيخ القرية التى تقوم على كهف هناك وتسمى « كلك »[٨٥] وهو ذات الاسم الذى يطلق على الارمات التى عبرنا بها النهر • والقرية صغيرة تقع على حافة كهف مؤلف من حصى خليط من ذات النوع الذى شاهدناه على الضفة الشرقية من النهر • وسقوف البيوت مسطحة ولو ان الموجود منها على الضفة الاخرى من النهر كانت سقوفها مخروطية الشكل • ولم نعرف لهذا الاختلاف سببا سوى العادة التى سار عليها القوم طويلا •

ومعظم السكان شمالى الزاب من المسيحيين التابعين للكنيسة الاغريقية[٨٧] وهم فى تلك القرى يتحدثون فيما بينهم باللغة السريانية • واهالى « كلك » من

دانفيل : عن الفرات ودجلة ص ٩٠
D'anville Sur E. & T. P. 90.

* كان هذا هو انتيخوس السابع او سيدتيس Sedets وليس انتيخوس العاشر أو بيوس Pius وان كان يوسفس يقول ان الاخير كان يسمى انتيخوس بيوس بسبب غيرته الكبرى على الدين •

*** يوسفس اليهودية القديمة م ١٣ ف ٨
Josephos. Ant. Jud. Lib XIII C. 8.

اليزيدية وهم يختلفون عن يزيدية « سنجار » ، فى بعض نقاط معتقدهم والتفصيلات التى نجهلها ، ويعتبرون انفسهم عنصرا مميزا عن اولئك •

كانت طائفة الشيخ واولاده واتباعه الذين امتعونا بالقهوة على الشاطىء من اجمل الطوائف التى شهدتها من الرجال ، وبمثل هذا العدد فى اى جزء من العالم فالواقع ان جمال الواحد منهم ورشاقة قوامه يحظى بالاعجاب فى اى بلد آخر •

يحرس عدد من القرويين هنا هذا الممر المائى وكأنه ملك لهم ، ويتباهون باستقلالهم عن جميع الباشوات المحيطين بهم • ولقد عاملونا برعاية وادب برهنا على حسن تصرفهم ازاء الاجانب الذين يحترمون استقلالهم ، ويلبون الطلبات المعتدلة التى يطلبونها منهم عند عبورهم النهر من هناك •

وقد اشتهر عنهم بانهم من المدافعين الشجعان عن هذه الحقوق اذا ما اعتدي عليها وانهم معروفون بشراستهم ضد أعدائهم وبمسالمتهم لاولئك الذين يعيشون معهم فى سلام •

ويعتبرون اصل موطنهم في جبال كردستان وهم يتحدثون فيما بينهم بلغة ذلك البلد ولو ان اللغة التركية شائعة بينهم • ولقد اشتهر الاكراد على مر العصور بحبهم للاستقلال ، وهي النعمة التى تعينهم طبيعة بلادهم على نوالها بيسر لان مظاهرها المحلية هي الجبال المتشعبة والممرات الضيقة والوديان المحصورة ذات المرتفعات التى لايمكن تسلقها ، والمواضع التى يسهل الدفاع عنها • ويلاحظ « سترابو » ان البارثيين الذين كانت أقاليمهم تقع على ضفاف دجلة كانوا يدعون سابقا باسم « كاردوشين »*[٨٧] •

وان خصائص هؤلاء البارثين مشهورة • فانسحاب العشرة الاف اغريقي عبر بلاد البارثين هيأ لزينفون فرصة التدليل عليهم كامة محاربة وعدم الخضوع

---

* سبلمان : الملك كورش ص ٣
Spelman's Cyrus P. 3

لاى ملك وهي حالة اخذت تستمر منذ ذلك الوقت فى تلك البلاد*** .

وحين كنا ننظر الى ضفاف النهر ونعلم من مضيفينا ان هناك عددا كبيرا من القرى على امتداد نهر دجلة ، وان السهول الواقعة فى ناحيته الشرقية مأهولة باليزيدية من نفس طائفتهم ، سمعنا صوت الساعي يونس وهو ينادينا بان نبعث اليه بالرمث الى الجنب الثاني . وما ان انضم الينا حتى اسرف فى شتمنا انا وعلي لاننا تجرأنا على التهام وجبة الطعام التي اعدت على حسابه بصفة رئيسة في قرهقوش ، ولاننا غادرنا تلك القرية من دونه .

وحين زال غضب ذلك التركي الساخط ودفعنا الاجر اللازم الى شيخ اليزيدية لقاء المرور من « كلك » ، واصلنا سفرنا حيث اختار يونس له احسن جواد ، وأخذ القيادة لنفسه وكأنه يريد ان يعاقبنا على هجماتنا بالوسائل الوحيدة التي كانت في مستطاعه لان كل كلمات الشتم عنده قد نفدت ولذلك جعلنا نسير فى جري متواصل بمعدل ثمانية او تسعة اميال فى الساعة رغم ان الارض التى كنا نسير عليها كانت صحراء قاحلة تتناثر الحجارة عليها ، وذات تعاقب فى الصعود والهبوط وذلك لكى يتعبنا . على اننا استفدنا من ضوء القمر فلم يقع اى حادث لاى منا ولو ان الامر لا يتطلب التأكد من موضع الاقدام حسب لان الحيوانات قد اعتادت هذا الطريق فعلا ولم تكب بنا طيلة المسافة التى قطعناها جريا .

وعند منتصف الليل تقريبا بلغنا قرية كبيرة تدعى « عين كاوة »(٨٨) وكنا قد قطعنا ، منذ غادرنا « كلك » على ضفة الزاب ، حوالي أربعة وعشرين ميلا باتجاه الجنوب . وكان الساعي الشاب علي قد أرسل أمامنا قبل أن نصل القرية كيما يتهيأ لاستقبالنا ويكون كل شيء معدا حين وصولنا . واذ بلغنا القرية كانت البسط والمقاعد والغلايين والقهوة قد اعدت مسبقا ، ومد امامنا سماط فاخر حيث اضطجعنا بعده على الفرش الناعمة النظيفة الممتدة على احدى الشرفات لنرقد عليها .

*** مالكولم : تأريخ فارس مجلد اول ص ٢٤٥
Malcolm, History of Persia Vol I P. 245.

شروح وتعليقات المعرب على الفصل الرابع

(١) هو النبي يونس عليه السلام وقد مرت الاشارة الى مرقده في شروح الفصل الثالث .

(٢) تل حرموش يقصد به قرية الحرموشية وتدعى احيانا باسم العرموشية وهي تقع على مقربة من قوينجق (اطلال نينوى) .

(٣) يقصد به المؤرخ اليوناني المعروف ديودوروس الصقلي وقد ولد هذا المؤرخ فى مدينة اجيريوم بجزيرة صقلية وعاش فى عهد حكم الامبراطورين الرومانيين يوليس قيصر واغسطس . وقام بجولة في مصر في الفترة ما بين ٦٠ - ٥٧ ق.م كما امضى سبع سنوات فى روما وقد وضع كتابا باسم « دليل المطبوعات التأريخية Bibliothca Historica » في أربعين جزءا ولكن لم يبق منه سوى خمسة اجزاء يتحدث فيها عن ديانات المصريين والآشوريين والاحباش واليونان . وعثر على تسعة أجزاء اخرى تبدأ بالحرب الفارسية اليونانية وتنتهي بتأريخ خلفاء الاسكندر الكبير .

(٤) سمراميس ملكة آشور وقيل انها كانت وصية على عرش آشور في الفترة ما بين ٨١٠ - ٨٠٥ ق.م. وسماميس أيضا اسم آلهة آشورية اسطورية ابنة درسيتو آلهة السمك وقد تزوجها القائد الآشوري الشهير « اونيس » وقد شاركته في مغامراته العسكرية واحتلال بكتريا . وقد أحبت سمراميس نينوس ملك آشور فتزوجته بعد ان انتحر اونيس وتزعم الاساطير انها حكمت بعد نينوس مدة اربعين سنة . وانها هي التى بنت نينوى وبابل واستولت على مصر وفارس والحبشة وليبيا وحين توفيت تحولت الى حمامة .

(٥) يقصد به الفرسخ الاغريقي Stadia استعمله اليونانيون لقياس الاطوال ويبلغ مائتين وثلاث ياردات .

(٦) المذيون نسبة الى بلاد مادي وهي أذربيجان الحالية بشـطريها الايراني والروسي وهم من الشعوب الآرية التي سكنت تلك الاصقاع في قـرون سابقة للميلاد وقد استولى المذيون على بلاد ايران وتناسبوا مع أهلها الفرس كما تحالفوا مع الكلدانيين في مهاجمة الامبراطورية الآشورية وتدميرهـا وتقسيم أملاكها فيما بينهم وما لبث كورش الكبير ملك ايران أن ثار عـلى المذيين فاحتل أراضيهم ومزج بينهم وبين الفرس وجعل منهم شعبا واحدا في اطار دولة واحدة تخضع لحكمه هي الدولة الكيانية وكانت مادى تعرف باسم « العراق العجمي » ومن أشهر مدنها « حلوان » شمالي خانقـين وعرفت باسم «حلح» في الانجيل •

(٧) سترابو (ويدعى سترابون أيضا) Strabo مؤرخ وجغرافي يوناني شهير ولد سنة ٦٣ ق•م • وتوفي سنة ٢١ ميلادية درس في آسيا الصغرى واليونان وروما واسكندرية مصر ثم قام بعد ذلك بسياحة واسعة في شمال أفريقيا وآسيا ، وأوربا ودون مشاهداته وملاحظاته عن رحلته هذه في سبعة عشر مجلدا كبيرا غنية بالمعلومات عن العالم القديم •

(٨) القاضية نسبة الى القاضى سماها المؤلف Cateea وهي قرية تقـع عند ابتداء الطريق الذي يمر من الموصل الى دهوك •

(٩) دير الخرزي سألت الاستاذ كوركيس عواد عن هذا الدير فأنكر وجود دير في منطقة الموصل بهذا الاسم ولعل المؤلف سمع الاسم المحلي له فسجله كما سـمعه •

(١٠) جبل كارا يقع غربي الزاب الكبير وعند جنوبي العمادية وارتفاعه ٧٢٠٠ قدم وتبدأ سلسلته من المنطقة الواقعة بين منبع نهري الكومل والخابور •

(١١) جبل مقلوب يقع في الشمال الشرقي من الموصل غربي نهر الخازر ويبلغ ارتفاعه نحو ٢١٥٠ قدما •

(١٢) انجيل يوحنا أو يونان أحد الاناجيل الاربعة التي تضمنت تعاليم السـيد

المسيح (ع) كما سمعها الحواريون الذين كان يتحدث اليهم • والاناجيـل الثلاثة الاخرى هي مرقص ، ومتى ، ولوقا •

(١٣) القديس سطيفان من أشـهر الشخصيات في أورشليم كان واسع الافق بثقافته اليونانية ومن الممهدين للمسيحية وقد اعتقل واحضر مخفورا أمام الامبراطور هدريان الذي حكم عليـه بالاعدام ونفذ فيه الحكم في الحال •

(١٤) يقصد به النبي موسى Moses عليه السلام •

(١٥) الزبور مجموعة الاوراق التي تضمنت الاحكام والآيات التي نزلت عـلى النبي داود عليه السلام •

(١٦) نكوتن Newton يقصد به الاب اسحاق نيوتن مؤلف كتاب «النبوءات» •

(١٧) مكدونالد كنير J. M. Kinneir رحالة ومؤلف كتب زار العراق سـنة ١٨١٠ وبقى فيها الى سنة ١٨١٢ وله كتاب مذكرات جغرافية عن ايـران مطبوع في لندن سنة ١٨١٣ وكتاب آخر تضمن رحلته الى العراق وعنوانه « معلومات جغرافية عن البلاد الواقعة بين الفرات والهند » •

(١٨) يقصد المؤلف بهذه المدة مكوث النبي يونس في بطن الحوت حسبما ذكر ذلك في التوراة والقرآن الكريم •

(٢٠) مدينة نو No هو الاسم المصري الفرعوني لمدينة طية عاصمة مصر العليا وعندما انشأ فيها أمون المعابد سميت باسم نو آمون أو ني أمون وكنت نواتها تقع عند معابد الكرنك •

(١٩) ناحوم من أنبياء اليهود •

(٢١) بوت Put ولوبيم Lubim بوت هي في الاصل بونت وبوني ويقصد بها البلاد التي يطلق عليها الآن اسم الصومال • أما لوبيم فهي تعني بلاد النوبـة والسـودان •

(٢٢) الرحالة الحبشى بروس يقصد به جمس بروس الرحالة البريطاني الشهير

الذي اكتشف منابع نهر النيل ولد سنة ١٨٣٠ في اسكتلندا ودرس في مدارسها وتزوج من فتاة كان أبوها يتجر بالنبيذ ولما توفي تولى بروس العمل في مكانه لكنه فجع بوفاة زوجته بعد تسعة أشهر فسئم العمل والحياة ورحل الى أسبانيا والبرتغال واذ زار مكتبة الاسكوريال في مدريد استهوته اللغة العربية فاقبل على تعلمها وقد عرضت عليه وظيفة قنصل في الجزائر فقبل بها بالاضافة الى مهمة التنقيب عن الآثار هناك وانتقل من الجزائر الى بنغازي ثم قرر القيام برحلة بحرية الى سوريا ولكن السفينة التي ركبها تحطمت فظل يصارع الموج أياما حتى وصل شاطيء بنغازي ومن طرابلس انتقل الى غوندار ، عاصمة الحبشة آنذاك ومن الحبشة قام باكتشافاته العلمية الباهرة لمنابع نهر النيل ورغم أهمية هذا العمل الذي قام به بروس فلم يحظ بأية مكافأة من الحكومة البريطانية بعد أن عاد الى بريطانيا وأمضى بقية عمره في اسكوتلاندا •

(٢٣) طيبة Thebes هو الاسم اليوناني لعاصمة مصر العليا في العهد الفرعوني وكان اسمها المصري القديم ويسى Wesi و ويس Wes وقد وصفها شاعر اليونان هومير بانها المدينة ذات المائة باب ويرجع بناؤها الى الاسرة الثانية عشرة وكانت تكثر فيها المعابد وقد سميت في العهد الاخير باسم نو No وني Ne وكانت تضاف الى الاله امون فتسمى نوامون ونيامون وقد استولى عليها عرب الهكسوس أولا ثم استولى عليها الآشوريون في القرن السابع ق•م• وخربوها •

(٢٤) بلسيوم مدينة فرعونية كانت تقع الى الجنوب من مدينة طيبة •

(٢٥) شلالات فيليه Philoe من الشلالات في نهر النيل وتقع على مقربة من الاقصر •

(٢٦) اسم هكتامبيلون Hecatompylon اسم يوناني لاحدى مدن مصر السفلى في عهد الفراعنة •

(٢٧) ديوسبيولس Diospolis هو الاسم اليوناني لمدينة هرمز دار ارشير الايرانية القديمة والتي تعرف الآن باسم خرمشهر أو الاهواز •

(٢٨) سيين Syene يقصد بها مدينة اسوان الحالية في مصر وهو اسمها الفرعوني •

(٢٩) كوبتوس Coptus مدينة كانت تقع على الجبهة الشرقية من النيل على بعد ٢٥ ميلا شمالي شرقي طيبة وكانت مركزا تجاريا هاما وقد ازدهرت بسبب مرور تجارة الهند والجزيرة العربية بها وكانت تتفرع منها عدة طرق الى البحر الاحمر وتدعى اليوم باسم « كفت » •

(٣٠) وقع المؤلف في خطأ هنا فذكر اسم الزاب الصغير بدلا من الزاب الكبير •

(٣١) صموئيل بوكارت Bochart ، ١٥٩٩ – ١٦٦٧ ، باحث ومؤرخ فرنسي ولد في روان وعمل راعيا للكنيسة البروتستنتية فيها عدة سنوات عكف على البحوث فنشر أول جزئين من كتابه الجغرافي الشهير في سنة ١٦٤٦ ووضع مؤلفا عن الكتابات القديمة نشر في لندن سنة ١٦٦٣ استدعته كريستينا ملكة السويد الى استوكهولم لدراسة المخطوطات العربية التي كانت تحتفظ بها سنة ١٦٥٢ كان بوكارت ملما بعدة لغات شرقية قديمة منها العربية والسريانية والكلدانية والعبرية •

(٣٢) السر هنري سبلمان S. H. Spelman (١٥٦٥ – ١٦٤١) من كبار علماء الآثار الاوائل في بريطانيا ولد في نورفولك وتعلم في مدرسة والسنغهام وفي كلية ترنتي بجامعة كمبرج • انضم الى جمعية الآثار البريطانية فجدد نشاطها ووضع دراسة مفصلة عن أسس القانون الانكليزي وكتابا موسعا عن تأريخ الكنيسة الانكليزية وله كتاب ضخم عن حياة كورش الكبير ملك فارس •

(٣٣) مسبيلا Mtspila هو الاسم القديم لمدينة الموصل ومنه يظهر ان كلمة موصل ، لم تكن من ابتداع العرب الذين افتتحوها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) وانما أخذ هذا الاسم من اسمها القديم مسبيلا •

(٣٤) ليونكلافيوس Leunclavius

(٣٥) هجنســون Hutchinson

(٣٦) معبد اراسكه Araske هو المعبد الذي بناه سرجون ملك آشــور في عاصمته الجديدة دور شروكين (خرسباد) التي تقع على بعد سنة وخمسين كيلومترا شمالي شرقي نينوى وكان هذا المعبد هو مقر الاله بعل كبير آلهة آشــور •

(٣٧) وقع المؤلف هنا في خطأ ذلك لان الذي قتل في معبد اراسكة هو ســرجون وليس سنحاريب أما سنحاريب فهو ابن الملك سرجون وقد عاد الى نينوى واتخذها عاصمة له من جديد وجدد أبنيتها وقصورها وجلب لها الماء من نهر الكومل في قناة مبلطة طولها خمسين ميلا •

وقد أخمد سنحاريب الثورات التي قمت ضد آشور ومنها كليكيا وبابـل التي دمرها عن آخرها وأجرى الماء فوق أنقاضها كما أعاد افتتاح ســوريا وفلسطين والمستعمرات الاغريقية في آسيا الصغرى •

(٣٧-١) بلسيوم Plesium من مدن الفراعنة وكانت تقع الى الجنوب من مدينة طيبــة •

(٣٨) اورشليم Jerusalem هو الاسم القديم لمدينة القدس عاصمة فلســطين وكانت مركز الديانة اليهودية في أول الامر ثم أصبحت مقر الديانة المسيحية بعد ظهور السيد المسيح فيها •

(٣٩) معبد بريابوس Priapus من أشهر معابد الفراعنة في مدينة طيبة عاصمة مصر العليا •

(٤٠) معبد بيلوس Belus يقصد به معبد الاله بعل كبير الهة آشور وكان مقره في نينوى وليس في بابل كما ظن المؤلف ذلك •

(٤١) اخطأ المؤلف اذ اعتبر الحروف المسمارية التي شاعت في العراق القــديم

من الحروف الهيروغليفية التي ابتدعها قدماء المصريين ذلك لان المسمارية تختلف اختلافا واسعا عن الهيروغليفية •

(٤٢) « كنوز الشرق » موسوعة أثرية كان يصدرها المجمع العلمي في فينا عاصمة النمسا باللغة الفرنسية •

(٤٣) هيرودت Herodotus المؤرخ اليوناني الشهير ولد سنة ٤٤٨ ق•م• في مدينة هاليكارن سوس في آسيا الصغرى وقد قام بجولة استطلاعية في مصر وبلاد الرافدين وسوريا وآسية الصغرى وعلى أثر رجوعه من جولته دون تأريخه الشهير عما شاهده في البلاد التي زارها وما سمعه عنها وقد اتخذ من تأريخه أداة للدعوة الى تحقيق وحدة اليونانيين وفي سنة ٤٣٨ ق•م• رحل هيرودوت الى أثينا ليتلو تأريخه على المواطنين في عهد بركلس الحكيم الذي أعاد بناء أثينا وكان هيرودوت هو الذي أطلق على العراق اســم ميسوبوتاميا Mesopotamea أي أرض مابين النهرين •

(٤٤) أرابسيس Arabces من ملوك الماذيين وهو الاسم اليوناني لكي اخسار •

(٤٥) كي أخسار Cay Xares ملك الماذيين الذي تحالف مع نيوبولاسر ملك بابل فجهزا جيشا مشتركا هاجما به مدينة نينوى ســنة ٦١٢ ق•م• ودمراها تدميرا كاملا وقضا بذلك على الامبراطورية الآشورية أما اشراك نبوخذ نصر في الحملة على آشور فهو خطأ محض •

(٤٦) نبوخذنصر Nabochodonosor ويسمى بختنصر أيضا من أعظم ملوك بابل افتتح سوريا وفلسطين وسبى سبعين ألفا من اليهود جاء بهم الى بابل وكان هؤلاء اليهود هم سبب نكبة بابل وسقوطها بأيدي الفرس • وكــان نبوخذ نصر قد جدد عمارة بابل ووسعها في فترة حكمه •

(٤٧) ماء كوسا Cosa الاصح ان هذه الكلمة تحريف لنهر الخوصر الــذي كان يمر بمدينة نينوى وكان معروفا بهذا الاسم منذ عهد الآشوريين •

(٤٨) توبيس ويدعى طوبيا Tobias وهو من أنبياء اليهود و(٤٩) ستباس من المؤرخين الاغريق •

(٥٠) بلسيس Belesis ملك بابل ولعله الاسم اليوناني للملك نيوبولاسر وذلك لان الثابت هو أن الماذيين والبابليين قد تحالفوا مرة واحدة ضد آشـــور وخربوها ومن هنا يفهم ان أرباسيس هو كي اخسار ملك الماذيين وبلسيس هو نيوبلاسر ملك بابل •

(٥٢) اوسابيوس Eusebius اسماء عدد من القسس الاغريق والمقصود هنا هو أوسابيوس الذي تولى كهانة مدينة قيصرية في فلسطين وقد عاش في الفترة (٢٦٠ – ٣٤٠ م) وهو من المؤرخين وقد رحل الى مصر وهناك حكم عليه بالسجن ثم أطلق سراحه فعاد الى نفس منصبه في قيصرية ثم تولى كهانة انطاكية سنة ٣٣١ م وكان من أشهر المثقفين في عصره واختير عضوا في مجلس مدينة نيقيا • واشهر كتبه تأريخ الكنيسة المسيحية الذي أكمله سنة ٣٢٠ م• ووضع يوميات عن تأريخ العالم والامم في ذلك الوقت وقد ترجم ســانت جيروم تلك اليوميات الى اللاتينية •

(٥٣) بوشـر Busher

(٥٤) بريدو Prideax مؤلف كتاب « الصلة بين الانجيل القديم والحديث » •

(٥٥) اكباتانا وتسمى اقبطانة أيضا ولها اسم آخر هو اهكتانة وهذه الاسماء كلها تطلق على مدينة « همدان » الايرانية الحالية وكان الآشوريون يسمونها (هجماتانا) •

(٥٦) ممفيس Memphis وسايس Sais وتانيس Tanis كلها مدن مصرية كانت قائمة في العهد الفرعوني •

(٥٧) يقصد بالمرحلة هنا مسافة محدودة من الطريق تعرف باســم « قوناق » باللغة التركية •

(٥٨) (قره‌قوش) القرية الرئيسية للناحية التي تعرف الآن باسم الحمدانيـــة نسبة الى بني حمدان وتبعد قره‌قوش عن الموصل بحوالي ٣٣ كيلومتـــر شرقا ولفظة « قره‌قوش » بالتركية تعني «الطائر الاسود » وهو الطائـــر المعروف باسم « سند وهند » عندنا في بغداد • والاسم القديم لهذه القريـة هو (باخديدا) وهو مأخوذ من الكلمة الآرامية « باخديدا» أو بيت الحدأة وهو الطائر الاسود الذي يكثر وجوده في تلك الانحاء •

(٥٩) الكوثر Kauther والكوزر Kauzer كلاهما تحريف لاسم نهـــر الخـــازر •

(٦٠) قره‌كاوا Kara Kawa يعتقد انه تحريف لكلمة قره‌قوش •

(٦١) هي مدينة أربيل Erbelles ولها أسماء متشابهة كثيرة فهي أربل وأربيلا وهوربيل وأرويل وهارويل ويسميها الاكراد (هاولير) وهو تصحيف لكلمة هارويل • وسماها البابليون والآشوريون باسم « اربا ايلو » أي المدينة ذات الالهة الاربعة أما الفرس القدامى فسموها (اربيرة) وهي اليوم مركز اللواء المعروف باسمها ولا نزال تحتفظ بقلعتها التأريخية الشهيرة والمأهولة حتى الآن •

(٦٢) سماه المؤلف باسم هازر Hazir وهو تحريف ظاهر لكلمة الخازر •

(٦٣) بوماديس Bumadis وبوماد Bumade وبومالوس Bumallus كلهـــا تمثل الاسم اليوناني لنهر الخوصر •

(٦٤) داريوش الثالث Darius الذي يسميه العرب دارا ملك فارس الذي خاض معركة أربيل مع الاسكندر المقدوني سنة ٣٣١ ق•م• وقـد اندحر داريوس في هذه المعركة فهرب من الميدان تاركا كل شيء ناجيـا بنفسه حيث اتجه الى قزوين لكنه ما لبث أن فقد حياته مغتالا بيد (باسوس) حاكم مقاطعة بكتريا •

(٦٥) غوغاميلا Gaugamela هي القرية التي صارت ميدانا لمعركة اربل بين داريوس والاسكندر وتقع على بعد عشرين ميلا عن مدينة أربل • وكثيرا مايطلق المؤرخون على هذه المعركة اسم معركة غوغاميلا بدلا من معركة أربل •

(٦٦) اريان Arrian المؤرخ الروماني الشهير الذي كتب حملة الاسكندر على الشرق ويدعى اريانوس ولد في مدينة بشينا وعاش في القرن الثامن للميلاد وعين حاكما على ولاية كبادوكيا في عهد الامبراطور الروماني هدريان •

وضع اريان عدة رسائل عسكرية وتأريخية من أشهرها كتابه عن تأريخ الاسكندر وقداعتمد فيه على ماكتبه بطليموس وارستوبولس

(٦٧) بحث انتقادي لمؤرخي حياة الاسكندر الكبير
Critical Inquiry Into The Historians Of The Life Of Alexander The Great

(٦٨) بحر اليوكسين Euxine يقصد به بحر قزوين الذي يسميه العرب بحر الخزر أيضا ويقع في شمالي ايران داخل الاتحاد السوفياتي •

(٦٩) مدينة كرمان Carmande لا يوجد اسم لمدينة قديمة بهذا الاسم • فاذا كانت حملة زينفون المتراجعة قد عبرت الفرات شرقي بابل فان المقصود بكلمة كرماند هو مدينة كيش (تل الاحيمر) التي كانت تسمى باسم (أنير كدرمه) وهو اسم المعبد القائم فيها وقد تكون كرماند هي مدينة (كوثي) (تل ابراهيم) التي تقع على مقربة من مدينة المسيب الحالية •

(٧٠) نهر اوكسوس Oxus ويسمى أيضا باسم « اموداريا » من الانهار الكبرى في آسيا الوسطى ينبع من بحيرة « سوركول » (فكتوريا) في جبال البامير ويصب في « خمباب » بمنطقة « اندخوي » من الافغان التركستانية وهو يؤلف الحدود بين الافغان والاتحاد السوفياتي •

(٧١) ثربا Therba وزربا Zerba كلها تعني نهر الزاب •

(٧٢) ليكوس Lycus اسم آخر من اسماء نهر الزاب ويقصد به الزاب الكبير •

(٧٣) الشريف الادريسي من أشهر علماء الجغرافية عند العرب والاسلام ولد في مدينة سبتة بالاندلس سنة ١١٠٠ م وتثقف فيها ثم طاف بالعالم الاسلامي كله وهبط صقلية ضيفا على ملكها روجر الثاني الذي أكرم وفادته وفي صقلية وضع الشريف الادريسي كتابه الشهير « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » الذي قالت دائرة المعارف الفرنسية عنه انه « أعظم وثيقة جغرافية في القرون الوسطى » • وهذا الكتاب يضم احدى وسبعين خريطة •

وعكف الادريسي بعد ذلك على وضع أول خريطة عالمية صحيحة ولكي تكون خريطته هذه بمنجاة من التلف فقد أمر له روجر بكمية هائلة من الفضة صنع منها كرة صور عليها صور الاقاليم السبعة المعروفة في العالم آنذاك •

ويحتفظ المجمع العلمي العراقي بصورة منقحة من هذه الخريطة وقد توفي الادريسي في صقلية عام ١١٦٦ م •

(٧٤) بليني يقصد به هنا بليني الكبير (٢٣ — ٧٩م) ويسمى بلينوس أيضا مؤرخ وسياسي ومحارب روماني شهير وعالم في النبات اشترك في عدة جيوش حاربت في المانيا واسبانيا وبلاد الغال توفي مختنقا في الرابع والعشرين من آب سنة ٧٩ ميلادية حين ثار بركان فيزوف فغطى بحجمه مدينة « بمبي » الشهيرة في ذلك اليوم • ترك كتابا عن « التأريخ الطبيعي » يقع في اثنين وعشرين جزءا تحدث فيه عن التأريخ والكون والطبيعة والنبات والحيوان وعلم الاجناس والجغرافية والفنون وغيرها •

(٧٥) زربيس Zerbis وهو من اسماء نهر الزاب •

(٧٦) حديثة Hadicé وتسمى « حدثا » أيضا بلدة تقع على ضفة دجلة اليمنى جنوبي الموصل كانت قرية قديمة للنصارى جاء اليها هرثمة بن عرفجة والي الموصل من قبل الخليفة عمر بن الخطاب فمصرها واسكنها قوما من العرب فسميت باسم الحديثة لانها مصرت بعد الموصل وفي مكانها تقوم اليوم ناحية حمام العليل .

(٧٧) هذا خطأ واضح لان مثل هذا الاسم لم يطلق على نهر الزاب ، ولعله تحريف له .

(٧٨) الزيبار مركز قضاء الزيبار في لواء أربيل وهي تقع على الجانب الايسر من الزاب الكبير واليها ينتسب الزيباريون ولا يوجد تأكيد بان كلمة الزيبار مأخوذة من كلمة «الزاب».

(٧٩) الرحالة تيفنو Thevenot

(٨٠) الرحالة تافرنيه رحالة فرنسي اسمه الكامل « جان باتست تافرنيه » (١٦٠٥-١٦٨٩م) كان في مقدمة الرحالين الاوربيين الذين أموا العراق ولد في باريس وترعرع فيها ثم طاف أرجاء أوربا ومن ثم بدأ رحلته في آسيا سنة ١٦٣٦ ثم كرر رحلته عدة مرات خلال عشرين سنة وأثرى عن طريق المتاجرة بالماس والاحجار الكريمة من أشهر مؤلفاته كتابه عن الرحلات الست التي قام بها ويقع في مجلدين طبعا في باريس سنة ١٦٧٦ وترجما الى الانكليزية سنة ١٦٧٨ .

وقد ترجم الاستاذان كوركيس عواد وبشير فرنسيس مايخص العراق من هذه الرحلة وطبعاها في كتاب مستقل بعنوان « العراق في القرن السابع عشر » ببغداد سنة ١٩٤١ .

(٨١) نيقولا الدمشقي Nicolaus Damasccnus مؤرخ وفيلسوف يوناني ظهر في دمشق وكانت له صداقة متينة مع الامبراطورين الرومانيين اوغسطين وهيرود الكبير وكان له تأثير عليهما .

لايزال تأريخ مولد نيقولا ووفاته مجهولين لكنه اشتهر بوضعه تأريخا مفصلا عن الامبراطورية الآشورية . كما ألف كتابا عن حياة الامبراطور اوغسطين ووضع ترجمة لحياته هو . وقد ضاعت معظم مؤلفاته ولم يعثر الا على قطع متناثرة منها .

(٨٤) هركانوس Hercanus لقب غير معروف الاصل لعدد من الاحبار اليهود والمقصود به هنا هو هركانوس الثاني ٧٨ - ٤٠ ق.م. الذي عين كاهنا لليهود في بومبي ثم جرد من هذا المنصب بعد أن قسم الرومان فلسطين سنة ٤٧ ق.م. الى خمس ولايات منفصلة .

(٨٢) انطيوخس Antiochus يقصد به في هذا الموضع انطيوخس السابع ملك سلوقيا في العراق . وقد حكم في الفترة ١٣٧ - ١٢٨ ق.م. وحارب اليهود في فلسطين ويعرف باسم «سيديتيس» Sedets أيضا .

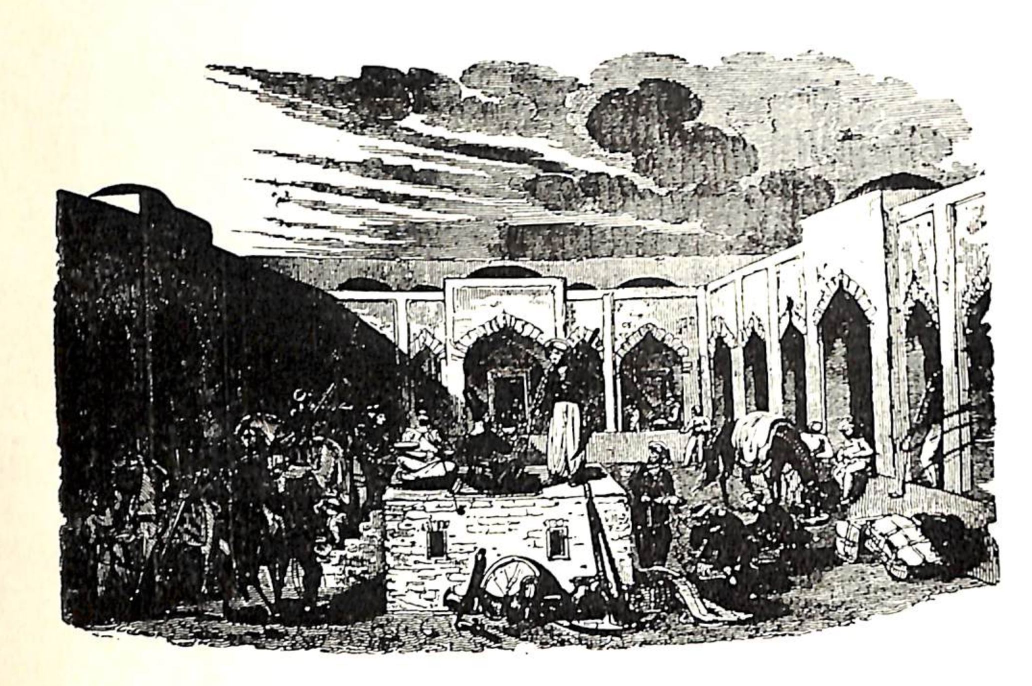
(٨٣) انداتيس Indates قائد الفرثيين الذي انكسر أمام السلوقيين في معركة الزاب التي وقعت سنة ٣٢٩ ق.م .

(٨٥) يقصد بها اسكي كلك وهي قرية صغيرة تقع على الضفة اليمنى من نهر الزاب الكبير ويمر بها الطريق البري من الموصل الى كركوك فبغداد والاسم مؤلف من كلمتين هي « أسكي » وتعني بالتركية « قديم » وكلك وهو الرمث الذي كان يستخدم للنقل في أنهار العراق ولاسيما دجلة .

(٨٦) اخطأ المؤلف هنا حين ذكر ان السكان شمالي الزاب هم من المسيحيين التابعين للكنيسة الاغريقية ، والصحيح انهم من السريان وطقوسهم سريانية.

(٨٧) الكردوشيون Cardochis تسمية أخرى للاكراد .

(٨٨) ذكرها المؤلف باسم «عين كورا Ain Koura » والمقصود به « عين كاوة » .



عين كاوة سنة ١٨١٦ من رسم المؤلف

مقابل صفحة ١٢٤

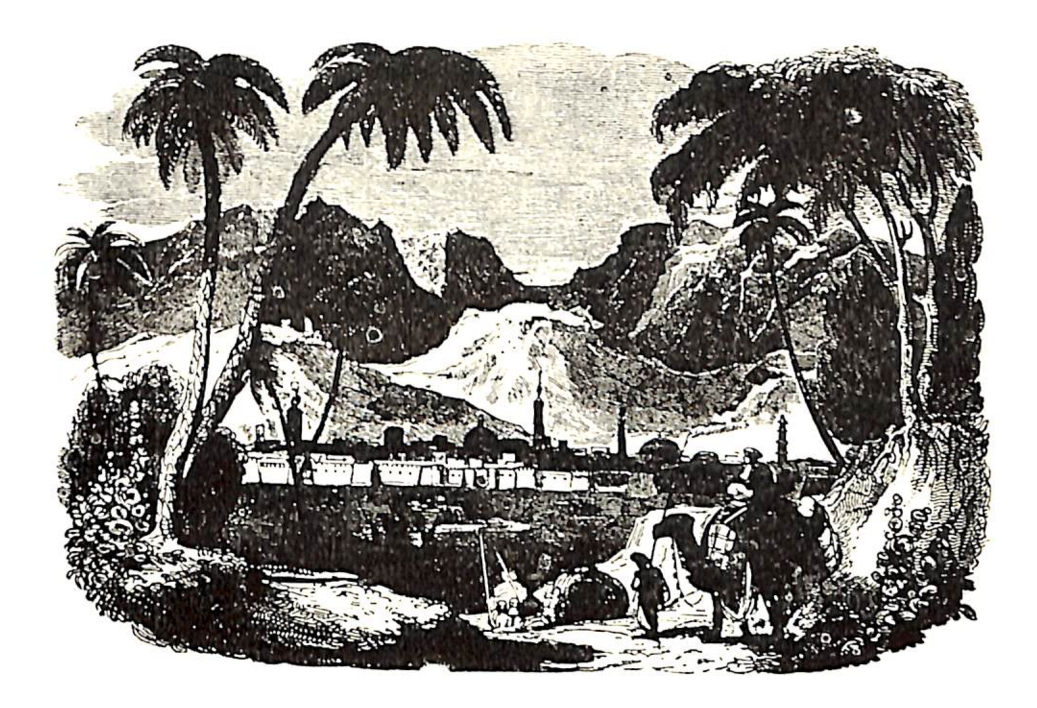
الفصل الخامس

من عين كاوة عبر أربيل القديمة الى كركوك

كانت استراحتنا حلوة لكنها قصيرة ذلك ان هجوعنا انقطع حين دوى صوت يونس الاجش في باحة الدار بعد أن غاب القمر ولم يكن قد مر أكثر من ثلاث ساعات على اضطجاعنا للراحة .

وفي الوقت الذي تم فيه اسراج الخيول الجديدة جلست والسعاة لتناول طعام الفطور المؤلف من الدجاج المشوي والقيمر والعسل والحلويات بينما وقف الى جانب كل واحد منا رجل يحمل قنينة من « العرق » القوي وقدحا ليزونا به حسب مانشــــتهي .

ان من الصعب أن نصف مقدار الرهبة التي يحس بها هؤلاء القرويون ، وكلهم من المسيحيين السريان ، ازاء ساعي بريد تركي ممن كانوا ينتظرونه . لقد كان يقف حوالينا مالا يقل عن أربعين شخصا بعضهم يحمل الصحون المليئة ، وغيرهم يحملون الصحون الفارغة وهناك من يحملون جرار الماء والاوعية المهيأة للغسل بينما كان غيرهم يحملون الصابون وآخرون يحملون المناشف ، أمــا الواطئون منهم فكانوا يعدون أحذية الركاب كيما يلبسونها حين ينهضون عــن



مدينة كفري سنة ١٨١٦ من رسم المؤلف

مقابل صفحة ١٢٥

البساط ، والواقع انهم جميعا كانوا يبدون متشوقين ، بمختلف الطرق ، الى خدمة اولئك الطغاة المتعالين .

تناول كل من يونس وعلي كميات كبيرة من العرق . ومع ان الاول منهما كان يفخر بتفوقه في هذا المجال كما في المجالات الاخرى ، فانه استطاع في الساعة المبكرة من الصباح أن يفرغ في جوفه قنينتين مترعتين . ولقد كنت نفسي مضطراً الى الشرب حتى سكرت ومع ان الكمية التي تناولتها كانت أقل بكثير مما تناولاه الا انها قد أعجزتني عن السير لكن التركي المتعجرف قد شرفني بأن سمح لي أن أشرب في حضرته وهذا شرف اذا مارفض عد من أقوى ضروب الاهانة . وما أن نزلنا الى ساحة الدار حتى بدأت تأثيرات تلك الاشربة المسرة تظهر فينا بصفة جلية .

لم يرض يونس عن الحصان الذي أسرج له وأصر بأنه كان من اسوأ الانواع رغم خلقته الجميلة وانه كن يعادل ثلاثة من جوالني . ولم يتأخر علي عن رفيقه في هذا . فهو بعد أن أوسق جميع الخيول التي تحمل المتاع مجددا ، أبدل حصانه ثلاث مرات بالتتابع وهو يلعنها كلها ويصفها بأنها من اسوأ الحيوانات التي جمعها الله معا منذ أن سميت المخلوقات الوحشية من قبل آدم لاول مرة . ولقد تحمل السريانيون المساكين هذه المضايقات بكثير من الصبر تطبيقا للمثل القائل « من ضربك على خدك الايمن فأدر له خدك الايسر » . ذلك أن النقص في مقاومة هذه المعاملة يضاعف من غضب السعاة وحنقهم ، ويجعلهم يستنتجون من هذا أن عدوانهم لايعتبر من قبيل المضايقة للآخرين ولذلك سرعان مارفعوا أسواطهم بأيديهم وغمغم أحدهم قائلا «ماذا ؟ انك لم تغضب بعد اذن ووالله لنجعلنك تسخط» ثم ألقى بنفسه على أحد القوم في اندفاعه المخبول واكتفى علي باستعمال السوط وحده وهو يقول « لما كان هؤلاء كلهم ثيران وبغال وحمير وحيوانات وحشية فان هذه هي العقوبة الوحيدة التي تناسبهم » . أما يونس فبعد أن تلقى الاهانة من شاب حدث بصق في وجهه وجرى مسرعا دون أن يستطيع أحد اللحاق به ، فقد سحب سيفه المحدب وهجم به على من كانوا قريبين منه ففروا من أمامه في كل ناحية . وأخيرا وفي حمى الفشل القى سيفه بكل قوته بين ثلاثة أو أربعة

رجال كانوا على مقربة منه فتحطم مقبضه العاجي بفعل السقطة الى عشرين قطعة • وكان أسفه هو أن النصل لم يغمد في أفئدة البعض منهم بدلا من أن يسقط مثل هذا السلاح بلا فائدة على الارض •

ولم يجرأ أحد من الناس بعد هذا التصرف على الاقتراب منا ولو ان هناك ما لا يقل عن مئة من أهل القرية وقفوا على بعد ينظرون الى ذينك التركين الهائجين وكانوا يفرون لاقل بادرة تبدر لتعقبهم ، واذ ذاك اضطررنا الى أن نحل اسراج خيولنا ثم نمتطيها ونترك أصحاب الخيول التي تحمل المتاع يتعقبوننا بعد أن تزول مخاوفهم •

لم يكن النهار قد طلع حين غادرنا قرية عين كاوة واتجهنا نحو الجنوب والجنوب الشرقي فسرنا في أرض تغطيها بعض الزروع مسافة أربعة أميال حين وصلنا عند بزوغ الشمس الى مدينة «أرويل» أو أربيل كما يلفظها سكانها بكلتا الطريقتين • كانت هذه أكبر مدينة شهدناها منذ غادرنا الموصل • وقد ذكر لنا أن عدد نفوسها يتجاوز العشرة آلاف وقد يكون نصف هذا العدد هو الصحيح • وأكثرية السكان من المسلمين • ولقد رأينا هنا مسجدين كبيرين لهما مآذن • وكانت الاسواق والشوارع حتى في مثل هذه الساعة المبكرة من النهار ملء بالناس• وهذه الاسواق لها سقوف من أغصان الاشجار تقوم على أعمدة كما رأينا فيها عددا كبيرا من المنازل الحسنة المشيدة باللبن ، وكثيرين من ذوي الملبس الجيد *

والمنظر الرئيسي في هذه القرية هو وجود القلعة الكبيرة فيها والتي تقع على على ربوة في الوسط وتبدو من بعيد أشبه بقلعتي ميسا[(١)] وحلب في سوريا

* ننقل فيما يلى هذه الالحوظة الموجزة التى ذكرها « راوولف » عن هذا المكان « فى آخر يوم من كانون الاول واصلنا سفرنا فاجتزنا حقولا حسنة الزرع حتى وصلنا ليلا مدينة « هاربيل Harbil » وهى مدينة كبيرة قليلا لكن ابنيتها تافهة وبائسة تحيط بها اسوار يمكن الاستيلاء عليها بدون اية قوة أو خسارة كبيرتين • ولقد اقمنا هناك فى اليوم التالى وكان هو يوم السبت وفى ذات اليوم بدأ عيد السنة الجديدة »

راوولف : ص ١٦٤ Rauwolff. P. 164 .

وهي توازي كلا منهما في الضخامة • والتل الذي تقوم عليه القلعة مربع الشكل يرتفع على سفح منحدر وهو وان كان واسعا الا أنه بلاشك من صنع البشر أو أن سطحه الخارجي على الاقل ، قد رصفت بالحجر ولو ان القاعدة الداخلية من البناء قد تكون تلا طبيعيا وفي داخل أسوار القلعة المبنية بالآجر يوجد الكثير من منازل السكن ولو أن الجزء الاعظم من المدينة ينتشر حول القلعة •

وتتفق شهادات جميع الجغرافين المحدثين على القول بأن هذا الموقع هو « أربيلا » القديمة التي تراجع فيها داريوس بعد موقعة «غوغاميلا» فهرب في جنح الظلام أمام جيوش الاسكندر* ولم يمكث هنا بل أسرع نحو ميديا ليجند قواه في حين راح الفاتح المقدوني يتعقب انتصاراته حتى بلغ في الحال مدينة أربيلا • وقد استسلمت المدينة له استسلاما تاما وقدمت له غنائم طائلة تتألف من مهمات داريوس وأثاثه وأربعة آلاف وزنة من النقود ، وكل ثروات الجيش التي خلفها وراءه عند فراره •

ويلاحظ دانفيل انه وان كان من المعتاد اطلاق اسم أربيلا على الموقعة التي افقدت الفرس امبراطوريتهم في آسيا وسلمتها الى الاغريق ، الا أن كلا من سترابو ، واريان ، وبلوتارك (٤) قد اعتبروها مكانا لاشأن له •

فهذا سترابو يقول «لقد قصد داريوس بن هستاسبيس (٥) هذا المكان في

* « وقعت هذه المعركة فى شهر تشرين الاول وفى ذات الوقت من السنة التي وقعت فيها معركة ايسوس (٣) اقبل سنتين وكان المكان الذي وقعت فيه المعركة يدعى غوغاميلا فى آشور • لكنها كانت قرية صغيرة لا شأن لها ولذلك فانهم لا يعتبرونها موقعة شهيرة لو سميت باسم ذلك المكان التافه وانما دعوها معركة اربيلا لانها كانت المدينة الشهيرة التالية للمكان وان كانت على بعد زهاء اثنى عشر ميلا من الميدان الذى وقعت المعركة فيه •

[بريدو : الصلة بين الانجيل القديم والجديد ص ٧١٤ ، ٧١٥]

الواقع لكي يحفظ فيه الجمل الذي كان يحمل متاعه الشخصي في حملته ضد السكيثيين (٦) »*

ووضع بعض الجغرافيين القدامى مدينة أربيل هذه على نهر ليكوس ولكن المدينة كما رأيناها كانت تبعد زهاء ثلاثين ميلا الى الجنوب الشرقي من ذلك النهر على فرض انه هو نفس نهر زابانوس أو زربا الذي مرت الاشارة عنه •

ويبدو أن دانفيل لم تتهيأ له الوسائل الكاملة التي ترشده الى أن يسلك ذات الطريق الذي سلكه الاسكندر ، وان كان فيما قاله يلوم «بطليموس» ويقتبس مما كتبه «اريان» الذي يضع أربيل على نهر «كابروس»(٧) أو الزاب الصغير ،، وذلك أمر بعيد عن الحقيقة تماما اذ لايوجد نهر قريب فعلا من هذه المدينة حتى يقال عنها انها تقع على النهر •

وبالنظر لما لاحظه هذا الجغرافي فان أربيل كانت على الدوام تعتبر موقعا صغيرا • وقد تكون في الاصل مدينة ليست بذات أهمية • غير ان سترابو يقول ان الاسكندر قد أكمل زخرفة أربيل وزينها بمناسبة انتصاره هناك ، وان الجبل أو التل المجاور لها (من المؤكد انه التل الذي تقوم عليه القلعة في الوقت الحاضر) كان يدعى «نيكاتوريوس»(٨) كيما يشير الى ذات الموقعة ** •

---

* « ولو ان اسم اربيل Arbelles [اربيلا باسم الجمع] يطلق على الموقعة الشهيرة التى اضاع فيها الفرس امبراطوريتهم الاسيوية وسلموها الى الاغريق الا ان مكان الموقعة صغير جدا كما ذكر ذلك سترابو واريان وبلوتارك• ويتحدث سترابو عن هذا الموضوع فيقول ان داريوس بن هستاسبيس كان قد قصد هذا المكان ليحفظ فيه أحد الجمال وكان يحمل امتعته الشخصية في حملته ضد السكيثيين » •

دانفيل : عن الفرات ودجلة ص ٨٨

أنظر ما اقتبسه ليمبرييه Lymprier عن هذا الموضع •

** لا يقتصر التناقض في الاقوال على المؤرخين المختلفين حسب بل ان التناقض يبدو ظاهرا لدى كل مؤرخ فى بعض اقوالهم عن الموقع الذى حدثت فيه معركة اربيل واحداثها • وهذه كلها تحتاج الى التحليل والمقارنة •

فالمؤرخ اريان • فى تأريخه عن حملة الاسكندر يقول ان جيش داريوس كان يتألف من أربعين ألف فارس ، ومليون من المشاة ، ومائتى مركبة معقوفة » وحوالي خمسة اعشر فيلا جيء بها من أماكن فيما وراء نهر « الاندس » وقد

لم يطل مكوثنا في أربيل أكثر من الوقت اللازم لارواء دوابنا ، وتناول قدح من القهوة في احدى المقاهي على قارعة الطريق في الوقت الذي كنا فيه نمسك بأعنة خيولنا • ولذلك سرعان ما واصلنا رحلتنا قدما •

عسكر داريوس بهذا الجيش في غوغاميلا على ضفاف نهر « بومادوس » على بعد نحو ستمائة فرسخ من أربيل وفي أرض فسيحة منفتحة • ذلك لان الفرس ازالوا كل اعوجاج فى سطح الارض ، ورفعوا كل عقبة تعترض مرور المركبات المسلحة كيما يسهل بذلك دورانها فوق تلك الارض اذ ان بعض اتباع داريوس قد اقنعوه بأن اندحاره في موقعة ايسوس كان يعود ، بصفة رئيسة الى ضيق المكان الذى عسكر فيه • وقد صدق داريوس هذا الادعاء بيسر [اريان حملة الاسكندر الكتاب الثالث الفصل الثالث] •

وفى ملاحظته على هذه الفقرة استطاع (روك) (٩) ، المترجم القدير الذى ترجم كتاب (اريان) ، ان يكشف التناقض فى التقدير الذى قدر به (كورتيوس) عدد القوات الفارسية فى هذه المعركة • فقد قدرها كورتيوس فى أحد المواضع من كتابه بمقدار خمسة وأربعين الف فارس ومائتى الف من المشاة [الكتاب الرابع الفصل الثانى عشر] • لكنه فى موضع آخر يقول ان عدد القوات الفارسية كان اكثر من نصف عدد افراد الجيش الذى قاده داريوس فى كليكيا [الكتاب الرابع الفصل الثالث] وقد قال كورتيوس نفسه ان ذلك الجيش كان يتألف من ستين الف ومائتى فارس وعشرين الف من المشاة بالاضافة الى ثلاثين الف جندي من الجنود المرتزقة •

وقدر (جوستن) (١٠) (فى الفصل الثانى عشر من الكتاب الحادى عشر من مؤلفه) عدد القوات الفارسية بمائة الف فارس واربعمائة واربعة آلاف من المشاة بينما ذكر ديودورس الصقلى [الكتاب السابع عشر الفصل الرابع والثلاثين من مؤلفه] ان عدد القوات الفارسية بلغ مائتى الف فارس وثمانمائة ألف راجل•

اما « بلوتارك » فانه فى كتابه عن حياة الاسكندر يقدر مجموع الجيش الفارسي من خيالة ومشاة بمليون شخص •

ان هذه الارقام تختلف كثيرا • ولكن يمكن الاستنتاج منها ان القوات الفارسية كانت هائلة العدد •

ويتهم مترجم كتاب « اريان » المؤرخ كورتيوس بالتناقض فيما ذكره عن ميدان المعركة وان الفرس قد اكملوا تسويته [الكتاب الرابع الفصل التاسع] ومن ثم يضع كورتيوس (مازيوس) (١١) مع فريق من رجاله على أحد التلال لاستطلاع تحركات العدو [الكتاب الرابع الفصل الثانى عشر] •

فمثل هذا السير السريع الذي لا مجال لتجنبه برفقة السعاة ، لا يساعد على النظر ودقة الملاحظة ، وأودى براحتي وبالاحاسيس التي استحوذت علي وانا

على ان الشيء الواضح هو وجود مثل هذه الروابى قرب أرض المعركة كما يؤكد (اريان) ذلك نفسه .

فحين تقدم الاسكندر من اربيل فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ليكون متهيأ لمهاجمة الفرس عند انبلاج نور الصباح توقف فى نقطة تبعد ستين فرسخا اغريقيا عن معسكر الفرس حيث التحم الجيشان فى المعركة .

ويبدو من المعلومات التى قدمها جواسيس الجيشين عن مواضع كل منهما ، ان ايا من الجيشين لم يكن تحت بصر الآخر ، وذلك بسبب وجود بعض الروابى الصغيرة وسط الارض التى تفصل بين الجيشين .

لكن نفس المؤرخ يضيف الى ما مر قوله « وحين تقدم الاسكندر بجيشه حوالى ثلاثين فرسخا وصل الى تلك الروابى فاصبح يستطيع منها رؤية المعسكر البربرى تماما .

[الكتاب الثالث ، الفصل التاسع]

وعندما تعقب الاسكندر ملك الفرس داريوس الذى انهزم باتجاه «اكبتانا» فى مادي ، عبر نهر (الزاب الكبير) وتوقف عنده لان الوقت كان ليلا ، ولان **جنده وخيله كانت في حاجة الى الراحة .**

واستأنف الاسكندر ورجاله مسيرتهم بعد راحة قصيرة فى منتصف الليل وساروا قدما حتى بلغوا (اربيل) فى اليوم التالى بعد ان تعقبوا الفرس الفارين مسافة ستمائة فرسخ اغريقي [الكتاب الثالث الفصل الخامس عشر] .

ويتضح من هذا ان المعركة قد نشبت على الضفة الغربية من نهر الزاب الكبير لان اربيل تقع الى الشرق منه . ولهذا فان المعركة يجب ان تسمى بمعركة (غوغاميلا) لان هذه كانت اقرب قرية من مسرح القتال ، او ان تسمى بمعركة (بومادوس) وهو اسم النهر الذى عسكرت الجيوش على ضفافه .

وفي النقد المتعسف الذي وجهه « اريان » لبعض المؤرخين أبدى بعض الملاحظات السديدة عن هذا الموضوع حين قال « وبنفس الطريقة اعلن ان آخر **معركة مع داريوس (الذي أخذ يفر الآن من مكان الى آخر حتى قبض عليه « باسوس » (١٢) وذبحه امام الاسكندر عندما وصل هذا الى هناك) كانت قد** وقعت فى أربيل شأنها فى ذلك شأن المعركة السابقة التى وقعت فى ايسوس، بينما وقعت معركة الفرسان الاولى على نهر غرانيكوس (١٣) .

والواقع ان معركة الفرسان الاولى حدثت على ضفاف نهر غرانيكوس فعلا **مثلما حدثت المعركة الاخرى في ايسوس .**

ألقي نظرة سريعة على المناظر الهامة التي لم استطع أن أدقق فيها تماما ولو انني لم أرها ثانية ، لقد كانت أحاسيسي تلك مزيجا من خيبة الامل والاسف ، وهي أشبه بالعقاب المباشر لسيرنا السريع .

* * *

غير ان أربيل تبعد عن ميدان المعركة الاخيرة زهاء ستمائة أو خمسمائة فرسخ اغريقي على الاقل . ذلك ان كلا من بطليموس وارسطو بولوس (١٤) يؤكدان لنا ان مسرح العمليات الحربية الاخيرة مع داريوس كان فى غوغاميلا على نهر بومادوس .

ولما كانت غوغاميلا قرية تافهة ولم يكن اسمها مشهورا ، فان شهرة تلك المعركة ومجدها قد اضفيا على اربيل لانها المدينة الرئيسة فى تلك الانحاء » .

غير ان « اريان » يتساءل « اذا كانت هذه المعركة قد نسبت الى اربيل مع انها قد وقعت على مسافة بعيدة عنها فلماذا لم تنسب معركة « سلاميس » (١٥) **البحرية الى ارخبيل كورنثيا ، وتنسب معركة ارتمسبوس (١٦) التي وقعت في** جزيرة « ايوبيا » (١٧) الى « ايجينا » أو الى « سنيوم » ؟ (١٨) [الكتاب السادس الفصل الثانى] .

والحقيقة ان « كورتيوس » يجب أن يعد من الجغرافيين الذين لا يتصفون بالدقة . فهو فى احد المواضع من مؤلفه [الكتاب الرابع ، الفصل التاسع] يضع اربيل على الجهة الغربية من نهر دجلة وبذلك تصبح هذه المدينة جد بعيدة عن نهر (ليكوس) او (بومادوس) ثم يعود فى ذات الفصل فيضعها على الجهة الشرقية من نهر ليكوس [الكتاب الرابع من الفصل التاسع] .

كما انه يعتبر اربيل قرية لا شأن لها ، ولم تذكر بشيء سوى هذه المعركة التى وقعت بين الاسكندر وداريوس .

وبالاضافة الى شهادة (اريان) المتناقضة فان (سترابو) يقول عن اربيل انها كانت مدينة كبيرة ، وعاصمة الاقليم [الكتاب السادس عشر] .

ويقول كورتيوس ان داريوس هرب من ميدان المعركة القائم فى غوغاميلا طبقا لما اورده اريان وسترابو ، وبلوتارك ، ووصل الى مدينة اربيل فى منتصف الليل [الكتاب الخامس الفصل الاول] .

وما خلا ذلك ، وهو ما يجعل اربيل جد قريبة من مسرح المعركة ، يقول **اريان ان داربوس قد هرب بعد تلك المعركة مباشرة الى مادي عبر جبال أرمينيا** [الكتاب الثالث الفصل السادس عشر] .

حين خرجنا من المدينة متجهين نحو الجنوب شاهدنا مئذنة طويلة جميلة بدت منعزلة وسط الخرائب ولو ان القاشي الاخضر اللون الذي يغطي سطحها الخارجي مايزال ظاهرا في كثير من المواضع فيها ، ويبدو من كبرها وطـــراز زخرفتها انها تعود الى مسجد شهير*

كانت مسيرتنا لا تزال متجهة نحو جنوبي الجنوب الشرقي ، وكان الريف الذي اجتزناه قاحلاً خالياً في معظمه من القرى ٠

كانت مرحلة السير طويلة ، والخيول متعبة ، والشمس محرقة ، والهواء لافحاً والارض مقفرة ولم تهب نسمة ريح واحدة من السماء ولا بانت لنا قطرة ماء في الطريق ٠

وبعد ان أمضينا ست ساعات في السير وقطعنا حوالي خمسين ميلاً على ظهور الخيل ، بلغنا ونحن في غاية التعب والظمأ ، ضفاف نهر « التون صو » أو الماء

ويؤكد ديودورس الصقلي هذا فى مؤلفه [الكتاب الحادي عشر] فيقول « ان داريوس قد اسرع السير الى « اكباتانا » التى كانت عاصمة تلك البلاد ، دون ان يذكر احد انه استولى على اربيل فى طريقه ٠

والواقع ان كورتيوس يذهب الى ابعد من ذلك حين يقول ان الاسكندر قد انسحب من أربيل فى اسرع وقت ممـا كان يعتزم اول الامر ، وذلك بسـبب الروائح الكريهة التى كانت تنبعث من جثث القتلى الذين تركت اشـلاؤهم فى أرض المعركة [الكتاب الخامس ، الفصل الاول] ٠

ولكن لما كانت ارض المعركة تبعد ستمائة فرسخ اغريقي عن أربيل فان عفونة الهواء فيها لهذا السبب امر لا يمكن تصديقه ٠

* تحدث (بلينى) عن حجر فريد يدعى بيلوس عثر عليـه فى هـذا المكان ٠ وكان هـــذا الحجر يدعى (عين بيلوس) وهو أبيض اللون وله ميزة خاصة تجعله يتلألأ كالذهب ٠

وبسبب جماله الفرد عزي هذا الحجر الى « بعـل » اعظم الالهة قدسـية لدى الاشوريين ٠

وهناك حجرتان يسمى (بيلوس) عثر عليه ، طبقا لما اورده ديموكرتيوس (١٩) ، على مقربة من اربيل ، وان حجمه كان بقدر حجم الجوزة ، ولونه وشكله اشبه بالزجاج ٠

[بلينى : التاريخ الطبيعى الكتاب السابع والثلاثون الفصل العاشر]
Pliny : Natural History Book XXX V II Chap. 10.

الذهبي ، والذي بدا لنا في تلك اللحظة انه جدير بهذا الاسم كل الجدارة ٠

دخلنا مدينة « التون كوبري » أو الجسر الذهبي وقد سميت بهذا الاسم نسبة الى قنطرتها الواسعة القائمة فوق نهر «التون صو»(٢٠) ٠

ولم تكن الراحة والاستقرار في نظري مرغوبا فيها بمثل ما كانت عليه هذه المـرة ٠

التقينا خلال الطريق بطائفة من الفرسان العرب الذين بدا عليهم انهم في طريقهم الى احدى الحملات التمهيدية ٠ ولم نلاحظ مضايقة منهم ٠ وقد تبادلنا التحيات والاستفسارات مع اثنين من سعاة البريد القادمين من بغداد وكان يحيط بهما عدد من الفرسان ومن ذات القبيلة التي ينتمي اليها الفرسان العرب الـذين التقينا بهم هنا ، وذلك لحمايتهما مما قد يتعرضان له أثناء الطريق ٠ وكان هذا المشهد مما جعلنا نهنيء أنفسنا بسلامة الوصول الى هنا ، وضاعف من حـلاوة استراحتنا في التون كوبري ٠

وبعد أن انتعشنا بالاغفاء مدة ثلاث أو أربع ساعات اصطحبت معي أحـد الادلاء ورحنا نجوب ، سيرا على الاقدام ، الجزء الاكبر من المدينة بعد أن توفر لي بعض الوقت عندما تقرر أن يكون رحيلنا وقت غروب الشمس ٠

تتألف التون كوبري أو الجسر الذهبي من شطرين ، أو من حيين منفصلين أحدهما عن الآخر ٠ وكل من الشطرين واسع له أسواقه الخاصة به ٠ ويتفرع نهر التون صو الى فرعين يجري كل واحد منهما في شطر من المدينة ٠٠ ولذلك حين يدخل المرء المدينة من احدى النواحي لابد له من عبور أحد الجسرين ثم يغادره ليعبر جسرا آخر مماثلا له ٠ وكلا الجسران مؤلفان من قنطرة واحدة والقنطرتان واسعتان ومنحنيتان ومرتفعتان معا ٠

يقدر مجموع سكان المدينة بشطريها ، حسبما يقول ذلك أهلها ، بحوالي عشرين ألف نسمة لكن الذي لاحظته من سعة المدينة وبناياتها يحملني على الاعتقاد بأن عدد سكانها لايزيد على ستة آلاف نسمة في الغالب ٠

ومعظمهم مسلمون وبنسبة متعادلة من العرب والاتراك ولذلك فان اللغتين العربية والتركية هما الشائعتان فيها وسحنة السكان وبشرتهم التي تطغى عليهـا

صفة أهل الجنوب تشبه بشرة العرب من سكان اليمن أكثر مما تشبه سكان الاجزاء العليا من سوريا • وملابسهم أشبه بملابس أهل الموصل ، ومعظمها يتألف من سراويل زاهية الالوان ومن الحرير ، وان البعض منها كان غريب الشكل بسبب التباين الكبير في زخرفتها •

ولقد لاحظت هنا لاول مرة لحى قصيرة متقنة الترتيب مما اعتاده العرب والفرس الذين يسكنون الاجزاء الواطئة من الفرات وفي أقاليم شوستر(٢١) والارياف الواطئة على الضفة الشرقية من نهر دجلة •

وفرعا التون صو اللذان يجريان عبر المدينة ليسا واسعين ولا عميقين ، ولا سريعين ، مثل نهر الزاب في الشمال • على أن ماءهما حلو المذاق صاف ، ومعدل جريانه في الموسم الحالي يساوي جريان نهر دجلة تماما • ويقال أن هذين الفرعين يتحدان معا في نهاية المدينة مباشرة ويجريان في فرع واحد ليصبا في دجلة • وهما صالحان للملاحة من هناك حتى نقطة التقائهما بذلك النهر جنوبي قرية كلك •

وليس من شك في أن هذا النهر هو الزاب الاصغر الذي ذكره زينفون باسم زابوتوس وسماه بطليموس باسم كابروس* وان اسمه الاخير المناقض لاسم

* يبدو ان هذا هو ذات النهير الذي عبره راوولف وهو في طريقه من بغداد الى الموصل والذى كان يتجمع فى طريقه من مسافات بعيدة وقد اطلق عليه هذا الاسم فى الفقرة التالية « وبعد ان اشتركنا معه ذهبنا من هناك فى الخامس من كانون الثاني في عدو جميل جدا لان التاجر وحده كان يملك حوالي خمسين جملا وحمارا محملة ليوصلها الى « قره آمد » (٢٢) لانه يسكن هناك ومن ثم يرسلها الى حلب حيث اشتراها تجارنا لغرض ارسالها الى بلادنا • ولذلك واصلنا سيرنا سريعا طيلة النهار ونصف الليل دون ان نأكل أو نشرب ثم أخذنا نستريح عند منتصف الليل •

وبعد ان امضينا الجزء الباقي من الليل لاراحة دوابنا وانفسنا وتناول شيء من الاكل والشراب ، نهضنا ثانية قبل ان يطلع النهار لمواصلة مسيرتنا • وبعد ان قطعنا مسافة طيبة وسط وديان مثمرة مبهجة ، وصلنا قبل الاوان الى نهر آخر دعاه بطليموس باسم كابروس ، وهو وان لم يكن واسعا جدا غير انه عميق الغور كثيرا ، وقد بذلنا جهدا كبيرا فى عبوره مما جعلنى اعانى نقصا كبيرا فى النباتات التى كنت احملها معى واضعها امامى على ظهر الجواد الذى كنت أركبه » [راوولف ص ١٦٥]
Rauwolff. P. 165.

ليكوس والذي أطلق على النهر السابق بسبب شدة جريان مياهه ، قصد من استعماله – حسبما يقوله دانفيل – تبيان ان ذلك النهر كان أقل سرعة في مجراه*

واذا ما أطلقنا هذا الاسم على الزاب الاصغر و « زربا » على الزاب الاكبر ، طبقا لما أورده هذا المؤلف ، فان مدينة أربيل وقلعتها انما تقعان بين هذين النهرين وفي الموضع الذي حدده بطليموس تماما •

ولقد أدانه الجغرافي الفرنسى بالخطأ بسبب ذلك ، بينما وقع نفسه في خطأ أعظم حين حاول أن يصحح الموضع الذي حدده لهما هذا المؤرخ• فبعض الاغريق، كما رأينا ، وضعوا المدينة على نهر ليكوس أو الزاب الاكبر بينما وضعها دانفيل على نهر كابروس أو الزاب الاصغر ، في حين انها تبعد عنهما كثيرا + وعلى هذا فان بطليموس لم يكن أكثر صوابا من اولئك حين وضع أربيل بين الزابين• وليس من المستحيل أن يكون هذا الفرعان لآلتون صو يمثلان الزابين اللذين تحدث عنهما الادريس الجغرافي العربي ، واللذين انكر الناقد الفرنسى انفصالهما واتحادهما

* يسمى بطليموس الزاب الاصغر بنهر كابروس وهو يعتبره اقل سرعة فى جريانه من الزاب الكبير الذى يسمى باللغة التركية التون صو اى نهر الذهب [دانفيل : الفرات ودجلة ص ٨٩ ، ٩٠]
D'anville : Sure & T. P. 89'90.

\+ « يصب الزاب الصغير في دجلة عند «لين» أو « آسن » (٢٣) ويصب الزاب الكبير عند «حديثة» (٢٤) او على بعد ستة وثلاثين ميلا الى الشمال وهما نهران كبيران وكلاهما يعادلان نصف نهر دجلة ويكتبان باسماء مختلفة ، زابا ، انزابا أو ديافا وأديافا (٢٥) وكلتاهما من الكلمة (ديب) الكلدانية وكلة (زيب) (زاب) العبرية التي تعني الذئب (٢٦) ولذلك فان كلمة لوكوس و « ليوكوس » التى استعملها بطليموس – كما ذكر شولتر (٢٧) في كتابه فهرس الجغرافيا – انما تعني « الزاب المجنون » ولقد كان من المستحسن لو انه اعطانا اشتقاقا حسنا من كلمة كابروس • فالذئب والخنزير الوحشي والنمر ، كلها مرادفات صحيحة • [فنسنت : تجارة الاقدمين الخلاف حول موقع اوفيس] [المجلد الاول حاشية الصفحة ٥٣٤] •

Schulter's Vita Saladini Index Geographi

Vincent : Cimmerce of the Ancients : Disson the Sits of Opis vol. 1 P. 534 Note.

بالشكل الذي وصفه الادريسي ، وذلك لان الوصف الذي أطلقه ينطبق تمام الانطباق على هذا النهر وعلى ماء الخوصر •

وحين عدنا الى منزل « الاغا » الذي يأوي اليه السعاة والواقع في الحي الجنوبي من المدينة ، وجدنا الطعام الفخم قد اعد لنا فتناولناه سوية في غرفة مكشوفة ونحن نتطلع الى النهر من على ارتفاع خمسين أو ستين قدما ، وقد امتد المنظر أمامنا الى الناحية الشرقية ، الى جبال كردستان العالية التي غطت الثلوج قممها تماما • كان الافق الذي انفتح أمامنا من نافذة الغرفة التي كنا نجلس فيها ، واسعا ومبهجا ، وهو يحتضن عددا متباينا من المرئيات وعلى امتداد البصر • ومع ان أشعة الشمس الغاربة أخذت الآن تلتمع فوق قمم تلك التلال الواقعة في الناحية الشرقية فاننا كنا نعاني في ذلك المكان الواطيء جوا خانقا مقبضا • ورغم الكميات الوفيرة من الثلج التي وضعت في أوعية «الشربت» قد هيئت على مائدتنا ، وخرير الماء المنحدر من تحتنا ، ومنظر قمم الجبال المكللة بالثلوج البادية من بعيد ، فاننا كنا نقتنص كل نسمة هواء بالمراوح والوسائل الاخرى المصطنعة لانعاش أنفسنا في ذلك اليوم اللاهب •

وبسبب تفاقم حرارة الجو وما ذكر عن وقوع غارات على الطرق الجنوبية بامتداد مسيرتنا ، فقد أخذ رئيس المدينة ، وهو نفسه المسؤول عن سلامة مرورنا في اقليمه ، يفكر في ارسالنا بطريق النهر من هناك الى بغداد ، وذلك باستخدام الارمات وقد حظيت هذه الفكرة بقبول حسن من لدن الجميع بل اننا شرعنا نتهيأ لرحلتنا المنعشة هذه في الماء ، ونحلق بآمالنا في الظفر بالراحة ، وزوال النصب بعد المتاعب التي تعرضنا لها في ركوبنا ومن لفح الشمس التي كنا نسير تحتها • غير ان خيبة آمالنا كانت شديدة عندما علمنا بأن اليزيدية يمنعون الملاحة بامتداد ضفتي التون صو وفي الناحية الشرقية من دجلة حيث لايمكن المرور بتلك الطريق في أمان(٢٨) •

والذي علمته ان هؤلاء اليزيدية أشبه باولئك الموجودين في قرية كلك عند

معبر الزاب ، والذين تحدروا من جبال كردستان وأخذوا يعتبرون أنفسهم متميزين عن يزيدية سنجار ولو انهم مثل اولئك يقدسون آله الشر وآله الخير معا •

والذي يراه مؤلف « بحث عن دجلة والفرات » ان العشرة آلاف يوناني الذين تم انسحابهم تحت أمرة زينوفون ، قد عثروا – في الضفة الشرقية من دجلة مابين نينوى وبابل ، وقبل أن يروا مدينة «سويني» أو «سن»(٢٩) التي تقع على الضفة الاخرى والتي تقابل النقطة التي يلتقي فيها الزاب الاصغر بنهر دجلة مباشرة* عثروا على عدد من القرى التي تعود الى أملاك الملكة باريساتيس والدة كورش الصغير ، باريساتيديس باجي ، والتي تضاف اليها أملاك « يزدم دومس » أي « مسكن الآلهة »[٣٠] • Yezdem Damus

ويرى ذات المؤلف انه لايزال بين الاكراد ممن يحتفظون بدين «بارسيس»(٣١) القديم ويعترفون بتقديس اله الشر واله الخير معا ، وان كلمة « يزدم » التي تلفظ باسم الجمع ، قد تعني آلهة الجحيم كما تعني آلهة السماء وتطلق أما على سكان الجحيم أو على سكان السماء •

صحيح ان كلمة «يزدان» تعني الاله بالمفرد ، ولكنها مادامت قد ذكرت هنا بالجمع فليس من الصواب أن يصار الى ترجمة عبارة «يزدم دومس» بمساكن

* ان العشرة آلاف الذين تراجعوا وجدوا على الضفة الشرقية من دجلة وفى نفس الاراضى (من نينوى الى بابل) وقبل ان يشاهدوا القرية التى تقع على الضفة الاخرى والتى تدعى سينى او سين (التى تقابل التقاء الزاب الصغير بدجلة) ، وجدوا قرى تؤلف ممتلكات ملكة الفرس باريساتيس ام كورش الصغير والتى اضيفت اليها املاك « يزدم دومس » أي مسكن الآلهة ، اذ ان عبارة «يزد» التى تطلق على الآله قد استعملت بصيغة الجمع ، يزدم ، مثل بقية اللهجات الكثيرة الاخرى فى الشرق • وتطلق ذات الكلمة على آلهة الجحيم وآلهة السماء وذلك فى الديانات التى تعترف ، مثل (الماجية) (٣٢) بوجود آلهين احدهما للخير والثاني للشر ويسميان « اورمزذ » و « اهريمان » (٣٣) اما الكرد الذين ما زال بعضهم يحتفظ بدين بارسيس القديم فانهم يخافون المسلمين ويعترفون بانهم يرتعدون فرقا من نظرة الجني الشرير •
[دانفيل عن الفرات ودجلة ص ٩٦]

اليزيدية أو عبدة «يزدان» وهو الاسم الخاص بالله في لغتهم ، لاسيما وان هذه العبارة قد أطلقت على عدة قرى داخلة في أملاك ملكة فارس القديمة باريساتيس والدة كورش الصغير •

واذا ما اعترفنا بهذا أمكن تطبيقه على الحالة الصحيحة السابقة للبلاد هنا • ذلك لاننا شاهدنا قرية أولئك اليزيدية الذين تحدروا من أصل كردي وفارسي قديم وهم يحرسون معبر الزاب الكبير وقد تأكد لدينا منهم وجود قرى أخرى مأهولة باليزيدية من أمثالهم ، وهي مجاورة لهم مباشرة ، وتقع بينهم وبين الزاب الصغير*

ففي هذا المكان وعلى ضفاف هذا النهر ذاته ذكر لنا وجود قرى أخرى متناثرة في الاصقاع التي يمر بها نهر الزاب قبل أن يلتقي بنهر دجلة ، وسكان هذه القرى هم من نفس الجماعات التي تعترض الملاحة في الزاب الصغير والتي حالت دون انحدارنا على الارماث في النهر الى بغداد*** •

---

* يتحدث الرحالة الفرنسي « اوتر » عن الزاب الصغير فيقول « عبرنا فى اليوم الخامس والعشرين (نيسان سنة ١٧٣٤) نهر « التون صو » الذي يسميه أبو الفداء بالزاب الصغير مع انه بحد ذاته كبير جدا •

ويقول الجغرافيون الاتراك انه ينبع من ديار بكر ثم يصب فى نهر دجلة فى نقطة تدعى (تنجه يوغزى) (٣٤) حيث توجد المرتفعات والاشجار والغابات التى تختفى فيها الاسود •

ويزعمون ان مدينة « اسوز » (٣٥) تقع فى نقطة التقاء الزاب الصغير بنهر دجلة لكنها لا تتميز باية ميزة خاصة فى الوقت الحاضر •

[اوتر : المجلد الاول ص ١٤٩

Otter Vol 1 P. 149.

*** يتحدث راوولف عن استخدام الارماث للنقل فى وقته فيقول « وصلنا في الثلاثين من هناك فوصلنا حوالي الظهر الى مدينة تسمى « برستا » (٣٥) تتجه بصفة رئيسة نحو النهر الذى تقع عليه وهى محصنة تحصينا حسنا • لكنني لا أعرف ما يطلقه السكان على ذلك النهر • لكنه طبقا لوضعه الراهن لابد ان يكون هو النهر الذى سماه بطليموس باسم (غورغوس) والذى ينحدر الى أسفل فيصب فى نهر دجلة • ففى هذا المكان يصنعون الاطواف • وهى وان لم

وحين كنا ندخن التبغ مساء مع « الاغا » ووجوه المدينة الذين تجمعوا حولنا ليستطلعوا منا أخبار مدينة «الايمان» أو «اسلامبول» وهو الاسم الذي يطلقه (الملالي) من الاتراك والمفتين منهم على القسطنطينية، انتابنا الفزع حين مر بنا حشد من الفرسان العرب كان معظمهم ملثمين تكاد لاترى حتى عيونهم ، ومسلحين بالرماح والسيوف، وقد اجتاز بنا معظمهم من دون أن يجيبوا على الاسئلة التي تطرح عليهم ، أو أن يردوا حتى على السلام الذي ألقي عليهم •

ولم نعرف أول الامر اسم القبيلة التي ينتمي اليها ذلك الحشد ، ولا مقره، ولا الجهة التي كان يقصدها ، الى أن وصل في المؤخرة أحد ابناء شيخ أولئك القوم فترجل في منزل الاغا • ومنه علمنا أن الفرسان هم من قبيلة صديقة كانوا في طريقهم الى الشمال في حملة ضد قبيلة أخرى كانت قد اعتدت على حقوقهم وهي تخيم الآن في الحدود الشرقية لاراضيهم •

ولقد اتفق الجميع في قولهم على أن قطاع الطرق وحدهم هم الذين يفيدون من هذا الشغب ، وانهم موجودون هنا فعلا ، للاغارة على الطرق دون خوف من عقاب ، ولذلك التمس الاغا من ابن الشيخ أن يزوده بحرس من قبيلته الصديقة يضم عشرة رجال وذلك لحمايتنا على امتداد المنطقة التي يعتقد بوجود خطر فيها •

كان ذلك الصبي يملك صلاحية تقديم هؤلاء الرجال وان لم يكن قد تجاوز الرابعة عشرة من عمره بكثير • ولم يكن هنالك من دليل أكثر وضوحا على

تكن كبيرة ولا تحوى الكثير من الاخشاب الا انه تتوفر فيها قرب العجول والمعيز المنفوخة التي توضع تحت الاخشاب • وتستطيع هذه الاطواف ان تحمل فوقها اثقالا كثيرة • كما انها ، بالنظر الى سرعة جريان النهر ، تكون اقل خوفا أو خطرا

وينقل القوم على هذه الاطواف جملة أنواع من السلع ولاسيما الفاكهة ، أي التين ، والزبيب ، والجوز ، واللوز ، والقمح ، والشراب ، والصابون وغيرها حيث ينقل القسم الاكبر من هذه السلع الى الهند •

[راوولف : ص ١٦٣ ، ١٦٤] •

احترام السلطة التي يتمتع بها رؤساء العرب من هذا الالتزام الذي أظهره مالا يقل عن مائة فارس من اولئك القوم بالاوامر التي تصدر اليهم من ذلك الصبي •

وتراه الآن يمتطي صهوة مهر عال ، ويحمل عدة سفر غالية ، ولباسه وسلاحه من أفخم مايستعمله العرب •

ولقد أثارت شخصيته التي ظهر بها المزيد من الاهتمام حين سار وسط أتباعه وهو يوازن رمحه ، ثم يحركه حركات لطيفة عندما يتزن ، ومن ثم يدعو رجاله المجربين بأسمائهم ، ويأمرهم بأن يتبعوه بعد أن ركب مهره*

ويغرم كل العرب في هذا النوع من الفروسية ، واستعمال الاسلحة ببراعة • ويجب الاعتراف بانه حين تكون الخيول من صنف عال ، وتكون عدد الحرب جيدة ، ويحافظ الراكبون على ظهور خيولهم بثبات ، لن تكون هناك سوى استثناءات فيها مهارة الرجل وعزيمته ، والنار التي يطلقها أو جمال الجواد الذي يمتطيه ، باعظم مالها من فوائد •

واذ تم اختيار الحراس العشرة الذين سيرافقوننا ، ترأس القائد الصغير جنده وغادرنا مسرعا ليلحق ببقية القبيلة التي صادفناها في الطريق هذا الصباح •

* * *

تهيأنا للرحيل في الساعة التاسعة • فغادرنا التون كوبري بأن عبرنا الجسر الجنوبي ، وواصلنا سيرنا بنسق تام •

اتجهنا الآن نحو الجنوب الشرقي فوق أرض مستوية بصفة عامة تغطيها بعض البقع المزروعة والقرى القليلة المتناثرة في اتجاهات متباينة وعلى مقربة من

---

* ان هذا قد يذكر القارىء بما كتبه زينوفون ، والوصف الجميل الذي وصف به تصرفات كورش الاكبر والانجازات التى حققها فى شبابه • فقد كان كورش فى سن لا تزيد الا قليلا عن سن ذلك الرئيس العربى ، حينما اشتهر بالفروسية وبالحصافة التي اثارت الاعجاب من لدن ملك مادي •

[أنظر : سيروبديا • الكتاب الاول]

See [Cyropaedia. Book. 1]

الطريق التي كنا نسير فيها • كنا نسير في صمت تام لاينبو منا صوت سوى وقع حوافر الخيول التي كانت تسمع على بعد عدة أميال • ومع اننا كنا نسير هدبا ، وكأننا نجري بدافع واحد ، وكنا نتوقف في الطرق الرديئة لاراحة جيادنا ، فاننا لم نكن نتجاذب فيما بيننا ولو كلمة واحدة • والى أن أطل منتصف الليل علينا لم يصدر منا ولاصوت واحد عكر السكون الذي رافقنا منذ أن بدأنا مسيرتنا لاول مرة •

والواقع ان كل واحد منا كان يبدو منشغلا بالتلفت فيما حواليه من وقوع هجوم مرتقب من الاعداء • ولذلك فلم يكن يفكر في شيء يتجاوز تهيؤه للدفاع عن نفسه •

التاسع من تموز :

وصلنا بعد منتصف الليل مباشرة سلسلة جبال صخرية كانت سفوحها تصعد في بعض الاماكن بصفة عمودية نحو الافق ، بينما كانت ذات شكل متموج في أماكن أخرى غيرها ••

استمرت مسيرتنا بين هذه التلال زهاء ثلاث ساعات وكان سيرنا خلالها بطيئا بسبب رداءة الطريق • حتى اذا اجتزناها بلغنا سهلا واسعا مستويا •

هنا تخلى عنا حراسنا العرب لانهم اعتبرونا قد تخلصنا من كل الاخطار التي ذكرت عن هذا الطريق ، ولذلك ارتدوا الى الشمال للحاق ببقية أفراد قبيلتهم ، بينما واصلنا نحن مسيرتنا فوق السهل نحو الجنوب حتى وصلنا مدينة كركوك بعد أن قطعنا حوالي خمسة وثلاثين ميلا فقد غادرنا التون كوبري متجهين بصفة عامة نحو جنوبي الجنوب الشرقي •

* * *

بعد أن تخففنا من اعباء الليلة السابقة نهضنا من النوم سوية قبل الظهر وقد صحبت معي دليلا من السكان وخرجت كعادتي لاشاهد أكثر ما استطيع مشاهدته من معالم المدينة أثناء فترة توقفنا فيها •

تتألف مدينة كركوك من ثلاثة أقسام متميزة كل قسم منها له مساحة كبيرة*

وفي القسم الرئيسي من هذه الاقسام يقوم تل مرتفع فوق سفح منحدر اشبه بتل اربيل الذي سبق وصفه •

وعلى هذا التل تقوم مدينة محصنة أكثر منها قلعة تضم داخل أسوارها عدداً كبيرا من المنازل ومنائر ثلاثة مساجد ترى اعلى ارتفاعا من بقية المباني الاخرى •

وقد قيل انه لا يسمح لاحد من غير المسلمين ، السكنى في هذا القسم ، وان عدد سكانه يتراوح بين خمسة آلاف وستة آلاف نسمة لكن هذا الرقم مبالغ فيه فعلا •

والقسم الثاني من المدينة ، وان كان متباينا بالنظر الى صنف السكان الذين يقيمون فيه ، ولاهميته كموقع للدفاع ، فانه أوسع وأكثر سكانا من بقية الاقسام •

فهو يمتد في السهل المحيط بالقلعة ـ كما يسمون ذلك التل المرتفع ـ وتوجد فيه الخانات الرئيسية ، والمقاهي ، والاسواق وما سواها ولو انه لا تشاهد فيه سوى منارتي مسجدين حسب لان اهله ليسوا كلهم من المسلمين ، اذ يوجد بينهم خليط من الارمن والنسطوريين والسريان •

ويبلغ سكان هذا القسم حوالي عشرة الاف نسمة وتبدو المقبرة التي تحته بمساحتها الواسعة كأنها قرية متوسطة الحجم •

---

* يتحدث راوولف عن كركوك فيقول « تفرق رفاقي بعد سبت اليهود فواصلنا سفرنا حتى بلغنا في اليوم السادس والعشرين من كان الاول كركوك، وهي مدينة جميلة تقع في سهل خصب جدا • وعلى بعد أربعة اميال منها توجد مدينة أخرى تقوم على مرتفع • وقد ذهبنا اليها ايضا لان رفاقي كانت لهم اشغال في كلتا المدينتين ولذلك امضينا يومين فيهما قبل ان نستعد لمواصلة السفر »•

[راوولف : ص ١٦٢]

اما القسم الثالث فيقع على مسافة نصف ميل من القسمين السابقين • وقد توقفنا في احد منازل هذا القسم لنرقد فيه تخلصا من حرارة النهار المحرقة •

وهذا القسم اصغر الاقسام في المدينة وبيوته متناثرة ولذلك فلا يزيد عدد سكانه عن الف نسمة وبهذا يصبح مجموع سكان كركوك لايزيد عن خمسة عشر الف •

كانت كركوك اول مكان شاهدنا فيه الاشجار منذ غادرنا الموصل • وكانت اشجار النخيل فيه اكثر عددا من غيرها •

ولقد سمعت هنا عن وجود عدد كبير من ينابيع النفط بجوار كركوك ، وعن وجود أرض ينبعث اللهب من باطنها يراه الناس هائلا ولا مثيل له في العالم وهذا يشير الى نعمة الله التي اغدقها على هذه الارض •

وقيل ان ينابيع النفط هذه موجودة في التلال الصخرية التي اجتزناها عند منتصف الليل ونحن في طريقنا من التون كوبري الى هذا المكان ولذلك لم تتهيأ لي فرصة مشاهدتها •

يقول «دانفيل» في تحديد البلاد الواقعة على حدود جلة والفرات بعد أن عبر نهر الزاب وهو يواصل الحديث عن مجراه نحو البحر ـ ان البلد الذي يقع على الضفة اليسرى أو الشرقية منه يدعى «كرم»[٣٦] وهو يعتقد انه بهذا يكون قد اكتشف «كرمايي»[٣٧] اسم البلد الذي يضعه بطايموس في مملكة آشور على مقربة من وسط امتدادها من الشمال الى الجنوب*

ولم استطع بكل التحريات التي قمت بها عن هذا الاسم أن اظفر بما يؤكد

---

* تدعى البلاد التي تقع على الضفة اليسرى او الشرقية « كرم » وهذا الاسم يؤكد اسم كرمايي الذي يضعه بطليموس في آشور قرب وسط امتدادها من الشمال الى الجنوب • وقد ذكر « م• اسماني » (٣٩) ان « گرم» منطقة كانت تابعة للمفريان المقيم بتكريت (٤٠) والذي كان يشار اليه باسم مفريان گرم • وتسمى هذه المطرانية « بيت « سولوخ » (٤١) [سيف سيلوقيا] وقد ذكرت باسم « كارك » و «كارشا » (٤٢) في القصة التي وضعها «اميان» (٤٣) عن مسيرة « جوفيان » •

اطلاقه من تسمية على هذه الارض ، ولو ان الذين استقيت منهم المعلومات قد اخبروني عما كان شائعا عنها ، ولكنهم لايعرفون شيئا عن تأريخها أو جغرافيتها • لكن الشيء المحقق هو أن « كارك » أو « كارشا » التي ذكرها اميانوس مرسيلنوس وسيموكاتوس ، هي «كرك»[٤٦] الحاضرة التي تقع على ضفاف نهر دجلة قريبا من سامراء والى الجنوب منها ، وان «كارشا» القريبة من نينوى والتي تحدث عنها كل من ماسيوس وارتيلوس ، والتي تتميز عن الاولى ، هي مدينة كركوك الحاضرة والتي يظن بصفة عامة انها نفس مدينة «ديمترياس»[٤٧] التي ذكرها «سترابو» ومدينة « كوركورا »[٨٨] التي تحدث عنها بطليموس •

على ان الأقسام الثلاثة التي تتألف منها كبيرة الى درجة تدعو الى الاعتقاد بانها ربما كانت احدى الحواضر في العصور المتأخرة ، وان اسمها قد أطلق في العصور القديمة على المنطقة كلها اذا ما أخذ بالقول انها نفسها كانت مدينة « گوم » التي تحدث عنها اسماني • ذلك لأن كركوك لا تزال تعد أكبر مدينة في السهول الواقعة شرقي دجلة في حين نرى من الناحية الاخرى ان مظهر قلعتها الواقعة على تل مرتفع يحملنا على الاعتقاد بأنها كانت على الدوام مركزا حصينا له من الاهمية والقدرة ما يؤهله لان يكون مقرا عسكريا للرومان أثناء حكمهم هنا •

ومع ذلك فلا يزال الشك قائما في أن تكون كركوك هي موضع المقرات القديمة التي قصدها الجغرافي الفرنسى[٤٩] اذا ماقارنا التفصيلات التي أعطاها عن

= **وتعنى « كارشا » عند « سيموكات » (٤٣ ـ ١) الدروس المفضلة كما انها** فى الوقت ذاته تطلق على مدينة تقع فى بلاد آشور تماما وتكون قريبة من نينوى ، كما ذكر ذلك عنها « ماسيوس » (٤٤) فى كتاب موسى عن الفردوس والذي اشار اليه « اورتيليوس » (٤٥)

[دانفيل : عن الفرات ودجلة ص ٩٥]

ذلك الموضع ومظاهره المحلية مع تلك المظاهر الموجودة بالفعل على مقربة من ذلك الموضع*

ويتحدث «تيبولوس»[٥٠] في مرائيه + عن أرض « أرك » احدى المدن التي أسسها «نمرود»[٥١] على ضفاف دجلة وفي أرض شنعار ، بأنها تنتج ينابيع النفط التي يسميها الشاعر «المياه الملتهبة في أرض ارك» مشيرا بذلك على وجه التأكيد الى ماتمت معرفته عن تلك الينابيع في زمانه ذلك لان جغرافية بابل وآشور كانت شائعة بين الرومان بعد أن دونت التواريخ عن حملة الاسكندر في الشرق

عند عودتي الى المنزل الذي آوى اليه السعاة وجدت جماعة كبيرة من الناس وقد تجمعوا فيه ويبدو انهم كانوا يستمتعون بالتفرج على دب راقص هناك • وكان هذا الدب كبيرا أبيض اللون ، اشعث الشعر ، جاء به أحد الأكراد الذي كان يرقصه ، من الجبال المكللة بالثلوج في بلادهم وعلى بعد مسيرة أربعة ايام منها نحو الشرق •

وقد قيل ان مثل هذه الحيوانات نادرة جدا بين تلك الجبال ، وان السخاء

---

* على مقربة من هذه المدينة توجد بعض الصخور تحوى النفط الذى **يستخرج من آبار متنوعة • ولقد عثرت على مخطوطة رحلة الى المشرق قام بها الاب** « عمانوئيل سانت البير » لزيارة البعثات التبشيرية التابعة له من الكرمليين • **ومنذ ذلك العهد ذكر أحد الاساقفة ان الارض المحيطة بهم كانت تتحرك منها** شرارات قوية • وذكر فى الجغرافية التركية انه حين يحفر فى أرض على اكمة **تدعى « بابا كركر » (٥٢) تنبعث منها نار ذات لهب يمكن وضع اناء عليها** وتسخين الماء حتى يغلي ، وان حرارة هذه النار قد شملت الاراضي المحيطة بها •

[دانفيل : عن الفرات ودجلة ص ١٠٧] •

Lib. IV. Memoires de L'academie des Inscriutions tome XX VII P. 30

مذكرات اكاديمية المخطوطات المجلد ١٧ ص ٣٠ •

+ + ذكر ان النفط كان موجودا فى بابل وانه كان يسيل بشكل قار سائل والعلاقة بينه وبين النار مؤكدة • ولهذا السبب يقول (يليني) ان ميديا (٥٣) احرقت محظية زوجها اذ طلت زنارها بالنفط حتى اذا اقتربت من **المذبح لتقديم النذور لامس زنارها النار فاحترقت •**

[بليني : التأريخ الطبيعي الكتاب الثاني ص ١٠٥]

Pliny : Natural History Book 11 P. 105].

الذي كان المتفرجون يظهرونه لقاء التفرج عليه يؤكد انه تندر مشاهدة مثل هذا الحيوان هنا.*

وقد علمت مما ذكره لي دليلي ومن المعلومات التي استقيتها من الآخرين عن الموضوع ذاته ، انه يوجد في كل قسم من الاقسام الثلاثة التي تتألف مدينة كركوك منها ، عشرة مساجد ، وأربعة وعشرون مقهى وعشرة خانات وحمامان عامان . أما عدد أماكن العبادة للمسيحيين والطوائف الاخرى المختلفة فكان أربعة أو خمسة .

وتخضع المدينة لسلطة باشا بغداد . والمناطق المحيطة بها ذات انتاج واسع تغل له خراجا محترما . وحاكم المدينة من اتباعه المباشرين ويرتبط به عدد من الجند الذين يؤلفون الحرس الخاص لحمايته .

* كانت الحيوانات المتوحشة من كل الاصناف الكبيرة موجودة فى هذه البلاد فى عهد كورش الكبير . فقد كان اقتناصها يعد من وسائل التهذيب والتربية الهامة لامراء فارس ونبلائها [سيروبديا الكتاب الاول
Cyropedia Book 1

شروح وتعليقات المعرب على الفصل الخامس

(١) سبق لنا وأشرنا في الفصل السابق الى اسماء أربيل ومنها هاربيل وارويل وهارويل واربيلا واربيليس وهاولير واربيرة .

(٢) قلعة ميسا Messa وهي التي تعرف الآن باسم ميسلون جنوبي مدينة دمشق .

(٣) معركة ايسوس Issus هي المعركة الاولى التي التقى فيها الاسكندر الكبير مع داريوس الثالث ملك فارس سنة ٣٣٣ ق.م. في خليج أسوس على الساحل السوري من البحر الابيض المتوسط وفي أعالي ميناء الاسكندرونة وعلى هذا الخليج تقع مدينة اسوس ذاتها التي سميت المعركة باسمها وانتهت بهزيمة داريوس وتحقيق الاسكندر اول انتصار له على فارس .

(٤) بلوتارك (فلو طرخس) Plutarch المؤرخ الروماني الشهير ولد في مدينة شيرونيا في عهد حكم الامبراطور كلوديوس سنة ٤٥ أو ٥٠ بعد الميلاد . وقد درس في أثينا على يد الفيلسوف أمونيوس وقام بزيارة مصر . وفي حدود سنة ٩٠ م أرسل الى روما فاقام فيها زمنا طويلا كان يلقي فيها المحاضرات التي أثارت الاهتمام ولا يعرف ما اذا كان قد زار ايطاليا أم لا ثم عاد بلوتارك الى اليونان وعين كاهنا لمعبد أبولو لعدة سنوات وقد تزوج ورزق خمسة أطفال . واشتهر بلوتارك بكتابه الذي أرخ فيه حياة نبلاء روما وأباطرتها كما وضع كتابا خاصا عن حياة الاسكندر الكبير .

(٥) هستاسب هو كبير مستشاري كورش الكبير ملك فارس وكان دارا الاول ابن هستاسب هو الذي تولى الحكم بعد ان قتل قمبيز ابن كورش .

(٦) السكيثيون Scythians ويدعون بالاشقوديين ايضا هم فريق من الشعوب الآرية كانت تقطن جنوبي الروسيا وفي انحاء آسيا الوسطى وكانوا في حروب

دائمة مع الفرس القدامى والاسكيثيون هم اصل الروس الذين يعيشون الآن في روسيا •

(٧) نهر كابروس Carrus هو نهر الزاب الصغير وقد سماه الجغرافي اليوناني الشهير بطليموس باسم كابيوس Capious •

(٨) نيكارتيوس Nicartius واضح ان هذا الاسم قد اطلقه اليونانيون انفسهم على هذا التل وربما ارادوا به الاشارة الى انتصارهم في معركة اربيل اذ ان « نيكاتورس » تعني « النصر » في اليونانية •

(٩) روك Rooke مترجم كتاب اريان عن حملة الاسكندر في الشرق •

(١٠) جوستن Justin واسمه يونيانوس يونستنيوس مؤرخ روماني عاش في عصر الامبراطور انطونيوس • لايعرف شيء عن تاريخ حياته اشتهر بكتابه عن تاريخ الفلسفة وله كتاب آخر كثير الشيوع في القرون الوسطى وعنوانه **Historiarum Philippicarum Libri.**

(١١) مازيوس (مازاي) Mazaeus هو قائد من قواد داريوس في معركة اربيل وقد اسره الاسكندر ثم جعله واليا من قبله على مدينة بابل التي افتتحها بعد ان ربح معركة اربيل وهزم داريوس وقتله •

(١٢) باسوس Basos ملك ارمينيا وهو الذى قبض على داريوس بعد هربه من اربيل وحين وصل الاسكندر الى مقر باسوس قام هذا بذبح داريوس في حضرة الاسكندر نفسه •

(١٣) غرانيكوس Granicus ويسمى غرانيكس هو نهر في آسيا الوسطى يسميه الفرس (بيغاشاي) وعلى سواحله وقعت معركة غرانيكوس سنة ٣٣٤ ق•م بين القوات المقدونية والفارسية وفى هذه المعركة مزقت قوات الاسكندر

الكبير القوات الفارسية وقوات المرتزقة اليونانيين الذين كان يقودهم المؤرخ زينفون والبالغ عددها عشرة آلاف رجل • وعن هذه المعركة وضع زينفون كتابه « تقهقر العشرة آلاف » • وهذه اول معركة ينتصر فيها الاسكندر في حملته على آسيا وخسر الفرس فيها ١٢ الف قتيل وعشرين الف اسير •

(١٤) ارستوبولوس Aristopolus مؤرخ يوناني اشتهر باسم الاسكندوي صحب الاسكندر الكبير في حملاته العسكرية وقد دون تلك الحملات في كتاب كبير وقد اعتمد المؤرخ الروماني « اريان » اعتمادا كبيرا على كتاب ارستوبولوس هذا في تدوين تأريخ الاسكندر • وارستوبولوس من سكان اقليم كاسندريا في اليونان •

(١٥) معركة سلاميس Salamis وقعت هذه المعركة ، وهي من المعارك البحرية الشهيرة فى التأريخ القديم ، سنة ٤٨٠ ق•م• بين الفرس واليونانيين في خليج سلاميس على مقربة من اثينا وقد اطبق اليونانيون على الاسطول الفارسى فدمروه وعندئذ وجد اردشير (اكزركيس) ملك فارس ان جيشه العرمرم قد غدا مهددا بالهلاك لانه أصبح محروما من المؤن فعاد ادراجه منهزما بنصف جيشه الى آسيا بينما ظل النصف الآخر يحارب حتى ابيد في معركة بلاتيا سنة ٤٧٩ ق•م•

(١٦) معركة ارتمسيوس Artemisius هي بداية الالتحام بين الاسطول الفارسى الذى توجه الى اليونان وسكان الجزر الايونية في بحر ايجه وقد وقعت هذه المعركة سنة ٤٩٠ ق•م في المضايق الواقعة بين جزيرتي « ايوبيا » و « اتيكا » •

(١٧) ايوبيا Euoboea وتسمى نغروبونت اكبر جزيرة في الارخبيل اليوناني يبلغ طولها تسعين ميلا من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، وعرضها يتراوح بين ثلاثين واربعة اميال وتمتد فيها سلاسل جبلية • وعلى مقربة منها وقعت المعركة البحرية بين الفرس واليونانيين سنة ٤٨٠ ق•م•

وكان عدد سكانها قبل الحرب العالمية الثانية مائة وخمسة وخمسين الف نسمة وقيل انها كانت من البر اليوناني .

(١٨) ايجينا Egina وتسمى سنيوم Sunium ايضا هي عاصمة جزيرة ايوبيا وهناك رأس سنيوم الذي يقع في أقصى جنوب اتيكا وفيه معبد يوسيدون الذى انشىء في القرن الخامس ق.م. بالاضافة الى حصن من العهد الهيليني .

(١٩) ديموكرتيس Democritus من أعظم فلاسفة اليونان الطبيعيين وهو من مدينة « ابديرا » في اقليم « تيراس » يعتقد انه ولد اما في سنة ٤٧٠ أو ٤٦٠ ق.م. وكان من أوائل مصاحبي سقراط وقد ورث ثروة أعانته على القيام برحلات واسعة في الشرق واقام في مصر سبع سنوات دزس خلالها الرياضيات والطبيعيات وقيل انه توفى في التسعين من عمره وترك وراءه مؤلفات بلغت اثنين وسبعين كتابا .

(٢٠) التون كوبري ومعناها بالتركية قنطرة الذهب وقد بنيت هذه المدينة اثناء حملة السلطان مراد الرابع على بغداد سنة ١٠٤٩هـ .

(٢١) اقليم شوستر ويسمى ششتر وتستر ايضا من الاقاليم الشرقية في ايران .

(٢٢) قره آمد Carahemit او Kara Amid هي آمد القديمة التي سميت بعد الاسلام باسم ديار بني بكر وكانت داخلة ضمن اراضي العراق لكنها الآن من ضمن الاراضى التركية .

(٢٣) لين Len او اسن Assen هي مدينة ريسين الاشورية القديمة التى تقع على مصب نهر الزاب الصغير بدجلة وتسمى عند العرب « السن » كما يسميها الكلدانيون باسم « شنا » .

(٢٤) حديثة Haditha هي المدينة التي تسمى الان باسم حمام العليل جنوبي الموصل وقد مر شرحها في الفصل السابق .

(٢٥) زابا Zaba والزابا An - Zaba وديافا Diava واديافا Adiava وكلها تعطي معنى كلمة « الذئب » .

(٢٦) زيب Zeeb وهو من اسماء الزاب ومأخوذ من ذئب .

(٢٧) شولتر Schulter مؤرخ انكليزي وضع كتابا باللاتينية عنوانه « فهرس الجغرافية » .

(٢٨) لا يوجد ما يؤكد ان اليزيدية في ذلك الوقت كانوا يسكنون على ضفتي نهر التون صو وربما تصور المؤلف ان الاكراد الذين شاهدهم هناك كانوا من اليزيدية .

(٢٩) مدينة سويني Coene هي مدينة السن ذاتها التى مر ذكرها وتسمى (سينى) أيضا .

(٣٠) الملكة باريسا تيدس Parysatidis والدة كورش الصغير ابن داريوس الثاني وكان كورش هذا قد تولى قيادة الجيش الذي أنفذه أبوه الى اليونان واستطاع بتحالفه مع الاسبارطيين ان يهزم اليونانيين .

(٣١) ربما قصد المؤلف بكلمة بارسيس Parsis الفرس لان هذا الاسم اخذ في الاصل من (بارس) وهم الاقوام التي سكنت القسم الجنوبي من ايران فسمى ذلك القسم باسم (فارس) ثم طغى على ايران كلها .

فالمعروف ان الفرس هم اول من قال بوجود آلهين يحكمان العالم احدهما آله الخير والثاني آله الشر .

(٣٢) الديانة الماجية Magism هذا خطأ وقع فيه المؤلف لان ما يقصده هو « المانوية » نسبة الى ماني مؤسس الديانة التي عرفت باسمه والتي كانت تقول بوجود آلهين أحدهما للخير والثاني للشر .

(٣٣) آله الخير لدى الفرس هو ارمزد ويسمى هرمز Harmaz اما آله الشر فهو اهرمان واريمان Arimane وبرسيس يقصد به بلاد فارس •

(٣٤) تنجه بوغازي Tendge Bogazi تعنى بالتركية (مضيق تنجه) والمعروف ان نهر دجلة ينبع من جملة ينابيع تنحدر من الجبال القائمة فى الاراضى التركية واكبر هذه الينابيع هو نهر ديبانة اما تنجة بوغازي فهي النقطة التي يصب عندها نهر التون صو في نهر دجلة وتنجه هي مدينة (طنزة) التي تقع على نهر (بوطان) •

(٣٥) آسور Agour يقصد بها مدينة اشور التي تقع على الضفة اليمنى من دجلة جنوبي الموصل بحوالي ثمانين كيلومترا وكانت تعرف بأسم قلعة « شرغات » ايضا وتقوم على مقربة منها الان ناحية الشرقاط التى اشتقت من كلمة « شرغات » ذاتها •

(٣٦) مدينة بريستا Presta لا توجد مدينة بهذا الاسم فى منطقة الزاب ولعل الرحالة راوولف قد سمع هذا الاسم محرفا فدونه كما سمعه في ذلك الوقت اي سنة ١٥٧٤م وقد تكون هذه المدينة هي « السن » •

(٣٧) ، (٣٨) كرم Karm وكرماي Gramei اسمان يطلقان على المنطقة التي يسميها العرب بأسم « باجرما » التي يحيط بها نهر الزاب الصغير ونهر دجلة وجبل اوروخ ونهر ديالى وكانت قاعدة هذه المنطقة مدينة « كرخ » Kark اي كركوك الحالية • ومن مدن هذه المنطقة دارا على ساحل الزاب الاصغر شمالى كركوك ومن مدنها « كرخ جدان » التي تقع جنوبي كركوك و « غرمي » أيضا مدينة تقع في اطراف تكريت كانت فيها ابرشية للنصارى النسطوريين •

(٣٩) م • اسماني M. Assemani

(٤٠) المفريان منصب ديني عند المسيحيين القدامى وهو المنصب الاعلى ويختص باصحاب مذهب الطبيعة الواحدة من النسطوريين •

وقد دخلت المسيحية الى تكريت من سوريا وسرعان ما أقام المسيحيون لهم فيها ديرا كبيرا هو دير جلتاني وعندما ظهر المذهب النسطوري حاول زعيمه « برصوما » في المشرق ان يضم تكريت الى جانبه سنة ٤٤٩م لكن مسيحي تكريت قاوموه بشدة وما لبث ان ظهر مذهب الطبيعة الواحدة بين السريان الارثوذكس واقبل زعيم هذا المذهب « احودومي » الى تكريت فاتخذها مركزا له • وفى سنة ٦٢٩م عين المطران ماروثا مفريانا لتكريت وكان يخضع له اثنا عشر اسقفا • وقد ظلت تكريت مقرا لمفريان السريان حتى سنة ١٥١٣م وكان مفريان تكريت يشرف على اصحاب الطبيعة الواحدة فى بلاد فارس ايضا •

(٤١) بيت سلوخ Bethsoloc او سيف سلوقيا Sive Seleuci ، وكرخ سلوك ، وكرخ سلوخ كلها اسماء قديمة لمدينة كركوك الحالية وهي مأخوذة من الكلمة الارامية كرخا وبيت سلوق أي مدية سلوقس •

(٤٢) كارك Kark وكارشا Karcha تحريف لكلمة « كرخا » اى كركوك وقد اطلقت على منطقة الكرخ في بغداد والتي كانت تمتد حتى سامراء ولذلك قيل عنها « كرخ سامراء » •

(٤٣) اميان Ammien يقصد به المؤرخ الروماني اميانوس مرسلينوس الذى ولد سنة ٣٣٠م في مدينة انطاكية وعاش فيها وقد وضع في سنة ٣٧٠ تأريخها مسهبا عن اليونان والشرق يقع في اجزاء عديدة وقد شارك مرسيلينوس في جيش الامبراطور الروماني قسطنطين الذى اجتاح العراق وحاصر مدينة الحضر واشتبك مع الجيش الفارسى الذى كان يقوده سابور الثاني في تلك الانحاء وقد وقع مارسيلينوس اسيرا بيد الفرس فى مدينة « اميدا » « ديار بكر » ووضع كتابا خاصا عن هذه المعارك بين الفرس والرومان في سهول العراق وقد فقدت معظم اجزاء تأريخه الكبير ولم تبق منها سوى الاجزاء التي تتحدث عن الفترة ما بين سنة ٣٥٣ وسنة ٣٧٨م •

(٤٣) سيموكات ، تيوفيلاسى Theophlacy Simocatta مؤرخ بيزنطي من أصل مصري تولى منصبا ساميا في اسطنبول أثناء حكم هرقل ٦١٠ - ٦٤٠ م وضع مؤلفا عن حكم الامبراطور موريس يقع في ثمانية اجزاء وصف فيه الحروب التى خاضها ذلك الامبراطور مع الفرس والسلاف وغيرهم • وله كتاب عن التأريخ الطبيعي باسم مشكلات طبيعية •

(٤٤) مارسيوس Masius مؤرخ روماني •

(٤٥) ورتيلوس Aurtelus مؤرخ روماني •

(٤٦) كرخ سامراء يقصد به جانب الكرخ من بغداد وهي ليست كركوك كما يفهم ذلك مما ذكره المؤلف ذلك لان كركوك اقرب الى نينوى منها الى سامراء •

(٤٧) ديمترياس Demetrias لعله الاسم اليوناني لمدينة كركوك اذ لا توجد مدينة سواها بهذا الاسم •

(٤٨) كوركورا Korkora من الاسماء القديمة لمدينة كركوك ومنه اخذ اسم « بابا كركر » الذى اكتشف النفط فيه سنة ١٩٢٧ واصبح مقرا لشركة النفط العراقية في كركوك •

(٤٩) يقصد به الرحالة الفرنسي دانفيل •

(٥٠) هو الشاعر الروماني تيبولوس Tibulus وقيل انه رافق بعض حملات الرومان على العراق •

(٥١) نمرود هو لقب ملك آشور • اما ارك فهي مدينة الوركاء ويظهر ان ما شهده الشاعر الروماني ليس النفط بل هو القار او عيون الكبريت التي شهدتها جنود الاسكندر في الطريق الى اربيل فظنوها نفطا وقد خلط المؤرخون القدامى في مواقع هذه العيون بين آشور وسهل شنعار • ومدينة ارك في الجنوب وان كان البابليون قد عرفوا القار واستعملوه •

(٥٢) ذكرها المؤلف باسم خور كور بابا وهي بابا كركر او كركوك القديمة •

(٥٣) ميديا Medea آلهة اسطورية لدى اليونان القدمى •

الفصل السادس

من كركوك بطريق كفري الى قره‌تبه او التل الاسود

حين تناول السعاة وجبة دسمة ، واستمتعوا زهاء الساعة بتدخين غلايينهم ، تهيأنا ثانية للرحيل ، ولو ان حرارة النهار ، التى كان تجنبها سبب توقفنا طويلا هنا ، بدلا من أن تخف ، أصبحت الان في أعلى درجات ارتفاعها • ولم اتعقب دفاقي في هذا ولذلك اسرجنا خيولنا وامتطيناها ثم غادرنا كركوك في الساعة الثالثة •

كنت مسيرتنا الان نحو الجنوب في ارض قفراء لازرع فيها •• وكان يمتد الى الجنوب الشرقي منا سهل واسع يبدو افقه كالبحر لا حدود له في حين ينتهي البصر في الشرق والجنوب الشرقي عند جبال كردستان •

وعند غروب الشمس ، وقد قطعنا حوالي ثمانية عشر أو عشرين ميلا ، مررنا بعدد من المزارع تنتشر ابراج المراقبة فيها وتقوم مظلة صغيرة على مقربة منها • وقبل منتصف الليل ، وهو الوقت الذى كنا قطعنا فيه عشرة اميال اخرى ، وصلنا قرية « طاووق »[1] ولم نعبر اي نهر في طريقنا ولو ان « الميجر مكدونالد كنير » قد وضع أحد فروع الزاب الاصغر في تلك الارض •

ويبدو هذا المكان كبيرا وذلك وفقا لما رأيناه منه في مثل هذه الساعة من الليل • ولقد شاهدت ثلاثة مساجد ذات مآذن وعددا من البيوت بنيت بآجر قديم • وعند مدخل المدينة يقع ضريح أحد المسلمين وهو بناء فريد جدا[٢] • فقد كانت قاعدته مربعة تقوم عليها قبة ليست من شكل معتاد وانما تبدو اشبه بقمع السكر ، وهي مشيدة من آجر مزخرف مفتوح اكثر شبها بالهرم الذى يتكون من قوالب الصابون التى تركم احيانا في مخازن باعة العطور حيث تستقر نهاياتها على نهايات القوالب الاخرى ، وتتخللها الفتحات المجوفة •

ولقد تمتعنا في هذا المكان بعشاء جيد ، وابدلنا خيولنا باقل من الجلبة والمضايقة منها في اي وقت مضى ثم تزودنا بحرس آخر من الفرسان العرب لمرافقتنا في الطريق ، وغادرنا عند منصف الليل حيث شاهدنا حين خروجنا من المدينة منارة طويلة منعزلة ذات قاعدة مربعة وبرج دائرى شبيه برأس وقاعدة عمود كبير •

العاشر من تموز :

ما ان غادرنا طاووق حتى واصلنا سيرنا نحو الجنوب في ارض صحراوية حصباء غالبا وخالية من التربة المزروعة لكنها لم تكن هشة ولا رملية • ثم جئنا أرضا من الحصى والطين ومررنا تحت انظار بعض القرى الصغيرة المتناثرة على مقربة من طريقنا حتى اذا ما بزغت الشمس ، بعد ان قطعنا زهاء عشرين ميلا ، دخلنا مدينة « كولمتي »[٣] •

وهذا مكان كبير يمتد بامتداد القاعدة الشرقية لسلسلة جبال جرداء على ان المدينة تقع برمتها وسط الحدائق وبساتين النخيل والمزارع • وفيها ثلاثة او أربعة مساجد وبعض المساكن الحسنة ، وسوق تغص بالفاكهة ، وينابيع مياه فاخرة •

استرحنا في بيت الاغا او حاكم المدينة كالعادة وذلك لعدم توفر منزل جيد للمسافرين (كروان سراى) ينزل السعاة فيه • وبعد ان نمنا زهاء الساعة استأنفنا

السير على ذات الخيول لانه لم تتوفر لنا خيول جديدة في هذه المحطة •

غادرنا مدينة كولمتي بطريق يمر بين الحدائق وبساتين النخيل التي احيطت باسوار من الطين فاصبحت في مظاهرها هذه تشبه القرى الشرقية في مصر السفلى • وتعززت هذه المشابهة حين وصلنا بغتة الى ارض صحراوية مكشوفة صادفنا فيها قطعانا كثيرة من الابل والاغنام يسوقها بعض الاعراب •

كان سيرنا ما يزال متجها بصفة عامة نحو الجنوب وبعد ان قطعنا نحوا من ثمانية اميال ترجلنا في « خان البيات »[٤] الذى قامت حوله بعض البيوت المتناثرة يكفي عددها لان تعتبر من احدى القرى •

كان منزل المسافرين من اجمل المنازل التي شهدناها مذ غادرنا الموصل • وهو يتألف من غرفة خرجية واخرى داخلية وسقف كل منهما على شكل قبة طليت بالبياض بصفة لطيفة • وكانت الغرفة الاخيرة تحوي اريكة مرتفعة ، مقاعد وبسطا وفرجات صغيرة لمعدات الذين يودون الاستراحة هناك •

مكثنا في هذا المكان ساعتين قسمناهما بالتساوي تقريبا بين الاكل والشرب والتدخين والنوم • وعند العصر ـ وهو آخر جزء من النهار تقريبا ـ تهيأنا للركوب ثانية ولو أن السبب المزعوم لبقائنا هنا كان ، كالسابق ، لتجنب شدة وهج الشمس المحرقة •

تزودنا بخيول جديدة لركوبنا • أما الدواب التي كانت تحمل أمتعتنا فلم تستبدل بغيرها • كما أصبح لدينا حرس مؤلف من عشرين فارسا عربيا جاءوا لحمايتنا لان الطريق من هناك الى الجنوب كان ـ كما قيل ـ عرضة لغارات قطاع الطرق أكثر من الطريق الذي سبق ان اجتزناه من الشمال •

وحين غادرنا (بيات) اتجه طريقنا نحو الشرق ، وأخذنا نتعقب هذا الاتجاه بامتداد القاعدة الجنوبية لسلسلة من الجبال الجرداء وفي أرض قفراء تقع على يميننا استمرت طيلة الطريق دون انتهاء حتى بلغنا مدينة كفرى بعد أن قطعنا حوالي ثلاثين ميلا •

الحادي عشر من تموز :

قبل أن نخلد الى النوم في الليلة السابقة قامت ضجة من خصام وسباب عالية بين السعاة ومحافظي الخيول في هذه المحطة فلقد أصر الاخيرون ان ليس باستطاعتهم تزويدنا بدواب الى أن يعود البعض منها من بغداد بهذا الطريق • وازاء ذلك أخلدنا أنا والساعي الصغير علي والتاجر سليمان الى الراحة لاعتقادنا الراسخ بأن كل ماسيقع من وراء الشغب سوف يتأثر يقيناً بغطرسة يونس وصوته الاجش وسوطه الثقيل • واذا كانت الخيول رديئة فاننا سنضطر تحت تأثيره الى التزود بها دون أي اعتراض من جانبنا •

على أننا حين استيقظنا في الصباح بعد أن استمتعنا بنوم هادىء ومن دون أن يرتفع صوت واحد كالعادة ، سرعان ما وضح سبب ذلك السكون والهدوء غير المعتادين • فقد انبئنا أن يونس قد تركنا لمصيرنا •

تبادل كل منا مع الآخر نظرات ملؤها الدهشة والريبة والكدر على أنه من الصواب عدم اطالة الشك فيه ذلك لان الجلبة التي أحدثها كانت بسبب عثوره على جواد واحد حسب ، ولذلك احتجزه لنفسه وغادر الاصطبل في سكون ، وسار وحده في منتصف الليل كيما ينقل الى المقيم البريطاني أنباء وجودنا في الطريق لكنه ترك المتاع الذي تعهد بنقله الى رفيقه علي ليأتي به من بعده حيث تخلى عني وعن سليمان مع اننا دفعنا له مبلغا طيبا كيما يأخذنا تحت حمايته خلال طريقنا الى بغداد ومما تجب ملاحظته بالنسبة الى عملية السفر مع السعاة الحكوميين ان السبب في الالتجاء اليها يعود الى استحالة الحصول على خيل يتزود بها في الطريق• ففي كل من المراحل بين المدن الكبرى في الامبراطورية التركية ، ولا سيما الطريق المباشر بين اسطنبول وبغداد ، يوجد بعض الاشخاص الذين يتعاقدون مع الحكومة لتزويد السعاة بالخيول من مرحلة الى أخرى على أن هؤلاء لايحتفظون من الخيول بعدد أكثر مما هو ضروري لانجاز تعهدهم في الاوقات التي تضطرب الاحوال فيها• ذلك لان التعهد يسبب على الدوام خسارة للفرقاء الذين يجهزون الخيول ، ويفرض عليهم ذلك التعهد من قبل الحكومة باعتباره أحد الأنواع الكثيرة الاخرى

للخراج القائم • ولذلك فان الشخص الذي يريد السفر بمفرده لايستطيع الحصول على أية خيول عن طريق الكراء في أي من هذه المراحل • فالمعتاد أن لايحتفظ بأي منها لمثل هذا الغرض • فالسفر على جواد شخص ما في القافلة يكون متعبا لمن يريد الاسراع في السير ، كما ان السفر بأمان أو بصورة مفردة من دون حماية أي من أفراد القافلة أو السعاة ، أمر غير عملي اطلاقا • ولذلك فالعادة أن يتفق المسافرون الذين يبغون السرعة مع أحد السعاة المسافرين في الطريق وأن يمنحوه مبلغا من المال عن السفرة كلها • ومقابل هذا يزود المسافر من لدن الساعي بحصان في كل مرحلة ولنقل أمتعته وهداياه • والشيء الضروري في مثل هذه الرحلة هو السرج واللجام وحقيبة السفر والسوط ، وظرف من الماء • وكل شيء ماخلا ذلك قد يكون متوفرا في الطريق اذا ماطبقت أساليب العيش الشائعة في ذلك البلد • لكنه لايمكن العثور على وسائل المائدة من خمر وشاي أو التسليات الاخرى التي يجدها المسافر في أوربا • وخير وسيلة للتصرف تجاه مثل هؤلاء الناس ، ووفاقا لشهادات معظم الاشخاص الذين سافروا معهم ، هي التظاهر بالكبرياء والتعالي والحزم والتحفظ • فليس بين الناس طبقة كالسعاة هي أكثر استعدادا للغطرسة والوقاحة المفرطة على من يكونون تحت امرتهم • لكنهم ، كبقية المتفاخرين ، سرعان مايذعنون للمقاومة القوية الثابتة التي تتصدى لاعتداءاتهم •

* * *

ولنعد الآن فنقول اننا أنا وعلي وسليمان بقينا هنا دون أي أمل مباشر في الحصول على أية دواب نستخدمها • ومثل المسلمين المتمسكين بشعائر الدين أخذ كل واحد منا يواسي الآخر بالايمان بأن احتباسنا هنا كان قد دون في لوح القدر ولا مجال لتجنبه ، ولو أن أيا من رفيقي لم يكف عن انزال اللعنات على رأس الخائن يونس باعتباره الاداة في هذه المحنة ، لكننا مالبثنا ـ ونحن لانريد أن نصبر على مالا نستطيع علاجه ـ ان أمرنا باعداد افخر غذاء يمكن اعداده في ذلك المكان • ثم بعثنا بمندوبين عنا لهم الصلاحية المخولة في دعوة جميع الذين يستطيعون تناول الطعام في ضيافتنا •

وقبل أن نجلس في الغرفة وصل أحد السعاة من بغداد مصطحبا معه اثنين من الاوربيين كانا يرتديان ملابس السعاة ذاتها ، ويقصدان اسطنبول • لقد كان وصولهما في الفرصة المناسبة • فلقد دعوناهما الى الاشتراك معنا في تناول وليمتنا وكان هذان السيدان ، وهما في بدء رحلتهما ، مزودين بالمنعشات والمشـروبات لاستعمالهما الخاص ، لكننا أفرغناها في أجوافنا من دون التفات الى حرارة الجو ووجود بعض المؤمنين معنا • ذلك لان حقائب سفرهما كانت مثقلة بجزء مـن « البراندي » الفرنسي النفيس ومشروب « الراتفيا » الفاخر اللذين تزودا بهما • كانت فطنة هذين المسافرين بأن مثل هذه المنعشات ضرورية في الايام التي تشتد فيها الحرارة ، وذلك لتلافي نفاد حرارة الدواب وقوتها ، تبرر مثل هذا التصرف في نظر أحد الفرقاء ، وان الاقداح المترعة التي شربها علي وسليمان وهما ينزلان اللعنات على يونس الذي تركنا في أمس الحاجة ، كانت على العكس قد أباحت المشروبات المحظورة في نظر الفريق الآخر • بعد أن انتهينا من تدخين غلايينا بعد الظهر • وحيث كان الاتراك بجانبنا غارقين في النوم في غمرة حرارة النهار ، بدأت أعرف الشيء الكثير عن رفيقي اللذين هبطا علينا فجأة وانقذانا في الوقت المناسب من ربقة محبسنا • كانا كلاهما ايطاليين يدعى الاكبر منهما الأب كاميلا اليسوعي[د] وهو من أتباع الطائفة الكرملية وقد اقام في بغداد سنوات عديدة ، ثم عاد الآن الى روما بطريق اسطنبول • أما الثاني فهو رجل شاب ذهب في الاصل من روما الى اسطنبول حيث أقام بعض الوقت مع والده الذي يعمل تاجرا في تلك المدينة • وما أن سمع من بعض التجار البعيدين الذين يتراسل أبوه معهم عن شهرة دمشـق حتى طلب الاذن للقيام برحلة الى تلك المدينة فاعطي له الاذن على أمل أن يستطيع أداء بعض الاعمال النافعة هناك وفي ذات الوقت يشبع حب الاستطلاع فيـه • على أن الشيء الفريد في تأريخ رحلات هذا الرجل الشاب هو انه سـافر من اسطنبول الى الاسكندرية في مصر ظنا منه أن هذا أقوم وأقصر طريق الى دمشـق وبعد أن هبط في الاسكندرية سافر الى القاهرة بنهر النيل على أساس أن ذلك هو الطريق المباشر الى المكان الذي يقصده • وحين وصل دمشق بعد زمن طويـل

وبهذا الطريق الملتوي الذي سافر فيه من القاهرة الى بيت المقدس عبر صحـراء السويس ، كان الاعتقاد سائدا أن تكرار ذلك الخطأ لابد وأن يعلمه كيفيـة الاستقصاء بعناية عن الاوضاع النسبية للاماكن التي قد يزورها في المسـتقبل • لكن يبدو أنه لم يكتشف أن ليس في مستطاعه الوصول الى هناك بأقرب طـريق• فهو على النقيض من ذلك يعتقد دوما أن سفره الى الاسكندرية بطريق البحر ، ورحلته من القاهرة الى دمشق برا ، كانت في خط مستقيم تقريبا • وهكذا ما أن سمع ، وهو يحاول مغادرة دمشق الى اسطنبول ، بوجود قوافل كبيرة تسير من دمشق الى بغداد في كل سنة ، وأدرك ان الآخرين يفدون من بغداد الى اسطنبول في ذات المدة من الوقت ، حتى اعتقد ان تلك القوافل لابد وأن تكون متشـابهة • واستخلص من هذا ان بغداد تقع على الطريق المباشر الذي يسير الى موطنه ، والذي سبق له أن سافر فيه من دمشق الى ذلك الموطن عبر الصحراء السورية في أشد فصول السنة حرارة ومن دون أن يسأل ، ولو مرة واحدة ، خلال الاربعين يوما التي أمضاها في ذلك الطريق الذي قطعه أين تقع اسطنبول •

لقد قص ذلك الرجل كل هذا علي من دون أي وعي واضح لسخافته ، ومع انني لم أصدق أول الامر أن مثل هذا الجهل قد يكون محتملا لكنني ارغمت في النهاية على الاعتقاد بأن ماحدث قد وقع فعلا وبذات الوصف لاسيما حين سـمعت ذلك الرجل الشاب يؤكد اعتقاده بان المسافة بين اسطنبول وبغداد بطريق القاهرة ودمشق لن تقل عن خمسين ألف ميل ، في حين ان المسافة بين بغداد واسطنبول بالطريق التي يعود بها الآن لا تتجاوز خمسمائة ميل • يضاف الى هذا انه لم يفكر من ناحيته لم اختار هذا الطريق الطويل وهو غير ملائم وبعيد المدى • لكنني في ذات الوقت قلت بأنه قد تكون هنالك أسباب لهذا التصرف معروفة للشاب وحـده لم تخف اسرارها عنه !

وعند منتصف الليل اعطى الساعي الذي يصحب هذين المسافرين من بغداد الى اسطنبول والذي اضطر الى استخدام ذات الخيل التي وصلوا عليها هنا ، اعطى

أوامر الرحيل واذ ذاك شدت سروج الخيل شدا موثقا ، وملئت القرب بالمـاء ، وغادرنا رفيقانا بعد أن تبادلنا التحيات والتبريكات والاسف .

الثاني عشر من تموز :

واذ قطعنا الأمل في خلاصنا من الاحتجاز في هذا المكان فقد أخذنا نطوف بالمدينة ، ونجلس في المقهي بلا عمل ولو أن ذلك قد خلا من وسائل الاستمتاع التي تهيأت لنا في اليوم السابق لنبدد به السأم الذي كنا نشعر به .

تقع مدينة كفري في سهل عند نهاية سلسلة الجبال الجرداء التي وصفناها في طريقنا من « بيات » الى هذا الموضع ، وتغطي كل المسافة الممتدة بينهما .

والمدينة كبيرة بصفة نسبية وتقع داخل اسوار مشيدة هي والمنازل التي ضمتها من الطين المعزز بالحصى الممزوج به . وهناك جدول ماء رائق يجري داخل السور في الناحية الشرقية ، ويتفرع الى قنوات صغيرة تمر عبر الاقسام الرئيسة من المدينة ، فتساهم في نظافة المكان واراحة سكانه . ولسور المدينة الذي يمر الجدول بالقرب منه متراس عال تخترقه مزاغل للبنادق . ويصعد الى منصة السور بدرجات ضيقة . غير انه لم تنصب أية مدافع فيه . والاسواق جد بائسة في مظهرها ولو أنها مجهزة بعدد واف من السلع ولا سيما الفواكه الفاخرة ، ومن بينها الرقي والعنب وهما أكثر جودة ووفرة .

وهناك مطعم حسن يمكن الحصول فيه على الكباب أو اللحم والسجق المشويين . ومع أنه لاتوجد في المكان سوى قهوة واحدة الا انها تفي بتزويد جميع العاطلين والمسافرين الذين يمرون بالمدينة .

والمنزل الذي آوينا اليه خلال توقفنا هنا كان شبيها في طراز عمارته بالمنزل الذي وصفناه في « بيات » اذ كان طرازا تركيا خالصا . وهو يتألف من عدة شقق يحتوي البعض منها على مدافيء في الجدران تشبه المداخن الاوربية ، والبعض الآخر منها يحتوي على ارائك ومحاريب لوضع مهمات المسافرين ، وكلها مزخرفة ومقببة حسب الطراز التركي وليس العربي منه . والملاحظ أنه وان كانت جميع

الاطواق في منزل المسافرين والمقهى مشيدة على الطراز الاسلامي ولها كوى أو تجاويف من داخلها ، فان ما يشاهد منها في الابنية الاخرى في المدينة كان من نوع مختلف فالبعض منها أطواق مدورة وذات شكل روماني خالص شبه مستدير ، بينما البعض الآخر منها تتألف من أجزاء دائرية مسطحة تقرب من الشكل السكسوني ، وهناك أطواق أخرى مسطحة ذات قاعدة واسعة في الوسط شبيهة بما تم وصفه في مسجد ابراهيم الخليل في أورفه . وواضح ان هذه جميعها قد شيدت دون اهتمام بالقاعدة الثابتة التي يشير اليها الفن المعماري .

ولغة السكان ومظاهرهم وسحنهم تركية في الغالب . وهذا الموضع بالاضافة الى بناء منزل المسافرين ومنازل المحطة السابقة ، قائم على الطراز التركي . وكل هذه تشير الى أن السكن في مثل هذه الاماكن الصغيرة التي تشبه القرى كان في الاصل اقامة محطة بريد يأوى اليها نقلة البريد بين اسطنبول وبغداد منذ أن أصبحت هذه الاخيرة مدينة الحدود النائية للامبراطورية التركية ، وان تلك القرى التي يسكنها الاتراك قد أخذت تتعاظم منذ ذلك الوقت باطراد حول هذه المواضع التي يتوقف المسافرون عندها . وهذا يكفي لتبيان سبب اقامتها على مسافات متساوية بين أحدها الآخر في حين أن الارض التي تقع بينها صحراء غير مأهولة. ومثل هذا يقال عن أهمية المظاهر التركية والاحتفاظ باللغة التركية في هذه الاماكن التي تقع على طريق البريد الطويل ولو انها محاطة من أحد جوانبها بالعرب ومن الجانب الآخر بالاكراد .

هنك بساتين قليلة للنخيل والثمار الاخرى . وحين كنت اتجول في أحدها شاهدت جموعا غفيرة من الحشرات من صنف دود القز ، وقد تجمعت على لحاء الشجر الذى يقال انه الغذاء المفضل لديها . وكانت هذه الحشرات تغطى اوراق الشجيرات الواطئة بأعداد لا حصر لها وهي من الاصناف التي تحتفظ بقشرة حمراء ذات نقط سوداء ولو ان هذه النقط في كثير منها ليست ظاهرة وهي تطير على شكل ازواج وتلامس البعض باذنابها .

جيء الي أثناء النهار بقطع سحابية اللون من المرمر على اعتبار انها أحجار من سلسلة الجبال القائمة هناك . لقد كانت هذه هي كل التحف الطبيعية ـ اذا

ما اعتبرناها هكذا – التي يحتفظ بها هذا المكان ، عدا « الحاج لقلق » الذي يبني أعشاشه فوق كل دار في المدينة تقريبا •

وفي كل جزء من طريقنا من الموصل الى هذا المكان كنا نرى وللايام الخمسة الاخيرة ، طائرا جميلا يسميه الفرنسيون « سيرين »[٦] ويطلق عليه العرب اسم « الوروار » لكننا فقدنا هنا رؤية تلك الطيور وربما كان ذلك بسبب شدة الحر ولذات السبب ايضا اختفى الذباب الذي كان يرافقنا طيلة طريقنا ، ولو ان البعوض المهاجم ما يزال يرى على كل بساط ومقعد كنا نستريح عليه •

والحقيقة ان الحرارة كانت شديدة اذ ان المحرار يرتفع من ١٢٠ درجة عند الظهر الى ١٢٥ درجة في الثالثة بعد الظهر • ولذلك كان سكان البلاد يتضايقون منها • وكانت الريح جنوبية غربية تهب من الصحراء في تيار خفيف جدا ، ولذلك فان جميع المقيمين هنا ممن عاشوا في البصرة وبغداد كانوا يتشكون من وخامة الجو ومن لفحات الريح الحارة المختنقة وهي مماثلة لما يقع في اسوأ الفصول في تينك المدينتين •

ولما غدا محتجزنا هنا معروفا بصفة عامة فقد دعينا بعد صلاة العصر الى منزل احد الاشخاص هو الحاج حبيب الذي كان يرغب في الاطلاع على تفصيلات تخلفنا ، واعرب عن اهتمامه بمساعدتنا فيما نعانيه من مشقة • واذ ذهبنا الى مجلسه اخذ سليمان يتذكر ان هذا الحاج قد يكون من اصدقائه ويحمل ذات الاسم • وحين التقينا ظهر ذلك حقا فأخذ كل منهما يعانق الآخر • وقد علمنا الان ان الحاج نفسه كان قد جاء من بغداد مع قافلة صغيرة تحمل بعض السلع ، وانه بعد ان باع تلك البضاعة يعتزم السفر الى اهله بما يملكه مما سينقله على ذات الدواب ، لان هذه الدواب وما تحمله تعود كلها اليه • لقد زالت مصاعبنا الان • فبزيادة حمولة بعض بغاله ، وترجل خدمه عن دواب اخرى ، حيث يتناوبون الركوب والسير على الاقدام ، امكن تهيئة جواد وبغلين وضعت تحت تصرفنا نحن ، أنا وعلي وسليمان • كان الجواد من نصيبي لانني اكبر غريب في الجماعة ، ولان الجميع قد فهموا بانني قدمت من مصر • ومع

ان الساعي علي لم يعتبر نفسه احق مني بطلب الجواد له ، لكن وقاحته قد تدعه يطلبه على اساس انه رسول السلطان في حين لم تجد توسلاتي شيئا الى الشاب سليمان ، الذي ظفرنا بتلك الدواب اكراما له وحده ، بأن يأخذ الجواد ويأذن لي بركوب البغل •

لقد قال ان قواعد الضيافة تمنع ذلك وكان متمسكا بهذه النقطة تماما •

وحين غربت الشمس تجمعت في منزل الحاج جماعة وقورة معروفة تتكون من ملا نحيف البنية كامل اللحية وبعض الرؤساء الكبار في المدينة وهنا ادت معظم الجماعة الصلاة ولم نشترك فيها لا انا ولا علي الامر الذي لم يسكت عنه الملا قليلا •

ومن هناك انتقلنا الى ضفة الجدول الذي يجري داخل المدينة فتناولنا عشاء فاخرا اعده الحاج لكل اتباعه ومن بينهم درويشان اصبحا متعلقين بمعيته دائما • وبعد ان استرحنا بعض الوقت بدأنا مسيرتنا في حوالي الساعة الثانية بعد الغروب وكانت القافلة مؤلفة من ستة جياد وخمسين بغلا وحمارا ما عدا اثنين من السعاة قدما من الموصل وانضما الينا حين غادرنا المدينة وكانا يركبان ذات الجوادين اللذين جاءا بهما من آخر مرحلة •

الثالث عشر من تموز :

كان اتجاهنا في السير خلال الليل نحو الجنوب تقريبا وكان طريقنا كله يمر فوق سهل مستو صحراوي ، وبعد مسيرة يسيرة مدة ست ساعات وبمعدل ثلاثة أميال في الساعة دخلنا مدينة « قره‌تبة » أو « التل الاسود » وهو الاسم الذي يطلقه الاتراك عليها • وبينما ذهب السعاة واولئك الذين كانوا يعنون بالدواب المحملة الى الخان العام ، اختير مسجد جديد يقع عند مدخل القرية ، مكانا لنتوقف فيه • فلقد ذكر الملا الذي رافقنا من كفري ان هذه البناية ستكون خير مكان نرتاح فيه كما ان في الساحة مكان صالح لخيولنا ، وطبقا لذلك ترجلنا هناك وبعد اداء الصلاة الاعتيادية التي كان الملا نفسه فيها هو الامام للجماعة ، شرعنا نعني بدوابنا ثم اسلمنا انفسنا للرقاد •

وحين استيقظنا بعد ان ارتفعت الشمس وجدت على مقربة مني شيخا مسنا لحيته بيضاء كان هو رجل الدين ومدرس القرية وقد أحاط به أربعة وعشرون تلميذا وكلهم يقرأون بصوت عال آيات مختلفة من القرآن خصصت لهم بمثابة واجبات • كان الكتاب الذى يقرأون فيه مطبوعا بالعربية لكن لغة احدهم مع الاخر التي يتحوثون بها ومظاهرهم وسحنتهم ما تزال تركية وهي تدل على اصلهم بصفة وافية • كان الشيخ محبا للعشرة وحين كان يلقى علي اسئلته باهتمام بالغ كنت ارد عليها باستعداد وطلاقة •

اخذت الشمس تصعد وتشتد حرارتها وحتى بعد ان انبلج النهار صرف بعض التلامذة الصغار من قبل مدرسهم ليتناولوا طعام الفطور البارد والمؤلف من شرائح غير مقشرة من الخيار اغمست فى اللبن الحامض وهذا وان لم يكن شائعا بين المتأنقين في مآكلهم في اوربا الا انه يعتبر هنا من الاكلات المفضلة المختارة • ولقد اخذ الشيخ نفسه يتناول هذا الطعام امامي وحين تذوقته شاركته فيه فاتينا عليه كله • ولقد نشر ذلك الشيخ وهو استاذ المسجد ذاته ، بساطي داخل الفناء المقدس من دون ريبة ولو انه عرف ، في ذات الوقت ، من حديثي الصريح معه انني لست مسلما ولذلك آويت الى أكثر الاماكن ظلا في البناية كيما اتمتع باغفاءه ثانية بينما كان بقية رفاقي المتعبين يغطون في نومهم •

وحين استيقظ الكبار من جماعتنا المسافرين وانتظموا في صف واحد وراء الملا لاداء صلاة الظهر • وما ان رآني ذلك الرجل المحترم الذى عهدت اليه مهمة تفسير القانون الاسلامي نائما على مقربة منه حتى ارتد قافزا الى الخلف وكأنه « فريسى » هرب من جابي مكوس ، ويهودي من « سامري » و «براهمانى» لامس احد المنبوذين[٧] •

ولقد نشأت الان اعتراضات قوية من الملا والحاج حبيب واثنين آخرين من الجماعة حول بقائي داخل المسجد وقد قطعوا صلاتهم بسبب ذلك • فرئيس المسجد والشاب سلميان وآخر من رفاقنا ، جعلت منه صديقا لي بما كنت أقصه عليه من القصص الممتعة خلال الطريق ، كل هؤلاء اقتنعوا بأن لا يزعجوني في

الانتقال من الموقع الذي كنت أرقد فيه • وخلال هذا الصراع بين التعصب والمسامحة كنت قد استيقظت لكنني ظللت هادئا بل راقدا بصفة جلية وذلك لاعتقادي بان اى شىء اصنعه او اقوله قد يؤجج الخصام ويؤرثه بدلا من ان يخمده •

وتغلب اصدقائي في النهاية وانصرف الاخرون بعد المزيد من الدمدمة بورعهم ونسكهم ولو انهم انتقلوا من قربى ، وقد انتابهم السخط ، الى نهاية المسجد كيما يتجنبوا ملامسه رجل كافر •

انتهت فترة ما بعد الظهر دون ان ارى الكثير من مدينة قرة تبة • وقد ظهر لدي انها لا تزيد عن نصف مدينة كفرى ، وان سكانها اقل نسبة • ذلك ان سكان كفرى قدروا بثلاثة آلاف في حين يظن ان سكنة هذه القرية لا يتجاوزون الالف وكان مظهر الناس ولغتهم تركية كما هي اسماء الاماكن ايضا وهذا يؤكد الفكرة التى سبق ان اعربت عنها فيما يخص اصل وتقدم اماكن الوقوف هذه على قارعة الطريق •

شروح وتعليقات المعرب على الفصل السادس

(١) طاووق وتسمى داقوق ايضا احد اقضية لواء كركوك في الوقت الحاضر واسمها القديم دقوقا ذكرها ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان ٠ والمعتقد ان البلدة نشأت بجوار بلدة اثرية قديمة ٠

(٢) يقع هذا الضريح على مسافة قصيرة من داقوق ويسميه الاهلون باسم ضريح الامام زين العابدين من الحسين بن علي بن ابي طالب (رض) وهذه التسمية بعيدة عن الصحة لان المعروف ان الامام زين العابدين لم يخرج من المدينة المنورة ولم يقدم الى العراق اطلاق ٠

ويبدو ان هذا الاسم قد اطلق على ذلك الضريح اما بفعل الخطأ الشائع أو انه اختلق من قبل شخص أو اشخاص أرادوا الانتفاع مما يلقيه الناس من نذور على الضريح المذكور كما هو حادث في العراق حتى في الوقت الحاضر ولا سيما في المناطق الجنوبية حيث تكثر امثال هذه المزارات وتتعدد باسم واحد في اكثر من مكان واحد ٠

ومما زاد من اعتقاد الناس بالنسبة لهذا الضريح وجود رخامة على مدخل هذا الضريح كتب عليها انه للامام زين العابدين وانه جدد سنة ١٠٥٩هـ على يد احمد باشا حسبما ذكر ذلك عبدالرزاق الحسني في كتابه « العراق قديما وحديثا » ٠

(٣) اخطأ المؤلف في استيعاب لفظ مدينة « طوزخرماتو » فسماها كولماتي Koolmaty ولعله اخذ ذلك عن الكلمة « خورماتو » التي تحرفت لديه الى كولماتي ٠ ولا يزال سكان المنطقة يطلقون « خورماتو » او « دوز » على هذه المدينة ٠

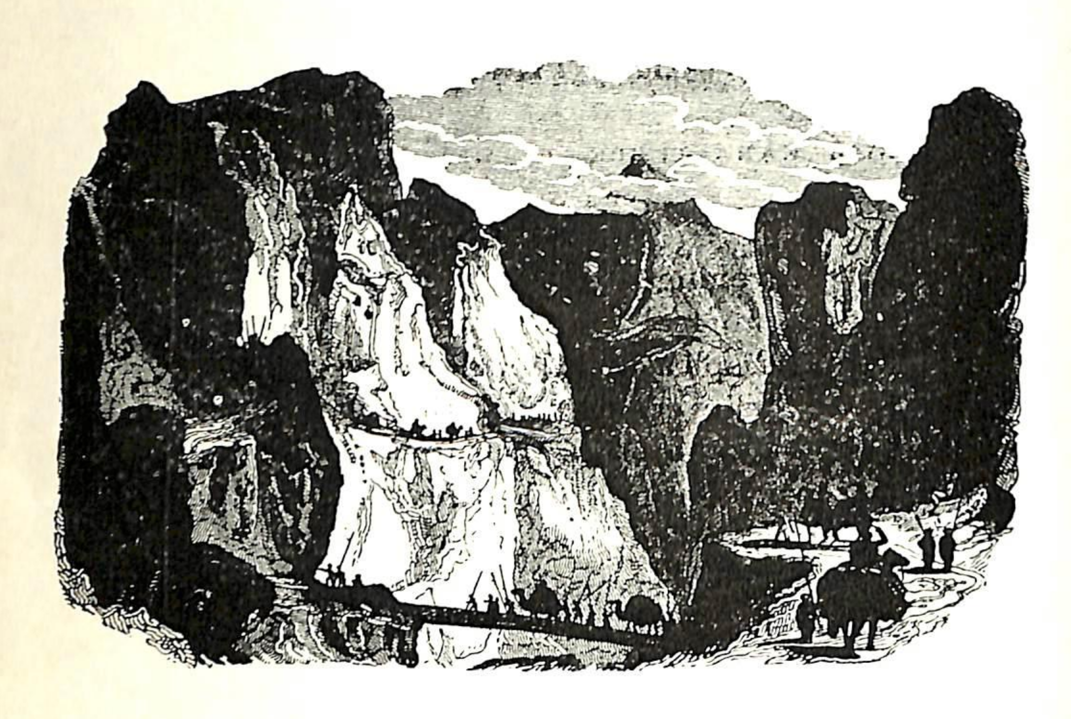
(٤) خان البيات يقع في منتصف الطريق تقريبا بين كفري وطوزخرماتو

وقد سمي بهذا الاسم نسبة الى عشيرة « البيات » وهم جماعة من الاتراك سكنوا تلك الاصقاع منذ الفتح التركي للعراق واختلطوا مع العرب اختلاطا كبيرا ولذلك تراهم يتكلمون العربية والتركية ويرتدون الملابس العربية بما في ذلك الكوفية والعقال ٠

(٥) الاب كاميلا اليسوعي Padre Camilla Di Jesu

(٦) سيرين Syrin طائر صغير من نوع العصافير طويل المنقار يدعى عندنا بالوروار يكثر في الانحاء الشمالية ولا سيما في الطريق بين الموصل وبغداد والسليمانية والعمادية وهو يهاجر في فترات ٠

(٧) الفريسي Pharises نسبة الى الفريسية احدى الطوائف المذهبية المعروفة لدى اليهود والسامري نسبة الى طائفة السامريين من اليهود والبراهماني او البرهمي منسوب الى طائفة البراهما الهندية والمنبوذون طائفة من الهنود يحتقرها أصحاب المذهب البرهمي ويعتبرونها نجسة فلا يقربونها او يتعاملون معها والمنبوذون طائفة من الهنود تأنف بعض طوائف الهنود الاخرى ولاسيما البراهمانيون ان تتعامل معها او تمس شيئاً مما يمسه المنبوذون ولا تزال هذه الطائفة تشعر بالمذلة وابتعاد الهنود عنها رغم صدور قرارات من الحكومة الهندية تقضى بازالة الفوارق بين الطوائف الهندية ٠



الطريق بين قره تبه ودلي عباس من رسم المؤلف

مقابل صفحة ١٧٠

الفصل السابع

من قره‌تبه بطريق دللي عباس الى بغداد

حين بدأنا الركوب في المساء شرعنا نتلمس التأثيرات التى احدثها سخط الحاج حبيب ولو ان انتقامه كان - كما كنا نعتقد جميعا - ليس ناجما عن قول الملا المسنء مما كان ينطق به فؤاده المحب للخير • ولقد تخلى عني رفيقي المحب للقصص التي كنت اقصها عليه وذلك بسبب تأييده العلني لقضيتي • واعطي الحصان الذى كنت قبلا امتطيه الى احد خدم الحاج حبيب في حين ركبت انا بغلا مثقلا بالاحمال ، كما اعطي الحصان الاخر الذى كان سليمان يركبه الى شخص آخر بينما ركب هو بغلا يحمل الرقي في اسفاط •

على مثل هذه الحالة بدأ تحركنا بعد غروب الشمس مباشرة حيث سار معنا رؤساء الجماعة مسافة ما ، بينما تعرضنا لسخرية البقية •

كان اتجاهنا نحو الجنوب الغربي فوق سهل مقفر ولقد مررنا بعد تحركنا بساعتين ببناء مربع يقع على شمالنا كان من الواضح انه أحد الخانات المقفرة ثم توقفنا في منتصف الليل عند خندق مليء بالماء المر الآسن •

الرابع عشر من تموز :

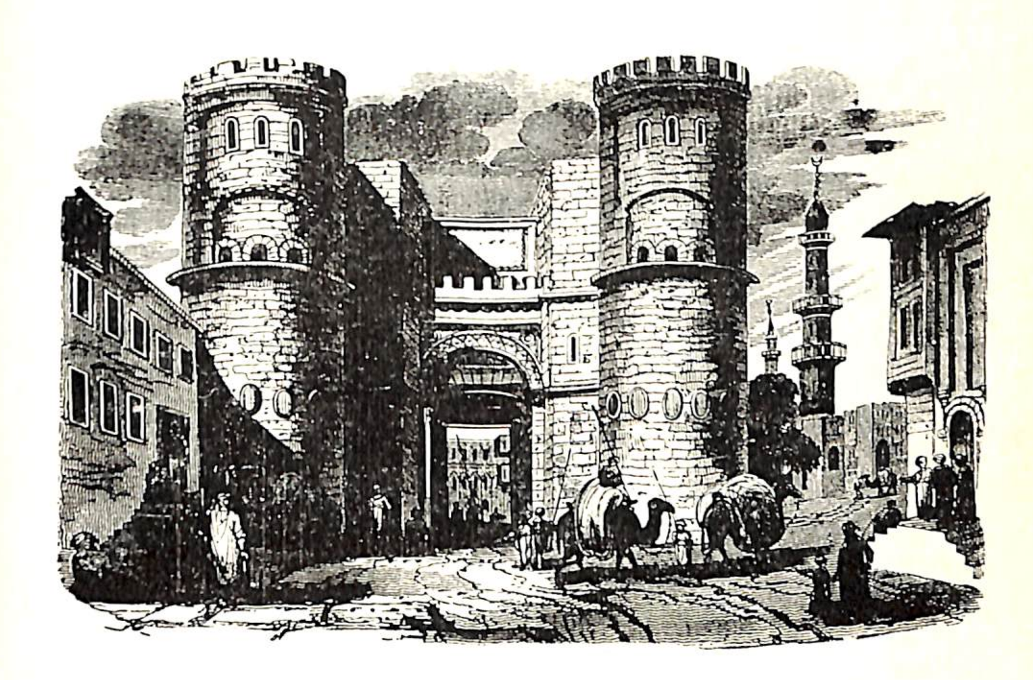
شرعنا بعد هذا نصعد سلسلة جبال رملية حجرية عالية ممزقة كانت تقطع الطريق بشكل زاوية يمنى وتمتد فوق السهل كله ولقد صرفنا ساعتين كاملتين قبل ان نتحقق من هذا الممر الذى كانت فيه الطرقات تتألف من ممرات للحيوانات• وقد تهدمت هذه الممرات الان فغدت خطرة الاعلى الدواب التى تستطيع نقل خطواتها بصواب • وواصلنا سيرنا في ذات الاتجاه الى الجنوب الغربي حتى الساعة الواحدة بعد شروق الشمس حين وصلنا محطة « دللي عباس »[1] بعد ان قطعنا ما مجموعه حوالي ثلاثين ميلا •

ولم نعبر نهراً حتى ولا حوض نهر مذ غادرنا قرەتبة ذلك لان الخندق الذى وصلناه في منتصف الليل ، وكان يحـوي ماء مرا آسنا ، قد عبرناه فوق جسر مؤلف من بضعة الواح خشبية ولا يزيد عرضه عن عشر ياردات وفي الخريطة التي رسمها مكدونالد كنيير يمر نهر « اودورنيه » او « فوسكوس »[٢] من الشمال الشرقي فيصب في دجلة بعد ان يقطع الطريق وفي منتصف المسافة تماما بين هاتين المحطتين ، ولكن لابد من وجود خطأ في هذا القول لان النهر الذى يتحدث عنه كان مشهورا جدا • على ان هذا المؤلف يقول في المذكرات الملحقة بالخارطة ان نهر اودورنيه (الذى يفترض بعض المؤلفين انه هو نهر فوسكوس الذى ذكره زينوفون) يتألف من تلاقي عدة جداول تنبع من جبال بين كركوك والسليمانية • وهو يتعقب الاتجاه الجنوبي الغربي ثم يصب في دجلة على بعد عشرين فرسنحا فوق بغداد • ويواصل المؤلف قوله « لقد عبرت اودورينه في قرية « طوزخرمة »[٣] على بعد خمسة واربعين فرسخا من بغداد في الطريق الى الموصل وكان عرض حوض النهر زهاء ست ياردات وهو يحوي كميات هائلة من المياه في فصل الربيع »* •

وبالرجوع الى الخارطة ظهر ان طوزخرمه[٤] التي ذكرت كمكان لعبور النهر تقع على رأسه تماما وعلى مسافة طويلة الى الشرق من الطريق المباشر المار من بغداد الى الموصل • في حين ان طوزخرمة التي اشك ان تكون هي نفس هذا المكان والتي يفترض ان يقطع فيها المسافر هذا النهر في طريقه الموصل ، تقع على فرع نهر آخر بين كفرى وطاووق والذى لم يطلق اسم عليه بسبب مساحته الواسعة • على انني لا استطيع الا ان اقول بانني لم ار بين طاووق وكفرى مثل هذا النهر ولم نمر بمكان يدعى « طوزخرمة » ويقع على نهر – ذكر الميجر مكدونالد كنيير – ان عرضه يبلغ ستين يردا وقد جعله « كنيير » حدا فاصلا بين الجزء الخصب المأهول المزروع من القطر الى الشمال ، وبين القسم المقفر

مكدونالد كنيير : ذكريات جغرافية عن الامبراطورية الفارسية ص ٢٩٧

M. Kinier : Goegraphical Memoirs on The Persian Empire P. 297.



مدخل بغداد عند باب المعظم سنة ١٨١٦ من رسم المؤلف

مقابل صفحة ١٧١

الصحراوي الخالي الى الجنوب منه • ولذلك لابد ان يكون هذا النهر واقعا الى الشرق من الطريق الذى اتينا فيه ، وانه لا يقع على الطريق المباشـــر فيما اذا كانت تلك هي اوصافه ، اما اذا كانت طوزخرمة تقع فى الطريق المستوى فـان اوصافه تلك غير صحيحة(٥) •

* * *

وجدنا في دلي عباس نهـرا يجري على مقربة من جنوبي القرية ويسير نحو الجنوب الغربي • ولم يكن هذا النهر ليعبر مخاضة في اي جزء منه وحتى في مثل هذا الوقت المتقدم من فصل الجفاف ، لكنه كان عريضا فلا يمكن عبوره الا فوق جسر مشيد من آجر ذي اربع قناطر عمودية • ولقد قيل ان منبع هذا النهر يقع على مسيرة عدة ايام الى الشرق بين جبال كردستان وهنا ينثني طريقه نحو دجلة باتجاه غرب الجنوب الغربي • ومع ان هذا النهر اعرض واعمق واطول مجرى من نهر الاردن في فلسطين فوق بحيرة طبرية فانه ، طبقا لما يقوله الاشخاص الساكنون هنا ، لا يبلغ ضفاف نهر دجـلة اطلاقا لانه يتوزع في القنوات التي تنضب مياهها بسبب ارواء الاراضى المزروعة حولها • انني لم اكن على استعداد لتصديق هذا القول ولو انني لم اجد من اطلع فعلا على انصبابه في دجلة في حين ان الجميع مقتنعون بانه لا يصل الى ذلك النهر ، لكن سعة النهر والكميـــات الوفيرة من المياه التي ما يزال يحويها حتى الان يؤكد ـ كما ظننت ـ وجود خلاف حول هذه النقطة •

ولما كان هذا النهر شهيرا وهو يأتي في الدرجة الثانية بعد الزابين الاكبر والاصغر من الانهار التي التقينا بها بعد عبورنا دجلة في الموصل فقد يكون هو نهر فيسكوس او اودورنيه القديم •

يقول مؤلف كتاب « ذكريات » عن حمـلة هرقل في فارس وهـرب (خسرو) من قصره في داستاغرد »(٧) الذي انتهت عنده الحملة حين عبر هرقل نهر دجلة في الموصل عبر بالتتابع نهري الزابين الاكبر والاصغر ونهراً ثالثاً

يدعي « تورنيه »(٨)* ويستنتج من تشـــابه الاسماء ان هذا هــو نفس نهـر « تورنادوتوم » الذى ذكـره « بليني » والذى ظن ـ في خلال حديثه عـن « انطاكية » ـ بانه نهر « اوفيس »(٩) الذي أشار اليه زينفون ، وان « سترابو » يقول عنه انه يقع بين نهري دجلة وتورنادوتوم • فهذا النهر الذي دعاه « تافرنيه » باسم « اودورن » ، ودانفيل • او دورنيه ، وزينفون « فيسكوس »*** وبطليموس « غورغوس »(١٠) ويظن انه نهر واحد يحمل اسماء عديدة لابد ان يكون هو النهر الذي سماه بليني « باسم تورنادوتوم » وهو نفسه نهر « تورنيـه » الذي عبره « هرقل » بعد ان اجتاز دجلة والزابين الكبير والصغير •

اما انا فلقد تساءلت من بعض المسافرين والمقيمين هنا عن الاسم الذى كان يطلق على هذا النهر لدى سكان البلاد فلم احصل على جواب لذلك لا من الاتراك ولا من العرب ، سوى ان البعض منهم يسميه نهـرا ، والبعض الآخر يدعـوه « جدولا » ، وآخرون غيرهم يسمونه « ماء دلي عباس » •

غير ان الذين قالوا هذا عنه كانوا يجهلونه ويختلفون فيما بينهم بشأنه ، ولذلك لم يتيسر لي الحصول على معلومات تتعلق بالاسم أكثر من اطلاعي على مجرى النهر واختفائه •

ان نقاط المشابهة الاخرى لا تؤيد موقعه كنهر ثالث بعد عبور دجلة وفي

* مذكرات اكاديمية المخطوطات والآداب
Memolres de L'academie des Inscriptions et Belles Lettres

*** طبقا للخارطة المرسومة حسب التفصيلات الواردة في كتـاب زينفون (الصعود) يصب نهر فيسكوس فى نهر دجلة بشـكل ملموس تحت مدينـة بغـداد • وهو يقع على مسـافة سـتين ميـلا الى الشـمال من المكان الذي عبر اليونانيون منـه نهر دجلة • وكان عرضه مائة قـدم • وتقوم « اوفيس » على ضفته الشمالية زينفون •

زينفون [اناباسيس الصعود : الكتاب الثاني]
Anabasis : Book II.

مسيرة تتجه في هذا الطريق وان كان هذا يدلل على وجود أكثر من تشابه الاسماء التي اطلقت عليه .

وصف « ارستاغوراس »(١١) الطريق الملكي من « ســارديس »(١٢) الى « سوسه »(١٣) ـ حسبما حفظه لنا هيرودوتس ـ فذكر فيه نهرا رابعا ، بعد أن عدد دجلة والزابين الكبير والصغير كأنهار ثلاثة لابد من عبورهــا خلال ذلك الطريق ، سماه « جنديس »(١٤) . وهذا هو النهر الشهير الذي قسمه « كورش » الى ثلثمائة وستين قنالا ، انتقاما من النهر كما قيل ذلك عنه لان مياه ذلك النهر جرفت احد الجياد المقدسة لدى كورش . غير ان المؤلف القدير الذي صور جغرافية هيرودوتس (١٥) قد برهن على ان « ارستاغوراس » ، أو المؤرخ الذي حفظ تفصيلاته عن هذا الطريق ، قد خلط هذا النهر بنهر « مندلي »(١٦) الذي يقع بعيدا الى الشرق في اقليم « سوسيانا »(١٧) ففي هذا الاقليم راجت حكاية تقسيم كورش للنهر وبالشكل الحقيقي المعروف هناك*

والمعترف به أن مدينة « أوفيس » تقع في نقطة قريبة من التقاء نهـــر « فسكوس » بدجلة ، وقد ثبتها في هذا المكان كل من زينفون وبليني ، كما ان بليني سماها باسم « انطاكية » وهو اسم تم اطلاقه ـ كما رأينا ـ على عدد كبير من المدن في الشرق . غير ان هيردوتس يضع أوفيس في نقطة اسفل التقاء نهــر جنديس بنهر دجلة على اعتبار ان « جنديس » هو اسم النهر الثالث الذي يأتي بعد عبور نهر دجلة كما ذكر ذلك ارستا غوراس والذي سبق لنا أن اقتبسنا عنــه وصفه لهذا الجزء من البلاد .

قد يقال بعد هذا كله انه حتى اذا كان هذا النهر الثالث الذي يأتي بعد عبور دجلة هو نفسه نهر فسكوس الذي ذكره زيتفون ، أو نهر جنديس الذي تحدث عنه ارستاغوراس ، أو نهر تورنادوم الذي عبره هيرودوتس في طريقه الى القصر في حالة امتداد طريق السفر بامتداد الضفة الشرقية لدجلة ، مع ذلك كله فـلا

* أنظر « رنل » مصورات جغرافية هيرودوتس
Rennell : Illustrations of Geography of Herodetus.

يمكن المرور بهذا النهر في الطريق الذي ذكره ارستاغوراس الى « سوسة » كما لا يمكن المرور به في الطريق الذي سلكه هيرودوتس الى داستاغرد ، على فرض ان الطريق يمتد الى الشرق ، وان منبع هذا النهر يتجه الى اليمين قليلا .

وقد تكون « ديالى» هي النهر المقصود بذلك كما يتفق على ذلك كل مـن « دانفيل » و « رتل » ولو ان معلوماتهما عنه لاتؤكد انهما يعلمان بوجود هـذا النهر ذاته في دلي عباس .

* * *

كان الريف المحيط بنا يبدو في شكل صحراء ذات تربة رملية قاحلة انتثرت فوقها بشكل طفيف بعض الشجيرات وبقايا الهشيم .

وكانت سلسلة الجبال الحجرية الجرداء التي مررنا بها في الليلة السابقة تلامس الافق فى الناحية الشرقية الشمالية وكانت سلسلة الجبال العالية البعيدة جدا تحدد الرؤية في الجنوب الشرقي ، لكن المنظر كان يبدو في اى جزء من مدى الرؤية أشبه ببحر مستو غير متموج .

لم نر مساكن يقطنها العرب لوحدهم أثناء طريقنا منذ أن تركنا الموصـل حتى الآن . فالفرسان العرب الذين التقينا بهم في التون كوبري كانوا في حملة ، في حين كان معظم سكنة المدينة من الاتراك والاكراد . أما هنا في قرية دلي عباس الصغيرة هذه فان سحن السكان ومظاهرهم ولغتهم وعاداتهم كلها عربية خالصة ، وان البدو فيها أكثر من الفلاحين . ومن بعض هؤلاء البدو الذين أقاموا خيامهم الشعرية السوداء وهم يرعون قطعاتهم في تلك الشجيرات الشوكية ، تأكدت أن نهر دجلة يبعد مسيرة ثلاثة أيام على الأقدام من قره تبة ، ومسيرة يومين من هذا الملكن ، وعلى أساس هذا التقدير فان المسافة لاتقل عن أربعين ميلا من هنـا ، ولو أن هذه المسافة اكبر بكثير ما حددت به على الخارطة ، وان المســافرين يستديرون الى الشرق بدلا من أن يسيروا في خط مستقيم من الموصل الى بغداد ، كي يمروا بالمدن التي تقع على الطريق ويتوقفوا في المحطات ، ويثبتوا المسافات الملائمة ، ويتزودوا بالماء واللوازم .

لايتجاوز عدد العوائل التي تسكن في دلي عباس بصورة دائمة العشرين عائلة ، ولذلك كانت تجهيزاتنا ، ماعدا اللبن الذي كنا نحصل عليه من البدو المخيمين على مقربة منا ، قليلة جدا • كما لايمكن الحصول على خيول أيضا • ولهذا اضطررنا الى مواصلة السفر على ذات الدواب الموسقة التي حملتنا مثل هذه المسافة البعيدة ، وكان كل واحد من المتذمرين بيننا ــ ولاسيما سليمان وعلي وأنا ــ يجبر على ان يوسق دابته قبل ان يركبها •

أختير أحر وقت من النهار موعدا لمغادرتنا وهو بعد صلاة العصر أو بين الساعة الثالثة والرابعة ظهرا ولقد كانت حرارة الشمس المحرقة أقل شرورا من ريح السموم اللاهبة الخانقة التي كانت تهب من الصحراء الغربية وكأنها اللهب المنبعث من أفران متقدة ، وحتى حينما كنا نرتاح في الظل ، ونتجرد من ملابسنا ، ونتلمس كل ذرة من الهواء بالجلوس في التيار ، وكنا نحمل مروحة في يد وابريق الماء في اليد الاخرى ، كانت الحرارة لاتطاق وكان كل جزء في بدن كل واحد منا ، حتى في هذه الحالة من الراحة، يتصبب عرقا من شدة الحرارة • غير ان تحميل حيوان جموح بحمل ثقيل وبدون مساعدة أحد حتى ولو الامساك برأسه ، لايمكن أن يعد عملية سهلة أو مقبولة ولقد حاولت ذلك بنفسي وبقوة زادها السخط من الاهانة التي وجهت الينا جميعا ، ولحسن الحظ فان عزمي المتعاظم لم يخمد ، الامر الذي اعانني على انجاز ذلك العمل • على انني كنت في تلك اللحظة نهبا لحمى متقدة وقد تهاوت قوتي تماما في الوقت الذي كنت أشد فيه آخر أحزمة بغلي وأنا أكثر استعدادا لان أتمدد على الارض من أن امتطي البغل وأركبه أو أواصل الرحلة على الاقدام بجانب الحيوان الذي حملته أثقالا •

وحياني سليمان ، المخلص الذي ظل مصاحبا لي حتى النهاية ، حين مر بي على حيوان ارفع وأفضل على أمل أن بغداد لم تعد بعيدة جدا ولذلك استعدت معنوياتي وعزيمتي ولكن قبل ان نبدأ المسير في النهاية هبطت الى ضفة النهر فنزعت كل ملابسي ثم غمست قميصي في الماء وارتديته وهو مبتل من دون أن يجف • ثم صنعت ذات الشيء مع ملابسي الاخرى حتى طاقيتي اذ كان رأسي حليقا كله حيث

وضعت تحت طيات عمامتي منشفة قطنية مبللة بالماء وبذلك غدت ملابسي كلها تحوي كميات غير قليلة من الماء • وغادرت دلي عباس بصحبة ذات الجماعة فعبرنا جسرا ذا أربع قناطر وهو بناء اسلامي قديم مائل الى السقوط والخراب ، ثم تعقبنا الاتجاه الجنوبي الغربي عبر السهل • وكانت سلسلة الجبال الحجرية الجرداء التي مررنا بها في الليلة السابقة تلامس الافق في الناحية الشرقية الشمالية ، وكانت سلسلة الجبال العالية البعيدة جدا تحدد الرؤية في الجنوب الشرقي ، لكن المنظر كان يبدو في أي جزء من مدى الرؤية أشبه ببحر مستو غير متموج •

كانت معظم الارض صحراوية ولو ان القنوات كانت تقطعها • وبعضها مليء والاخر جاف • ظلت الحرارة شديدة طيلة الطريق ولذلك كان الاغنياء من جماعتنا يحملون معهم مظلات كبيرة سميكة اما الفقراء فكانوا يحمون انفسهم من الشمس باحسن وسيلة تهيأت لهم الا وهي مضاعفة طيات عباءاتهم والاردية الثقيلة الاخرى التي كانوا يضعونها على رؤوسهم • ولقد تفطرت بشرة وجهي وشفتي وتشققت بفعل الحرارة المفرطة وضاقت عيناي واحمرتا والتهبتا فاصبحتا تؤلماني حتى عندما كنت اتركهما مفتوحتين • وعلى الرغم من الحذر الذى اخذته قبل ان نرحل حيث بللت كل ملابسي بالماء فان التبخر منها كان واسعا الى درجة ان معظمها قد جف تماما عند غروب الشمس • وبعد ذلك اصبح الهواء اخف وطأة ولو انه بقي حارا حتى منتصف الليل •

الخامس عشر من تموز :

واصلنا مسيرتنا فوق السهل من دون ان نغير الاتجاه ولو مرة واحدة فمررنا ببناء مربع وقرية صغيرة حوالى منتصف الليل ، وعند طلوع النهار انفتح منظر البلاد امامنا شبيها بمصر السفلى حقا • ففي السهل المستوى الذى يمتد الان الى كل الجوانب وفي مختلف زوايا الافق بانت رؤوس النخيل يؤلف كل واحد منها عذقا منفصلا عن الاخر وكل واحد يشير الى موقع قرية مختلفة • كانت التربة جمة الخصب وقد سبق لها ان اعطت محصولها للسنة الراهنة ، وكان

السهل يقطعه قنال كبير تفرعت منه عدة فروع صغيرة وكل هذه تؤكد الشبه باراضي نهر النيل وضفافه .

وما ان عبرنا أحد هذه الاقنية وكنا لا نزال نعاني الظمأ الشديد ، حتى سألت احد الدراويش ، وكان يشرب الماء من الجدول في قشرة جوز هند ، بان يسمح لي بشربة ماء من وعائه ، غير ان هذا الرجل رغم تمسكه بآدابه في ممارسة الكرم والاحسان لكل بني الانسان ، ورغم انه كان قبل لحظة قد استدار نحوي وحياني تحية الرجل المخلص ، رغم ذلك فانه أضاف وقاحة الى رفضه طلبي ذلك بأن وخز بغلي بآلة حادة جعلت الحيوان المسكين المثقل بحمله وبراكبه يثب ويرفس ثم يلقي بي في النهاية من على ظهره ويقلب بعض حمله فوقي . كانت خفة ذلك الدرويش ، وهو شاب حرك ، قد ساعدته على التخلص من العقوبة التي كان لابد لي من ان اوقعها عليه بسبب نقضه وصاياه الى الاخرين . لكنني وقد ترجلت الان فقد شرعت أضع المواد التي سقطت على ظهر البغل ثانية ومن ثم اندفعت الى الجدول لاطفيء ظمأي واهدىء من غضبي في ذات الوقت . واذ حاولت ان اعاود الركوب ، ولم تكن تلك بالمهمة اليسيرة لان ما يحمله الحيوان كان جسيما ومرتفعا ، ولا توجد ركائب أو حجر أو ربوة صغيرة على مقربة منا ، فقد كبا الحيوان بحمله على الارض ، وهكذا لم استطع أول الامر انهاضه الا بعد ان بذلت كل قوتي وحذقي في تحميل المواد ولكن تأثير وثوب الحيوان ورفسانه وتقلبه فوق الارض حين وخزة الدرويش لكي يرميني قد ادى الى انفراط عقد المواد التي كان يحملها وسقوطها من على ظهره كلها حين كان واقفا . ومما زاد الحالة سوءا انني تركت اللجام كيما استعمل يدي للاحتفاظ بالصناديق فاذا بالبغل يثب وثبة سريعة فيشمخ برأسه في الهواء ويرفع ساقيه الاماميتين ويرفس بساقيه الخلفيتين وكأنه يستهزيء بمشكلتي وقد فاز بحريته السعيدة وخلاصه . وحين كان بقية الجماعة قد ساروا بعيدا وظللت انتظر في هذه الحالة المؤلمة ساعتين كاملتين على قارعة الطريق أحرس باحدى عيني البضاعة الملقاة وأتعقب بالاخرى حركات بغلي الشموس الذي أخذ يستمتع بقضم الشجيرات القريبة منا ، هذا بالاضافة الى ما كنت أشعر به من خوف متواصل

بسبب ما كان معي من اموال (وكلها لا تعود الي) قد يسطو عليها قطاع الطرق الذين لا يعجزهم تعقب المتخلفين عن القافلة والسطو على كل ما يستطيعون حمله .

واخيرا مر بي بعض الفلاحين الذين اشفقوا علي فساعدوني على الامساك بالبغل ، واعانوني على اعادة تحميله ، ولولا معونتهم لما استطعت ان افعل ذلك . واذ ذاك امتطيته ثانية وواصلت سفري بينما انصرفوا الى قراهم المنتشرة على مقربة من الطريق .

ومع انني كنت الان وحيدا وعرضة للاذى والسلب من قبل بضعة رجال قد يعترضون سبيلي ، الا انني واصلت سيري بقلب مطمئن على امل ان متاعبي ستزول قريبا . ولذلك ملأت غليوني وانا على ظهر البغل كيما ادخن واعوض بمتعة التدخين ، عن حاجتي الى رفيق . وحين تخليت عن لجام الحيوان بان لففته حول عنقه واشعلت الغليون الذى كان اشعاله يتطلب مني ان استخدم كلتى يدي ، وشرعت بسحب اول نفس من الدخان ، لم يلبث ذلك الحيوان الجموح - وقد تصور ان ذلك الدرويش المؤذي قد اقترب منه ثانية - ان مد اذنيه الى أمام أول الامر ، ثم وقف صامتا لا يتحرك وبعد ان رفع ساقيه الخلفيتين ثلاث أو أربع مرات في الهواء قذف بي من على ظهره وكانت نتيجة هذه الحركة التي لم تكن متوقعة تماما ان سقط الحيوان والمتاع الذي يقله فوقي ، وكدت أتحطم واموت بسبب ذلك . ومر وقت غير قصير قبل ان استطيع انقاذ نفسي من ذلك الوضع لان البغل نفسه وقع في احبولة تشكلت من حزام السرج والاربطة الاخرى فلم يستطع النهوض من الارض هو الآخر . وحين استطعت أن أقف على قدمي بصعوبة وجدت ان الوسق كله كان سالما بسبب أحكام وثاقه . وبمعونتي ، وبما كان لديه من قوة خارقة نهض البغل والوسق فوقه بسرعة مثلما كان قبلا . على ان كل جهودي في امتطائه ثانية قد ذهبت سدى . ذلك لان الصناديق - وهي كبيرة وخفيفة الثقل نسبيا - كانت ترتفع نحوا من ثلاثة او اربعة اقدام فوق ظهر الحيوان .

لقد كان لبغلي المسكين نصيبه من الكوارث مثلي أنا ولذلك عزم ، بكامل ما بقي لديه من حول ، على ان يتحرك ليؤكد بهـذا انه لن يكون مغامرا مرة اخرى ولهذا السبب اجبرت على ان أتحمل النصب والجهد والغضب كما كنت بلا ، وان اقطع بقية طريقي مشيا على الاقدام فكنت امسك بلجام البغل فـي يدي بقوة لاحول دون فراره ، واطعمه الاسواط بدلا من البسكويت !

★ ★ ★

في الساعة الرابعة بعد الغروب دخلت لوحدى قرية « هبهب » وانا اجر بغلي ورائي فأثرت بذلك استفسارات الكسالى وذوي الفضول ، بالاضـافة الى تساؤلات ذوي المرؤوة والعطف عن الحادث الذي وقع لي • وكان مما اثـار التساؤل ذلك الغبار الذي كان يغطيني ، والحالة المزرية لملابسي التي استأجرتها ، والعمامة التي كنت اعتم بها وهي لا تشبه امثالها من العمائم ، وبدلتي التى تهدلت وتحللت • واخيرا نجحت في العثور على مقهى او ملجأ آوى اليه صديقي الشاب سليمان • وبعد ان طرحت عني وعثاء السفر ، واغتسلت من رأسي حتى قدمي ، واعطيت ملابس الممزقة الى من يصلحها لي ، اضطجعت بفرح لاستعيد قوتـي المنهكـة •

كان وقت الظهر قد انتهى من زمن حينما استيقظت لاجد ان الالم الذى اصابني جراء سقوطي قد تعاظم الان اكثر من ذى قبل حتى انني لم اعد استطيع المشي تقريبا • واعرب سليمان عن كل ما لديه من اسـتعداد لتطمين راحتي ، وبذل كل ما لديه من الوسائل التي حفزه اليها قلبه الانساني الرحيم • كنا معا في ذات المقهى التى تقع فى نفس الخان حين شاهدنا الحاج حبيب وصديقه البدين ملا مدينة كفرى لكن احدا منهما لم يتحدث الى جماعتنا • وحين قص عليهمـا ما اصابني اجابا بفرح « هكذا يعاقب الله الذين يخالفون اوامر نبيه ! » •

لم نعبأ كثيرا بغضب لم تكن نتائجه مؤذية ولهذا وعلى الرغم من ذلك أعددنا أنا وسليمان طعاما فاخرا ولم نكن لنرغب في شيء أكثر من أن نظل رفيقي سفر في بعض المناسبات المقبلة •

لم ار من قرية هبهب اكثر من الاجزاء التي مررنا بها اثناء دخولنا اليها وخروجنا منها ولعل ابرز مظهر فيها هو وجود جدول ماء صاف يجرى وسط البلدة وتقوم على جنباته بساتين النخيل التي تتوسطها المساكن المتخمة باليمام • اما سكان القصـبة فيظن ان عددهم ثلاثة آلاف لكن الرقـم الفان أقرب الى الصواب • ولقد دهشت للشبه القوي بين هؤلاء والمصريين فى السحنة والقوام والمظهر والملبس • وحتى اللغة العربية التي كانوا يتحدثون هنا بها كانت في اذنى مقاربة للعربية التي يتكلم بها المصريون • كما ان مظاهر الريف الممتـد بامتداد دجلة أشبه بالارض المصاقبة لنهر النيل •

كانت هبهب اول مكان رأيت فيه ـ خلال رحلاتي في البلدان الاسلاميـة التي تشتهر الان ـ الفتيان يعرضون بصورة عامة ويؤخذون على حدة للتلـوط بهم • والحقيقة انني كنت أسمع بوجود أماكن عامة لممارسة مثل هـذه الاعمال المخزية في اسطنبول لكنني كنت اشك في صحتها دواما •• لقد رأيت بام عيني هنا صبيا اعد لاغراض لا يصح وصفها بل ان مجرد وصفها يثير الفزع في الدماغ • لم يكن ذلك الصبي مشهورا بجماله فقد كان وسخا وثيابه مهلهلة • فهو يرتدي لباسا عربيا ويضع على رأسه كوفية من الحرير تتدلى على رقبته ومع ذلك كان يلبس جميع الحلي الفضية التي تتزين بها النساء • وكان يعرض من مـزود سفره على الجالسين في المقهى ملابس ثمينة من الحرير وحلى ذهبية يتجمل بها في الحالات الخاصة • كان ذلك الصبي في حدود السنة العاشرة من عمره وقحا متحركا كثير التذلل والخنوع في سلوكه • كان يتعلق بالاشخاص الجالسين في المقهى ، ويجلس في أحضانهم ، ويغني لهم أغاني غير مفهومة • لكن أحدا منهم ـ كما علمت ـ لم يجاهر **بالاقتراب منه** •

والواقع ان كثيرا من الجماعة قد أصروا بأن مثل هذه الاعمال ليست موجودة في تركيا ، وان الغرض الذي يقصد اليه من عرض امثـال هذا الصبي هـو الغناء والرقص واثارة الابتهاج ولذلك يدرس اولئك الفتيان طرق الانشـاد ، ويلبسـون افخر الثياب •

على ان البعض قد اعترف صراحة بان جريمة اللواط ليست مجرد فعل موهوم .

كان هذا الصبي في رعاية شاب اكبر منه سنا يسافر معه ويقاسمه الارباح من وراء عرضه واستعماله .

ولما كان من العسير ان يحكم على أخلاق بلد من البلدان وعوائده بدقة من دون الاستعانة على ذلك بالحقائق التي تخص الطبيعة المبحوث عنها ، ومنها ما هو اشد تحقيرا ، فقد شعرت ان من واجبي كانسان يراقب الطبائع البشرية ان اسجل هذه العلامة عن الفجور بطريقة انقل بها وصف الحالة من دون أقل اعتراض عليها ، وهو امر يستطيع الدارس للتأريخ القديم ان يتذكر اضرابه في الصفات القديمة لكن لا يحتمل الكثيرون من المحدثين الان تصديقه علانية .

* * *

تهيأنا للرحيل ، مثل الحالات السابقة ، بعد صلاة العصر ، وفي أشد ساعات النهار حرارة . على ان بعض الاسباب ادت الى تأخير رحلينا . ولذلك فلم نركب دوابنا ، ونبدأ السير الا في الساعة الرابعة .

ولما كنا نسير باتجاه الجنوب الغربي فقد مررنا بعدد من القرى الصغيرة تقبع بين بساتين النخيل ، وعبرنا عدة قنوات للمياه فوق قناطر من جذوع الشجر . وكانت احدى هذه القناطر متحركة الى درجة ان احد البغال سقط من فوقها بحمله وبراكبه معا ولم نستطع ان ننقذه من الاختناق في الماء الا بمشقة .

بعد ان غادرنا قصبة هبهب بساعتين بلغنا الضفة الشرقية لنهر دجلة . وقد بدا لنا ان عرض النهر هنا بقدر عرضه في مدينة الموصل ، ويكاد لا يزيد عنه كثيرا .

توقفنا عند الشاطيء لاداء صلاة المغرب ، ولندع دوابنا ترد الماء وترعى خلال فترة مكوثنا القصيرة هناك . وحين ركبنا ثانية واصلنا السير باتجاه الجنوب مع انحراف قليل اذ كنا نتعقب النهر المتعرج ، ونسير بمحاذاته .

السادس عشر من تموز :

على الرغم من وجود مثل هذه الضفاف الخصبة الواسعة لذلك النهر فلم نشاهد على جوانبها ما هو أكثر شرورا ومللا من الركوب فيها ليلا . لقد تخلينا عن ضفاف دجلة بعد منتصف الليل مباشرة لأنه كان ينثني نحو الجنوب واذ أخذ يقترب الآن من الحاضرة الكبيرة للريف المحيط به فقد كان الطريق الذي اجتزناه يضم أجزاء واسعة من أرض صحراوية غير منتجة أكثر مما هي أرض خصبة مزروعة كما اننا لم نر قرى ولا بشرا طيلة مسيرتنا عدة ساعات .

وحين اطلت اولى اضواء الفجر استطعنا ان نلقي اول نظرة على بغداد التي كانت تبعد عنا زهاء أربعة أو خمسة أميال وكانت تبدو – كما لاحت لنا – وكأنها تقوم على سهل مستو لاتظهر فيه اية مناظر بارزة سوى قباب مساجدها ومآذنها ولم تكن هذه القباب كبيرة ولا متعددة كما كنت أتوقع ان أراها هكذا وهي تنهض من هذه العاصمة الفخورة التي كانت امبراطورية في وقت من الاوقات تمتد من اعمدة هرقل [18] الى سور الصين ومن البحر الهندي الى البحر المنجمد .

وحين طلعت الشمس وصلنا باب مدخل المدينة وقد تجمع خارجه عدد كبير من الفرسان العرب والاتراك للمباراة كما وقف بالقرب منهم جمع أكبر من المشاة يمثلون حرس الباشا الذي كانوا يتوقعون عودته في أية لحظة من رياضته الصباحية على صهوة جواده .

واذ أوقفت عند الباب من قبل الضباط الذين يراقبون دخول السلع المهربة وخروجها ، فقد ترجلت ليفتشوا ما كان يحمله بغلي من متاع . واذ علموا ان البضاعة والبغل لا يعودان الي احتجزوني الى ان يأتي صاحب البغل بنفسه كيما يرد على الاسئلة التي قد توجه اليه . وقد تحقق لي ان الحاج حبيب الذي اندفع بين أول حشد يدخل الباب كان يحمل بضاعة مهربة وبهذه الواسطة استطاع ادخالها . كان اعتقادي ان سبقه اياي في اجتياز المدخل لم يكن سببا كافيا لتأخيري كما ان الضباط لم يفتشوا الحمل بحضوري حين اعترفت لهم بانه لايعود لي ، ولم يجبروني على ان اترك البغل في رعاية شخص آخر ، واذهب الى حال سبيلي

وهكذا بقيت انتظر بمذلة عند باب تلك المدينة الكبيرة ، فجلست مثنيا ركبتي على الارض المتربة ممسكا بعنان البغل الذي ظل حتى النهاية جموحا مشاكسا لكي اطلق سراحه .

ولقد اشعلت غليوني لاخفف بتدخينه من وطأة هذا الاعتقال لكن أحد الجنود الاتراك اختطفه مني بسرعة وأطفأه وهو يسألني ، في الوقت ذاته كيف تجرأت على ارتكاب مثل هذا الاخلال باداب اللياقة لان الباشا كان على وشك ان يمر من هناك .

وفي هذه الاثناء دخلت تلك الشخصية يتقدمها رعيل من حرسه المؤلف من المماليك الجيورجيين وهم يرتدون فاخر الثياب ، ويمتطون الجياد الجميلة حسنة التجهيز،ثم اعقب ذلك رعيل آخر من الجند المشاة كان يحملون البنادق الانكليزية التي اشتروها مع غيرها من الملابس من الانواع التي كان حرس المقيم البريطاني يستعملونها،ولكنهم كانوا يضعون على رؤوسهم طاقيات كبيرة من الفرو كروية الشكل خشنة المظهر ، بينما كان سيرهم يدل على فقدان النظام والاتساق .

كان القليل من الطبول والابواق القصبية هي الآلات الموسيقية الوحيدة . وكانت الاصوات المنبعثة منها ليست مقبولة على ان شيئا ما لم يقض على الرهبة التى اشاعها مرور الباشا لدى كل من شاهدوه وتلك حادثة بارزة دون ريب .

كانت على مقربة من الباب مقهيان كبيرتان امتلأت مقاعدهما بالمئات من المتفرجين ومع ذلك فلم يشعل فيها غليون دخان ،ولا قدم قدح من القهوة ، ولا انطلقت كلمة واحدة في تلك اللحظة الرهيبة .

كان كل واحد من الحاضرين قد نهض من مقعده ، وراح يحني جسمه الى امام او يرفع يده الى شفتيه ثم يضعها على جبينه فقلبه بمنتهى الاحترام .

ومع ان الباشا كان نادرا ما يدير رأسه ، أو عينيه عن النظر باستقامة الى امام ، الا انه كان يرد على تلك التحيات برشاقة عظيمة . وكان كل شيء يجري بمنتهى التؤدة واللياقة .

وفي نهاية هذا الموكب مر الدكتور « هاين »[١٩] والمسيو « نيللينو » طبيب المقيم البريطاني ببغداد وامين سره على ظهر جوادين على مقربة مني حين كنت جالسا وقد غمرني الغبار المتطاير من حوافر جواديهما .ومع انني عرفت شخصيتيهما لاول لحظة من ملبسيهما ، ومن سماعي حديثهما بالانكليزية وهما يمران من امامي ومع انني احسست بالمذلة التي هبطت اليها وانا في غاية الكدر، فقد بيت ان اعرفهما بنفسي وانا في مثل تلك الحالة وفي مثل ذلك الحشد من الناس .

وحين انتهى مرور الموكب تماما ، وعاد كل انسان الى شوءنه الخاصة ، رحت اضغط على الجند لاطلاق سراحي من ذلك المعقل البائس الذي احتجزت فيه ، غير ان ذلك التوسل لم يعد علي الا بالشتيمة ، واتهامي بانني متشرد احمق يروم التخلي عن اموال الرجل الذي كنت اركب بغله ، كيما اتخلص بذلك من دفع الاجرة اليه .

وتوالت الشتائم والكلمات القاسية ، واخيرا نجحت التهديدات وكلمات السباب اكثر مما كنت اعتقد بان الكلمات الرقيقة قد تؤديه . ولما لم استطع احتمال اكثر مما كنت قد تحملته فقد سحبت بندقيتي من حزامي وهددت ان كل من يعاكسني سيعرض حياته للخطر وهكذا اقتدت بغلي منتصرا وسط لعنات الحراس على وقاحتي ، بينما تعالت هتافات العوام واصواتهم بالفرح لانني تغلبت على طبقة ينظر اليها المضطهدون على يديها نظرة المقت والكراهية .

* *

اقتدت البغل الى مقر سعاة البريد (قوناق تراغاسي) وما ان قدمت نفسي هناك بأنني أحد الانكليز (وهو ما لم يعرفه حرس الباشا) حتى عوملت بمنتهى الاحترام ، وسمح لي بان اترك الحيوان هناك ليتم تسليمه الى صاحبه من دون ان يتطلب ذلك عناية من قبلي . واذ انتظرت هنا الى ان ارسل وراء الساعي يونس الذي فارقنا في الطريق ، نعمت بما قدم الي من القهوة والدخان والشربت بالاضافة الى الثناء العطر الذي أثنى به الحاضرون على الانكليز عامة ووعلى ممثلهم الشهير في بغداد بصفة خاصة [٢٠] وحين وصل يونس في النهاية أخذته معي الى منزل المستر ريج الذي أوضحت له بالتفصيل مسلكه معنا خلال الطريق

والمصاعب التي عانينها بسبب ذلك • وقد اكد لي المستر ريج بانه سيتخذ الاجراء الصحيح ازاء المسلك الخائن الذي سلكه ذلك الساعي •

كان الاستقبال الذي لقيني بـه المستر ريج حارا ووديا الى أعلى درجة • فقد وجدت انه قد هيأ لي احدى الشقق ، ووضع الخدم تحت تصرفي • والواقع انه هيأ لي كل أسباب الراحة في البيت وظل يغمرني بالترحيب الحقيقي المتواصل

وبعد ان امضيت بعض الوقت في الحديث مع المستر ريج ، قادني احد الخدم الى الحمام وبعد ان استمتعت فيه عدت فامضيت يوما في سعادة نادرة في احضان ذلك المجتمع الرقيق الودود الذي كان يمثله المستر ريج وزوجته وبقية أفراد العائلة •

شروح تعليقات المعرب على الفصل السابع

(١) دللي عباس وقد كتبها الرحالة خطأ باسم دلهي عباس **Delhi Abbass** وتدعى الان باسم المنصورة • وهي احدى نواحي قضاء الخالص في لـواء ديالى وتقع على نهر الخالص وتبعد عن مدينة الخالص مسافة سبعة واربعين كيلومتـــرا •

(٢) اودورينـه **Odorneh** توجد اخطاء كبيرة لدى الرحالين والمؤرخين القدامى بشأن هذا النهر • فقد اطلق بعض المؤرخين القدامى هذا الاسم على نهر الزاب ومنهم المؤرخ « بليني » الذي سماه باسم تورنودوتس **Toronodotus** ووقع في ذات الخطأ الرحالة الفرنسي دانفيل الذي اطلق على نهر الزاب اسم دورنيه اما الرحالة تافرنيه فقد اطلق على نهر العظيم اسم اودورن • والحقيقة ان دورنيه يطلق على نهر « العظيم » الذي يتألف من فرعـــي « خاصة صو » و « آق صو » وهو الذي يمر من طوز خرماتو ويعبر جبـال حمرين ثم يجتاز هذه المنطقة التي تعرف باسم الغرفة فيصب في نهر دجلة شمالي بغداد على مقربة من ناحية « بلد » ولنهر العظيم في اليونانية اسم اخر هو فسكس **Physcus** •

(٣) سماها المؤلف توز خرمة **Touz Khoorma** وهي نفسها طوزخرماتو •

(٤) كتبها بكنغهام توز كرما **Touz Kourma** •

(٥) وقع بكنغهام في هذا الخطأ لان حين مر بمدينة طوزخرماتو سماها كولماني وهو تحريف لكلمة طوزخرماتو ولكنه لم ينتبه الى هذا التحريف ولذلك نفي وجود بلدة باسم طوزخرماتو •

(٧) هرقل **Heraclius** امبراطور الرومان وخسرو **Chosroes** هو كسرى ملك الفرس ، ودستاغرد **Dastagerd** هو القصر الذي بناه كسرى في

الموقع المعروف سابقا باسم « قزلرباط » ـ وهو تحريف لكلمة (كسرى اباد) ـ والتي تعرف الان باسم ناحية السعدية •

(٩) هناك خلاف كبير بين المؤرخين والجغرافيين القدامى بشأن موقع مدينة اوفيس Opis فالبعض منهم يضعها على نهر العظيم والبعض الاخر يضعها على نهر ديالى وفي اعتقادي ان هذا الخطأ ناشيء عن الخطأ في تحديد موقع نهري العظيم وديالى •

والشيء المحقق هو ان مدينة اوفيس كانت تقع على نهر ديالى الذي يعرف باسم جنديس وان موقعها قريب من منطقة الرستمية الحالية او قبالتها ولذلك فان المقصود بنهر اوفيس هو نهر ديالى ليس الا •

(١٠) اخطأ بكنغهام هنا اذ ظن ان بطليموس اطلق اسم غورغوس على نهر العظيم والثابت ان بطليموس اطلق هذا الاسم على نهر الزاب الصغير وليس على نهر العظيم •

(١١) ارستياغورس Aristagoros قائد ومغامر يوناني توفى سنة ٤٠٧ ق.م. هو ابن عم حاكم ملتوس وعين وصيا على هذا الاقليم وفي سنة ٥٠٠ ق.م. اقنع الفرس في الانضمام اليه لمهاجمة ناكسوس الليدي لكنه تخاصم مع القائد الفارسي الذي شارك في تلك الحملة • وقد ذهب ارستاغورس الى اليونان لاقناع الاثنيين بمساعدته وارسال قوة لاحراق مدينة ساردیس عاصمة ليديا • وهذا التدخل من اثينا هو الذي حمل داريوس ملك فارس على ان يغزو اليونان سنة ٤٨٠ ق.م. وقد قتل ارستاغوروس في هجوم على احدى القبائل في تيراس •

(١٢) ساردیس Sardis هي عاصمة مملكة ليديا القديمة التي كنت قائمة في اطراف ما يعرف الان باسم ارمينيا وملك ليديا الذي هاجمه كورش هو الذي ورد اسمه في القرآن الكريم باسم « قارون » •

(١٣) سوسة او شوشة Susa هي عاصمة مملكة عيلام الفارسية •

(١٤) نهر جنديس Gyndis يقصد به نهر ديالى وهو يسمى ايضا باسم جنديز وجندير •

(١٥) هو الميجر رنل Major Rennell مؤلف كتاب مصور جغرافية هيردوتس •

(١٦) لا يوجد في مندلي بالمعنى المعروف كلمة النهر وكل ما في الامر ان بعض العيون تتفجر في جبل « بشت كوه » الايرانية فتنساب في واد فسيح لتؤلف نهيرا يمر بقصبة مندلي ويسميه الاهلون هناك باسم « كنكير » •

(١٧) سوسيانه Susiana يقصد به اقليم سبحستان الذي يقع في اواسط ايران ويمتد من منطقة كرمنشاه الى الشرق •

(١٨) اعمدة هرقل Pillars of Herclius يقصد بها حدود المملكة البزينطية في الاستانة وهي التي وقف عندها الفتح الاسلامي في مرحلته الكبرى ايم العباسيين •

(١٩) الدكتور هاين Dr. Hine والدكتور نيللينو Dr. Nellino من اتباع المقيم البريطاني « ريج » في بغداد ومن المستخدمين لديه في المقيمية ذاتها •

(٢٠) يقصد المؤلف به هنا المقيم البريطاني المستر كلوديوس ريج الذي تولى منصب المقيمية في بغداد في الفترة ما بين سنة ١٨١٤ و ١٨٣٢ •

الفصل الثامن

وصف بغـــداد

العشرون من تموز :

كان الانتقال من الطريقة غير اللائقة للحياة الى مثل تلك الراحة الوفيرة ، بل الرخاء الذي لمسته في منزل السيد ريج وزوجته وبهجة المجتمع النبيل الذي كان يحيط بي ، كافيا لان يعوضني عن كل المنغصات التي عانيتها في الطريق • ولذلك دأبت على الاستمتاع بتلك المباهج من دون انقطاع عدة ايام قبل ان اشعر حتى بالرغبة في اشباع حب الاستطلاع والذي يصبح بصفة عامة هو الملاذ حين الدخول الى مدينة واسعة وشهيرة •

استفدت هذا الصباح من بعض السادة الذين اعتادوا الخروج على ظهور الخيل فصحبتهم ممتطيا صهوة جواد حيث هبطنا بامتداد المدينة طولا مجتازين بذلك الباب الشرقي ، ومستديرين حول الاسوار كيما نعود من الباب الشمالي الغربي الذي يكون منه الدخول الى المدينة ويؤدي من هناك الى الموصل • ثم انقضت بقية النهار في التجوال داخل المدينة بصحبة ادلاء المقيم المحليين •

ومن هذه الجولة والمعلومات التي حصلت عليها من المصادر الاخرى خلال الايام القلائل التي امضيتها في بغداد ، استطعت ان اجمع المعلومات التالية بعناية ،

وهذه المعلومات وان لم تكن كاملة الا انها حقيقية او انني اسـتطعت ان اجعلها هكذا على الاقل •

تقع مدينة بغداد على سهل مستو على الضفة الشمالية الشرقية من نهر دجلة، وبذلك يكون احد جوانبها ملاصقا لضفة النهر •

وقد بدا لي ان المخطط الذي رسمه لها (نيبور) كان صحيحا على وجه العموم بالنسبة لشكل المدينة ، وسعتها ، والضواحي المحيطـة بها ، والتخطيط المجمل الذي يفي الوصف بتقديم تفصيلات دقيقة عنه •

والسور الذي يحيط ببغداد يحمل من الدلائل ما يبرهن على انه قد تم تشييده واصلاحه في فترات عديدة متباينة ، وان اقدم جزء فيه ، هو افضل الاجزاء ، كما هو الامر في معظم الابنية الاسلامية وان الجزء المتأخر بناؤه منه اسوأ من سواه •

والسور مشيد كله بالآجر ، ومن انواع مختلفة طبقا للعصر الذي شيد فيه • وله ابراج كبيرة مدورة تقع عند الزوايا الرئيسة فيه ، واخرى صغيرة تقع على مسافات قصيرة بين احدها الاخر وعلى ابعاد بينها تتراوح بين الكبر والصغر • وقد اقيمت على الابراج الكبيرة بطاريات جهزت بالمدافع البرنزية ذات عيارات متباينة ، وتركت من دون انتظام ، ولا يزيد عددها عن الخمسين بمـا في ذلك التحصينات الموجهة نحو المنطقة الخالية في المدينة •

وللمدينة ثلاثة أبواب للدخول والخروج منها ، أولها يقع في الجنـوب الشرقي ، والثاني في الشمال الشرقي ، والثالث في الشمال الغربي من المدينة • والباب الاخير منها هو الباب الرئيس لانه يمتد من طريق كثير الحركة الى جزء مأهول اكثر نشـاطا من غيره من اجزاء المدينـة ، ويضم ارضا اعدت للعبـة « الجريد »[1] التركية ، وسوقا كبيرة ، وقصر الباشا الذي يقع على مسافة غير بعيــدة •

ويحيط بالسور كله خندق لا ماء فيه ذو عمق ظاهر لكن لا يوجد في هذا الخندق اي بناء او اي نوع من المشتملات •

واحسن انواع البناء القديم الباقية في الاسوار تبدو ظاهرة في اثنين من البروج الواقعة في الزوايا وعلى مسافة غير بعيدة من باب الوسط • فهذان البرجان فخمان في الحقيقة وجودة الآجر الذي شيدا به وهو من اللون الاصفر ، ودقة تركيبه تضارعان اي بناء قديم كنت قد شاهدته قبلا • والكتابة المستطيلة التي تحتل شريطا عريضا في الجزء الشمالي من هذين البرجين قد خطت باحسن خط عربي قديم • ولم يظهر من صفة تلك الكتابة انها كانت ذات الكتابة التي استنسخها « نيبور » من احد الابراج ويظهر من هذه الكتابة ان الخليفة الناصر[٢] هو الذي شيدها في سنة ٦١٨ للهجرة او سنة ١٢٢١ للميلاد •

والارض الممتدة شمالي بغداد وشرقيها على مدى الرؤية عند الاستدارة حول اسوارها ارض مستوية خالية يندر وجود شجرة او قرية فيها ولكن حين تتقاطع الطرق داخل هذا السهل تنتعش الحركة فيها بظهور الجند وكتائب الفرسان يمرون داخلين الى المدينة وخارجين منها طيلة ساعات النهار •

والمناظر القائمة داخل المدينة لا تثير الاهتمام بالشكل الذي يتوقعه المرء من الشهرة التي نعمت بها بغداد كعاصمة لامبراطورية شرقية لها غناها واهميتها • ذلك ان مساحات واسعة من الارض الواقعة ضمن الاسوار لا توجد فيها أبنية ولا سيما الجانب الشمالي الشرقي منها • وحتى في الموقع الذي تكثر العمارات فيه وعلى الاخص الحي المأهول اكثر من غيره والذي يقع على مقربة من النهر ، ترى فيه اشجار وفيرة • ولذلك فعند النظر من شرفات المنازل القائمة ضمن الاسوار الى هذا الحي يبدو وكأنه اشبه بمدينة تبرز من وسط بساتين النخيل ، او انه اشبه بما كانت عليه بابل كما يظن ، اي انه اقليم مسور وليس مدينة واحدة • وجميع الابنية، العامة منها والخاصة، مشيدة بالآجر وهو من اللون الاحمر المصفر ، والحجم الصغير ، والزوايا المدورة ويدل معظم الآجر على انه قد استعمل قبلا بصفة مستمرة ، او انه ربما نقل من خرائب احدى العمارات لبناء عمارة ثانية ، كيما تتألف من الاجزاء المنهارة عمارة ثالثة •

وفي حالات قليلة ، وحين يكون الآجر جديدا ، يبدو منظر هذه العمارات

نظيفا ومنسقا على عكس الآجر القديم ولو ان هذه لا تزال تشبه الحجر في اوصافها •

وشوارع بغداد ، كما هو شأن كل البلدان الشرقية الاخرى ، ضيقة غير مبلطة يتألف جانباها عادة من جدارين خاليين من المشاغل يندر فيها وجود النوافذ التي تنفتح على الشارع العام ، في حين تكون ابواب المساكن صغيرة وضعيفة •

وهذه الشوارع اكثر التواء وتعرجا مما هو موجود منها في كثير من المدن التركية الكبرى • وما خلا بعض الاسواق المستطيلة المستقيمة ، وبعض الساحات القليلة المكشوفة ، فان داخل بغداد يؤلف عقد ممرات وأزقة •

والسراي ، او قصر الباشا ، يتألف من بناية واسعة وليست كبيرة تقع في الحي الشمالي الغربي من المدينة غير بعيدة عن ضفة نهر دجلة ، وتضم داخلها معظم الدوائر العامة ذات المرافق الواسعة لحاشيته ، واصطبل جياده ، وخدمه وهذه البناية عصرية نسبيا ، وهي بما اضيف اليها في فترات متباينة تؤلف مجموعة كبيرة من بناء غير منتظم لايبرز فيه شيء من جمال فن البناء ، وقوته ، او اهميته •

والمساجد هي الابنية الشهيرة على الدوام في المدن الاسلامية • وقد بنيت هنا على طراز يختلف عن بناء المساجد التي ترى في معظم الاجزاء الاخرى من تركيا •

ويظن ان اقدم هذه المساجد هو « جامع سوق الغزل » وقد سمي بهذا الاسم لوقوعه في السوق التي تباع الغزولات القطنية فيها *[٣] ويبدو ان الهيكل الاصلي للبناية قد دمر بفعل التصدع ولم يبق منه في الوقت الحاضر سوى المئذنة وجزء صغير من الجدران الخارجية واول هذه الجدران عمود قصير سميك ثقيل من اجزاء غير لائقة بنيت من آجر متقاطع بشكل زوايا منحرفة ومختلف الوانه كما هو الامر في منارة الجامع الكبير في الموصل • فلولب المرتقى الى الايوان الذي

* الجامع هو الاسم العربي للمسجد ، والسوق هو اسم السوق العامة او البازار ، وغزل اسم خيوط القطن وهو يختلف عن كلمة « غزال » التي تعنى الظبي الصحراوي وكان هذا السوق اثناء مروري به مزدحما كثيرا بالنساء وباعة هذه السلعة • وكان المنظر فيه فوضى ولذلك لم تكن مشاهدتي للمسجد كاملة •

يعلن منه الاذان لاقامة الصلاة يبدأ من اسفل وسط العمود ، ومن هناك يرتفع في سلسلة محاريب ذات اقواس مدببة تدلى زخارفها كالرواسب الكلسية المتدلاة من الكهوف الى ان تبلغ حوالي ثلثي ارتفاع العمود ، ثم تتلاشى بالتدريج وتنتهي عند الايوان الذي سبقت الاشارة اليه • ويكون جزء العمود الذي يعلو هذا قصيرا وذا رأس مدور • والمأذنة كلها تختلف تماما عن المآذن التركية في سوريا ، كما انها تختلف بصفة اكثر عن المآذن الخفيفة الانيقة التي تشاهد في انحاء كثيرة من مصر • والسطح الخارجي لهذه المأذنة يحمل هو الآخر دلائل التصدع ، لكن الجزء الباقي منه يشير الى أن بعض أجزائه الاخرى كانت مزينة بالنقوش العربية المدهشة ، وان احدى الكتابات التي نقلها نيبور بمساعدة أحد الملالي العرب تبين ان المسجد قد شيد من قبل الخليفة المستنصر سنة ٦٣٣ للهجرةالموافق لسنة ١٢٣٥ الميلادية ، أي بعد حوالي أربع عشرة سنة منتأريخ اقامة البرج الذي يرى فيالسور الخارجي للمدينة ، والذي سبق وصفه [٤] •

وجامع مرجان[٥] ، وهو مسجد لا يبعد عن هذا كثيرا ، فيه آثار مساوية في القدم لآثار جامع الغزل وواجهته غنية بالنقوش العربية • وهيكل المسجد نفسه حديث ولايظهر القسم الداخلي شيئا بارزا ، لكن باب مدخله جميلة جدا •

وهذه الباب مؤلفة من قوس عال ينتهي كل جانب منه بسلسلة من اشرطة فخمة منحوتة نحتا رائعا ، ترتفع على الجانبين ثم تلتقي معا عند القمة وبنفس شكل القوس ذاته تقريبا • وفي أعقاب آخر هذه الاشرطة قائمة كبيرة ذات قطر كاف يمكن اعتبارها عمودا لكنها لاترتفع الى تاج الاشرطة الصغيرة لتي سبق وصفها • وهذه القائمة مخططة بصفة لولبية على امتداد ارتفاعها وتبدو على الاجزاء البارزة من هذه التخطيطات كتابات وتقوس دقيقة بذل جهد كبير فيها كتبت بنسق العصر الذي وجدت فيه • وهناك فيض من الكتابات التي يستطيع اي امرىء نقلها اذا نهيأ له الوقت اللازم لهذا العمل الذي يتطلب عدة اسابيع على الاقل •

وواضح ان سوق « البغتة » أو سوق الموسلين[٦] الذي يتألف من شارع طويل يمتد من هذا المسجد ، قد انشيء في ذات العصر •

ولقد لاحظت في هذا السوق خاصية لم ار مثلها في مكان آخر وهو وجود شريط من كتابات عربية قديمة تعلو عتبة كل حانوت وقد حفرت بحروف كبيرة واعتني بها مثل اي من الكتابات الموجودة في المسجد • ولقد نقشت هذه الكتابات بنسق وانتظام الى درجة تحمل المرء على الاعتقاد بانها كانت معاصرة للسوق نفسه وهو قديم جدا ولكن هل ان هذه الكتابات تحمل أسماء الذين اشغلوا تلك الحوانيت عند افتتاحها وهل انها تضم بعض العبارات المقدسة او تشير الى تاريخ تأسيسها ؟ أن نظراتنا الخاطفة اليها لم تدعنا نتأكد من ذلك •

وجامع الخاصكي اشبه بالجامعين السابقين لكنه لم يبق من صرحه القديم سوى جزء صغير • وفي الجزء يرى محراب الصلاة وهو شهير حقا • وهذه المحاريب تكون بصفة عامة بسيطة وغير مزركشة وهي ترشد المصلين الى الكعبة في مكة وفي الوقت ذاته لتعبر عن الرهبة من الله التي يفترض التعبير عنها بابقاء هذه المحاريب بسيطة وخالية تماما بخلاف امثالها في معابد الكفار التي تمتليء بصور الاشباح والمخلوقات البشرية • ومحراب هذا المسجد وهو ذو شكل مجوف واعتيادي يتوجه قوس روماني ، يقوم على عمودين صغيرين • وهذان العمودان لهما قواعد مربعة وأعمدة مخططة بخطوط لولبية وبكميات كبيرة من الازهار أشبه بمجموعة زاهية وفيرة • وحول الرواق يمتد من عمود الى آخر افريز منحوت يشبه الافريز القائم على الاثر الروماني الذي يدعى قبور الملوك في القدس ، وعلى باب القصر الروماني «بالقنوات»[٧] في سهول « حوران »[٨] وعلى غيرها من المعابد الرومانية والكنائس المسيحية الاولى التي رأيتها ووصفتها اثناء رحلتي عبـــر الاجزاء الشرقية من سوريا •

ولعل اعظم مظهر لهذا المحراب هو المروحة الجميلة او قمة الهيكل المماثلة لما يرى منها « تدمر » و « بلعلبك »[٩] اكثر مما تشبه تلك التي عثر عليها في « جرش » و « عجلون »[١٠] ولكن ذلك كان على النمط الروماني وليس على النمط العربي • ولقد تذكرت بهذه المناسبة مثل هذا المحراب القائم خارج باب الدخول الى قلعة « بصري » في حوران[١١] والذي يستعمله المسلمون القيمون

في تلك المدينة المخربة لاقامة الصلاة لانه يتجه نحو الكعبة رأسا • ولقد ظننت أول الامر ان ذلك الموقع كان منزلا رومانيا للحراسة العسكرية ثم تحول من وظيفته المحلية الى غرضه الحالي •

ولما كانت هناك اسباب قوية تحملنا على الاعتقاد بان هذه القلعة قد انشئت من قبل المسلمين على أنقاض أحد مسارح نبلاء الرومان ، فان منزل الحراسة هذا يفترض فيه ان يكون هو المصلى بمحرابه ذاك كما تشاهده هنا في الساحة التي لا يشك كثيرا في وجودها في جامع الخاصكي ببغداد • وفي الجزء الاسفل من مؤخرة هذا المحراب يمتد شريط واسع مزين بالمزاهر والورود وما سواها من حفر بمنتهى الدقة والمهارة ، فوق مرمر ابيض اللون محبب جميل* •

والبناء الظاهر داخل المسجد يبدو انه من تأريخ متأخر كثيرا عن اصل البناء • فهو لم يكن بسيطا حسب بل وضعيفا ولو انه يضم بعض الكتابات العربية بحروف حسنة بارزة واحداها بالخط الفارسي المتقطع المائل • اما المئذنة فالواضح انها من بناء القرن الحاضر وهي لا تظهر أي شيء ملموس لا في بنائها ولا في شكلها كما هو شأن الابراج الاخرى في المدينة وقد رصف ظاهرها بالقاشي المختلف الالوان من اخضر واسود وغيرها وامتزج بالآجر الذي شيدت منه •

وجامع الوزير الذي يقع على مقربة من النهر ولا يبعد سوى ياردات قلائل عن باب الجسر ، له قبة جميلة ومئذنة عالية • والجامع الكبير الذي يقوم في ساحة الميدان على الطريق من الباب الشمالي الغربي الى القصر ومقر المقيم البريطاني ، هو الاخر من الابنية الشهيرة ، غير ان معظم الجوامع الاخرى والتي لم تتسم هنا بصفة خاصة ، ذات مظهر متشابه نسبيا •

ويقال ان قباب بغداد مشيدة حسب الذوق الفارسي ، وان اختلاف اشكالها

* ان المزيج من فن العمارة الروماني والاسلامي والنحت فى ذات الابنية سبق ان اشير اليها بصراحة فى هذا المجلد والمجلدات السابقة له والتى بحثت فيها مختلف انظمة العمارة •

واساليب زخرفتها عن القباب التركية والعربية كانت احدى المميزات التي لاحظتها في اللحظة التي كنت أدخل المدينة فيها •

فهناك اثنتان أو ثلاث من القباب الهامة ذات شكل مستو وسطح منبسط • اما القباب الرئيسة بينها فهي عالية ضيقة ، وارتفاعها يتجاوز قطرها بحوالي النصف وهي مزخرفة بالكثير من القاشي المزجج والرسوم ومعظم الالوان المستعملة فيها هي الاخضر والابيض •

وقد خطت بعض الكتابات بمثل هذه الطريقة المدهشة في شرائط تلتف حول قاعدة القبة • وتألق الالوان التي يعكسها الوجه الصقيل يبعث في البناء البهجة والحيوية اكثر مما يبعث الجلالة والفخامة •

ومع ان حداثة هذه الابنية متفق عليها بصفة عامة فان هذه القباب الفارسية بدت لي في أول نظرة وعند تكرار النظر اليها ، أكثر شبها بالقباب الفخمة البارزة في مصر ولاسيما في قبور المماليك في القاهرة •

اما المآذن التي زينت بذات الطريقة ، والتي تظهر نفس المشابهة الخلابة في الالوان ، فلا يمكن مقارنتها ببعض الابراج التركية البسيطة ذات الميزة البارزة الموجودة في ديار بكر ، وحلب ، ودمشق ، كما لا تقارن بالاناقة التي تتحلى بها الكثير من المساجد في المدن الكبرى الواقعة على ضفاف النيل •

ويرتفع فوق قباب بغداد ومنائرها قضيب مرتفع أخضر اللون ، ينتهي بكرة يرتكز عليها هلال ، وهو الشكل الذي تعرض به المناظر الشرقية على المسرح الانكليزي • وهذا يرى بكثرة هنا ولو انه ليس منتشراً في جميع أنحاء تركيا • ويعتقد ان عدد المساجد في المدينة يتجاوز المائة لكن لايوجد من هذا العدد اكثر من ثلاثين مسجدا تعرف بمنائرها أو مسلاتها ، اما البقية فهي محض معابد أو اضرحة او اماكن محترمة اعدت لاقامة الصلاة •

ويبلغ عدد الخانات أو « كروان سراي » زهاء الثلاثين لكنها جميعها مشابهة في بنائها لما هو موجود منها في ديار بكر أو اورفه • وأحد هذه الخانات يدعى « خان الاورطمة »[١٢] وهو شهير لان فيه اروقة كبيرة وصغيرة قائمة لكل منها

سلسلة متداخلة من تضاريس مسطحة الشكل وسطية تخالف طريقة الخانات التي سبق وصفها في الموصل • والبناء يحمل دلائل قدمه وقد احسن تشييده من آجر معتم اللون وملاط ابيض ، وهو يحوي الزخارف المعتادة في زمن العمارة العربي والتركي على صفة نقاط من الرواسب وتجاويف معلقة وما شاكلها •

والاسواق متعددة ومعظمها تتألف من أزقة طويلة مستقيمة ذات عرض معتدل • واحسن هذه الاسواق معقودة من اعلى بالآجر • غير ان اكبر عدد منها مسقف باخشاب منبسطة تمتد في الوسط من جانب الى آخر وذلك لتدعيم السقف المصنوع من القش والاوراق الجافة أو أغصان الاشجار والحشائش • والحوانيت في هذه الاسواق مزودة جيدا بالسلع الهندية • غير ان هذا الجزء الذي توقعت ان اجده من احسن اجزاء بغداد ، ربما كان اكثر مغايرة من بقية الاجزاء الاخرى • فلا توجد في المدينة سوق تضارع السوق الممتد الى « خان الكمرك » في اورفه • والسوق التي شيدت حديثا اكبر الاسواق وافضلها وهي طويلة وعريضة ومرتفعة ، وغاصة بالباعة والسلع • ومع ذلك فما يزال جو من السذاجة يسودها مما لم اشاهده قبلا في أية مدينة تركية كبيرة •

وتختلف الحمامات هي الاخرى عما هو موجود منها في جميع المدن الكبرى بلاد الرافدين التي مررت بها حتى الان • وقد قيل ان هناك اكثر من خمسين من هذه الحمامات في بغداد • ولقد اخذت الى احسن واحد منها يوم وصولي • كان هذا الحمام كبيرا ومزودا تزويدا حسنا بالماء • غير ان جدرانه العارية المشيدة من الآجر ، قد رقعت هنا وهناك بالقاشي الذي يحمل صور الطيور والازهار ، وكانت أرضيته البسيطة والكآبة العامة التي تسوده وعرية ، تجعله من اعظم الانواع المهملة • كان عمال ذلك الحمام يختلفون في المهارة عن امثالهم من المصريين والدمشقيين • وقد هيأ لي هذا الاختلاف احسن فرصة للتقدير • لانني ما ان أخذت الى الحمام من قبل أحد خدم السيد ريج حتى عوملت من لدن صاحبه ومساعديه بمنتهى الاحترام والاهتمام واذا ما كان الفارق في هذه الظروف ملموسا جدا فان مثل هذا الفارق يبدو أكثر بروزا في المقارنة العامة بينها من قبل الزوار الاعتياديين والاغراب •

لم ار من المنازل الخاصة في بغداد سوى عدد قليل ما خلا جدرانها الخارجية ومداخلها • والذي ادهشني بصفة خاصة انني لم ار في كل هذه المدينة الكبيرة رواقا فوق مدخل اي من المنازل الخاصة ، اذ كانت كلها اما مدورة او مسطحة تعلوها نقوش من الآجر المنحوت • وحتى في هذه الاسواق القديمة والمساجد المخربة حيث تشاهد الاروقة المدببة فان شكل تلك الاروقة اقرب الى الطراز الغوطي منه الى الشكل العربي المألوف والذي سبق لي ان رأيته في الموصل • وعلى هذا فلم تكن بغداد هي الموطن الاصلي لفن العمارة العربي والذي يحتمل انه قد اشتهر في الغرب* •

وتتألف الدار من سلسلة من الشقق تنفتح على باحة داخلية مربعة ، وبينما تدعى الغرف المشيدة داخل الارض بالسراديب ويأوى اليها الناس للتوقى من وقدة الحر اثناء النهار ، فان الشرفات المكشوفة تستعمل لتناول وجبة المساء او للنوم فيها خلال الليل •

ومن شرفة منزل السيد ريج التي قسمت الى عدة شقق لكل واحدة منها ممرها المنفصل للصعود وللنزول والتي تؤلف في الواقع عددا كبيرا من الغرف غير المسقفة ، من هذه الشرفة كنا نشرف في مفتتح كل صباح على رؤية بغداد وكأنها اشبه منظرا بصورة « الشيطان الاعرج » في مدريد[١٣] ، حيث تظهر امامنا كل عوائل بغداد على السطوح المكشوفة التي تنام فيها وتلك القريبة جدا من ناحيتنا وفي اوضاع هامة تماما •

ويقدر عدد سكان بغداد باختلاف كبير ما بين خمسين الف الى مائة الف • وهي اقل نفوسا من حلب لكنها اكثر من دمشق • ولذلك فان الرقم القريب من الحقيقة هو ثمانون الف • والموظفون الكبار في الحكومة من مدنيين وعسكريين هم من العوائل العثمانية « عصمانلي » او من اتراك اسطنبول ، وان كانوا انفسهم هم من سكنة هذه المدينة غالبا ومعظم التجار والباعة هم من اصل عربي في حين

* ما يزال هذا الموضوع يكتنفه الغموض ولو انه يستحق التحري الصادق من لدن المعماريين البارزين وأصحاب الذوق •

ان الطبقات السفلى من الشعب تتألف من مزيج من الدم التركي والعربي والفارسي والهندي بكل صفاتهم المتباينة • وهناك بعض اليهود والمسيحيين الذين يحتفظون بطبقاتهم المميزة لهم ، بينما يتألف الغرباء في المدينة من الاكراد والفرس والاعراب حيث يوجد عدد ملموس من كل من هؤلاء بصفة عامة •

ويختلف لباس اتراك بغداد عن اضرابهم من ابناء الشمال وهو هنا اقل من لباس اولئك زركشة وفخامة ، كما تختلف جيادهم واسلحتهم واعتدتهم عما هو مستعمل في المدن الكبيرة الاخرى في الامبراطورية • فلباس المماليك في مصر ، وهو مألوف بين الفرسان من الاتراك ، لا يرى هنا • كذلك لم الاحظ الشرول الاسطنبولي الفضفاض الا في حالات جد ضئيلة • ونادرا ما يلبس اتراك بغداد العثمانيون العمامة بل انهم لا يلبسونها قط وانما يغطون رؤوسهم بقبعة من القماش تدعى القاووق ، وهو اعلى واضيق من النوع الذي يستعمل في اسطنبول وقد لف بطريقة خاصة حول قاعدته شريط من الحرير يحمل أزهارا ذهبية ، وترتدى السراويل الحريرية والجبة و (البنش)[١٤] او العباءة اثناء الصيف ويقتصر على النوعين الاخيرين ايام الشتاء حسب • على ان لباس سكنة بغداد بصفة عامة اكثر بساطة اذا ما قورن بلباس غيرهم من الاسيويين •

ولباس التجار لباس عربي خالص ولو انه بصفة عامة احسن نوعا من لباس عرب الصحراء ، اذ انه يصنع في الغالب من المنسوجات القطنية الهندية كما يظهر ذلك في القفطان والسراويل والاردية الخارجية بينما يصنع لباس الصدر والرأس من الحرير •

وحيثما ذهبت في بغداد شاهدت العمائم البيضاء حتى ان اوطأ طبقة من المسلمين تلبسها تميزاً لعقيدتهم • وان طريقة ارتدائهم العمائم جميلة وذات ميزة خاصة •

اما لباس اليهود والمسيحيين فهو ، في كل انحاء تركيا ، يتألف عادة من

عباءات سوداء وشالات من الجوخ (الكشمير) او الحرير الازرق لاستعمال العمائم • ويحتفظ الفرس بلباسهم المعروف في بلادهم والذي يمكن به تمييزهم عن بقية الطبقات الاخرى • اما الاعراب فهم يعرفون بكوفياتهم المصنوعة من الحرير او القطن وعباءاتهم الصوفية الواسعة ، والخنجر اليماني الشكل الذي يحملونه ويسمونه بالجنبيّة •

ولباس نساء بغداد ساذج مثل بقية أفقر القرى فيما بين النهرين • فالنسوة من مختلف الطبقات يلبسن اردية زرقاء شبيهة بما تلبسه الطبقات الدنيا في مصر ، ويغطين وجوههن بقطعة من القماش الاسود القوي الشفاف • وهذا الحجاب لا تلبسه النسوة الوافدات من الارياف المحيطة واللواتي يشاهدن هنا بحشود كبيرة في الاسواق التي يتزودن منها بما فيها من مصنوعات •

فهن يضعن فوق رؤوسهن غطاء قطنيا ذا لون احمر او اصفر وتظل وجوههن مكشوفة معرضة للنظر اليها باستثناء الفم الذي يغطى احيانا • وكما هو شائع بين بدو الصحراء تكون شفاه هؤلاء النسوة مصبوغة بالزرقة كما تظهر خطوط واشارات زرقاء على أجزاء مختلفة من وجوههن ، وهن يلبسن الاساور والخلاخيل الثقيلة ايضا ، ويحلى الانف اما بحلقة كبيرة او بقطعة مستوية مستديرة من الذهب تلصق على ورقة الانف وتكون في حجمها وشكلها ومظهرها اشبه بالازرار المتلألئة الجميلة التي يضعها الفلاحون الانكليز على صدارياتهم التي يلبسونها في ايام الآحاد •

ويرأس حكومة بغداد احد الباشوات يساعده مجلس ، والباشا نفسه وان كان يتلقى تعيينه من سلطان الاستانة الا انه يكون بصفة عامة تابعا في قبوله في المدينة وفي بقائه في السلطة لتصويت عام ليس بطريقة فرز الاصوات كما هو شائع في اوربا وانما يتم الاعراب عن ذلك شعبيا بطريقة صاخبة تعلن فيها الحكومات الاستبدادية عمن تفضله في هذا الشأن • ويتألف مجلسه من عدد من كبار ضباط الدولة وعدد من رؤساء الدوائر الحكومية • ويجتمع هذا المجلس في أيام الجمع في الديوان العام لينظر في المسائل الهامة ، وتسمع آراء المجلس وتقدر في كل

الشؤون ولو ان اسلوب الاعمال الاعتيادية يجري من دون مصدقة أعضاء المجلس او تدخلهم •

ولقد كانت حكومة بغداد لبضعة قرون مضت في ايدي المماليك ، وكان الباشا يختار من بين مماليك جورجيا هنا ، ويصادق عليه من قبلهم ومن قبل اوسع واقوى طرف في المدينة قبل ان يحتل منصبه حتى وان ايد في ذلك ببراءة من الباب العالي الذي يعتبر اسميا رئيس الامبراطورية • والحاكم الحالي الذي يدعى « اسعد باشا »(١٥) كان قد ولد ببغداد وهذا كما قيل اول استثناء يقع للقاعدة العامة حيث يكون جميع الباشوات من مولد جورجي •

وكان والد الحاكم الحالي سليمان باشا من أبناء جورجيا ونظرا لما يتمتع به من سلطة عليا هنا فان ذلك يكفي لاختيار ولده • وما يزال الباشا الحالي يحتفظ بحرس خاص له من مماليك جورجيا وقد اخذ عددهم يزداد كل سنة نتيجة ما يجلب منهم من جورجيا • ومن المحقق ان تستمر هذه الزيادة ما دامت الدوائر المفيدة وجميع المناصب العسكرية وفقا كلها على هذا العنصر وحده •

وكذلك فان اجمل نساء الحريم في بغداد هم من جيورجيا ايضا • على انه لا يسمح للمؤمنين بامتلاك الرقيق الابيض بينما يسمح لغيرهم بامتلاك العديد من الارقاء السود ، ولذلك تكون الجواري الجورجيات والشركسيات من متاع المتدينين بينما ينبغي على الملحدين والهراطقة أن يقنعوا أنفسهم بالجمال القاتم من بلاد النيجر والسودان ومدغشقر • !(١٦)

وتمتد مملكة أسعد باشا من البصرة جنوبا الى ماردين شمالا ، ومن حدود فارس وكردستان شرقا حتى حدود سورية وفلسطين غربا • وتلك هي الحدود الرسمية لولايته ولو ان نفوذه الحقيقي لا يتجاوز بعيدا ولا سيما في الشرق والغرب حيث يتحدى رؤساء الاكراد وشيوخ العرب المستقلون سلطانه في تلك الانحاء •

وتعد بغداد دائما اكبر مدينة على حدود الامبراطورية التركية باتجاه ايران

ولكنها تبدو جد ضعيفة في تحصينها اذا ما قورنت بالمدن الاوربية التي تحتل موقعا مماثلا لموقعها ومع ذلك فقد سبق لها ان احبطت بمقاومة ناجحة محاولات الفرس ضدها • كما انها مضمونة ايضا تجاه الوهابيين الذين يعدون من اقوى الاعراب •

* * *

تحتشد القوة التي يدافع بها الباشا داخل المدينة • وفي هذا ، كما هو ظاهر في اية دوائر اخرى من حكومته ، لا يحصل على مساعدة من العاصمة الكبرى اسطنبول • ولذلك فهو يعد مستقلا عن السلطان تماما الا في الاسم • وتتألف قوته من حوالي الفي فارس متباينين في خيولهم وتجهيزاتهم ، ومن وحدة مدفعية ميدان صغيرة مؤلفة من عشر قطع ، وكتيبة من المشاة تصحبه عادة بمثابة حرسه الخاص ولا يتجاوز تعدادها الالف رجل •

وتعتبر خدمة جنود المشاة في تركيا معيبة ، ولذلك فان مشاة بغداد تستحق التقدير بكل معنى • ذلك لان هذه القوة تنتخب من كل طبقة من طبقات المجتمع ، ولا يمكن قبول سيىء الخلق فيها • والمرتب لا يزيد عن ثلاثة قروش (اقل من دولار اسباني) في الشهر الواحد لكل رجل ، وما عدا ذلك يتوقع ان يزود نفسه بمعظم حاجيات الحياة الضرورية • والمظهر المميز لملبس الجند هو قبعة الرأس الواسعة المصنوعة من الفرو على شكل شبه كروي حيث يغطس الرأس في قطب مفرطح وتشكل قمة القبعة صفة كرة قصت عند خط الاستواء ، بينما يبلغ قطر بعض هذه القبعات ثلاثة أقدام وتغلف جوانبها بالفرو الرمادي اللون في حين تغطى قمتها بالاحمر من الحرير او القماش المقصور ويبدو ان هذا الجزء وحده من البدلة العسكرية هو الذي يجهز من قبل الحكومة • اما بقية الملبس فيكون طبقا لخيال المرتدي ووسائله • ولقد شاهدت بينها كل انواع اللباس من الشال المصنوع من شعر الماعز الذي يرتديه الاعرابي الى الصدارية المهملة التي يرتديها الجندي الهندي والتي باعها افراد الحرس الهندي الخاص بالمستر ريج ، بعد ان تسلموا تجهيزاتهم السنوية من الملابس

الجديدة . اما سلاح هذه القوات المبرقشة فهو السيف والبندقية ولا يوجد بين هذه الاسلحة تشابه في الحجم او الشكل ولو ان معظم البنادق والسيوف من صنع انكليزي وقد نقلت بالسفن من الهند الى البصرة ثم اخذت طريقها في نهر دجلة الى بغداد .

هناك عشائر عربية كبرى في ضواحي بغداد تعتبر نفسها ملزمة ، حسب احكامها الخاصة ، باداء الخدمة العسكرية في حالات الطوارىء العظمى التي قد تتطلب معاونتها . اما الجنود العرب الآخرون فان من السهل تجنيدهم عادة باجور ضئيلة جدا . وباشوات كردستان هم ايضا على اتفاق بشأن ذلك مع باشا بغداد ، وهم على استعداد لتزويده بخمسة آلاف أو ستة آلاف فارس عند الحاجة . وهكذا يمكن في وقت قصير جمع عشرين الف او ثلاثين الف من هذا المزيج من الجنود غير المدربين سوية ليسيروا اما الى الهجوم أو الدفاع عن المدينة .

وتتألف تجارة بغداد غالبا من المصنوعات الهندية ومنتجاتها التي تصل من البنغال الى البصرة ثم يجرى توزيعها الى بلاد نجد عن طريق سوريا ، والى كردستان وارمينيا وآسيا الصغرى* .

وقد ذكر ان هذه التجارة قد زادت خلال السنوات العشر الاخيرة من سفينة واحدة الى ست سفن تحمل العلم البريطاني عدا السفن الاخرى التي تحمل الاعلام العربية .

وهذا يعد نتيجة للتساهل الكبير الذي اظهرته الحكومة الحاضرة في مطاليبها . فالمطلعون على الامور يقولون ان العسف الذي يتعرض له الناس هنا اقل منه في اي جزء من اجزاء الامبراطورية التركية ، وان التجارة هنا لا تتعرض الا لقيود ضئيلة .

---

* **استأثرت بغداد التي دعاها ماركوبولو باسم « الداشي »** باهتمامه البالغ لوفرة غناها وصناعاتها وتجارتها التى كانت فى ايامه أوسع بكثير جدا عما هي عليه فى الوقت الحاضر .

وتعتمد المواصلات بين بغداد والبصرة بصفة رئيسة على القوارب التي تمخر مياه دجلة ولو انها كانت تجري قبلا بطريق الحلة على نهر الفرات . وهذا الطريق الاخير يعد الآن غير مأمون بسبب وجود قبيلة كبيرة مستولية على ضفتي النهر وهي تحمي جميع اليائسين الذين يعيشون في الريف المجاور على اعمال السلب بصفة رئيسة* والزوارق التي تستخدم لنقل البضائع في النهر تبلغ حمولتها من عشرين الى خمسة وعشرين طنا ، وهي مزودة بصواري واشرعة تستعمل حين تهب الريح . وفي المواسم الملائمة حين تهب رياح الشمال

---

* كانت التجارة بين بغداد والبصرة جد واسعة حين كتب « روولف » عنها بما يظهره المقطع التالى ، فى هذه المدينة مستودعات كبرى للسلع ، نتيجة وضعها التجارى ، التى تجلب اما بطريق البحر او البر من الاناضول وسوريا وارمينيا ، والاستانة وحلب ودمشق وغيرها حيث تنقل الى الهند (١٧) وايران وما سواها . **ولذلك حدث في الوقت الذي كنت فيه هناك ، اليوم الثاني من** كانون الاول ١٥٧٤ ، ان وصلت خمس وعشرون سفينة تحمل التوابل والادوية الثمينة الى هنا ، اقبلت بطريق البحر من الهند عبر مضيق هرمز (١٨) الى البصرة (١٩) التى تعود الى التركي الكبير وتقع على الحدود فى اقصى الجنوب الشرقي وعلى مسيرة سنة أيام من هنا حيث يحملون سلعهم فى سفن صغيرة وبذلك يجلبونها الى بغداد (٢٠) تلك الرحلة التى ، كما قيل ، يقطعون فيها **أربعين يوما . ولما كان طريق البحر والبر يعودان الى ملك الجزيرة العربية وشاه ايران اللذين لهما مدنهما وحصونهما في حدودهما مما يسهل معه وقف** التجارة لذلك فانهما على اتصال حسن مع احدهما الآخر وانهما يحتفظان بالحمام الزاجل بصفة رئيسة فى البصرة حيث يمكن تحميلها بالرسائل عند الضرورة الى بغداد . وحين تصل السفن الموسقة الى بغداد يحتفظ التجار ، ولا سيما اولئك الذين يجلبون التوابل وينقلونها عبر صحارى تركيا ، باماكن خاصة لهم فى ضواحي طيسفون حيث ينصب كل واحد منهم خيمته ويضع فيها توابله فى اكياس ، ويحفظها سالمة هناك الى ان يحين الوقت لنقلها ضمن القوافل التى يعتقد الناظر اليها من بعد انها تضم الجنود وليس التجار ، وانها تحمل السلاح وليس السلع . ولقد خامرني انا مثل هذا الظن الى ان اقتربت منها وشممت رائحتها

راوولف ص ١٤٥ ـ ١٤٦

Rauwolff : P. P. 145 — 146.

تتم الرحلة من بغداد الى البصرة في غضون سبعة او ثمانية ايام • اما حين تسكن الريح فان الزوارق تقطع هذه المسافة فيما يتراوح بين عشرة أيام وخمسة عشر يوما ولو ان التيار يكون دوما في صالحها • وحين تصعد النهر ترغم على السير أو بامتداد الشاطيء في القسم الاعظم من الطريق واذ ذاك تستغرق الرحلة من البصرة الى بغداد ثلاثين بل حتى أربعين يوما •

واصغر السفن التي تستخدم لنقل الخضار والفاكهة الى المدينة زوارق مدورة أشبه بالسلاسل تغطى بجلود ينطبق عليها ذات الوصف للجلود التي كانت تستعمل في هذه الانهر في سالف العصور* •

وتزود المدينة بمياه الشرب من نهر دجلة تجلب الى المنازل في قرب من جلود المعز تنقل على ظهور الدواب وتصل باب منزل كل عائلة بذات الطريقة التي تزود بها القاهرة من النيل في مصر ، اذ ان وسائل نقل الماء ، والصهاريج والاحواض غير معروفة هنا •

لقد قيل ان الباشا في هذه الفترة لم يكن يملك شيئا بحيث اضطر الى ان يقترض خمسة وعشرين الف قرش من تجار بغداد بنسب صغيرة من كل واحد منهم كيما يسدد بها الرواتب المقررة للجيورجيين في جيشه ، وللاحتفال بشهر رمضان • وقد قيل ان « العونة » أي المشاركة العرفية التي تمنح في شكل هبات والتي تشيع في جميع انحاء تركيا لا تقع هنا الا نادرا ، وحين تقع فانها تفرض على موظفي الحكومة وليس على طائفة التجار من المجتمع • ولقد قص علي مثال لعدم قدرة الحكومة على تسديد طلب ذمتها وهو مبلغ ضئيل لا يزيد عن خمسة الاف قرش حين استحصلت هذه النقود بصفة قروض من خمسة تجار اعطيت لكل واحد منهم حوالة بالمبلغ على اساس ايرادات المكوس • وقد ساعدتهم هذه الحوالات على ان يسددوا لانفسهم قروضهم مع اعفائهم بموجب تلك الحوالات من الرسوم الاعتيادية على سلعهم الى أن يتم تسديد مبلغ الحوالة • لقد كان تأثير

* أنظر وصف هذه الزوارق المدورة التي تشبه السلال في الوصف الذي اورده هيرودوتس لتأريخ بابل وتجارتها وتجهيزاتها •

هذا الاجراء والاعتدال الذي ابدته الحكومة مما كان يحس به في كل مكان ، انه زاد من النشاط في الميدان التجاري وحاز رضى جميع العاملين فيه • ومثل هذه الثقة في حكام المدن التركية لم تكن اعتيادية بصفة عامة •

وفي الوقت ذاته قيل ان المتاجرة بالسلع الهندية التي توسعت مؤخرا في بغداد قد تجاوزت حدودها السابقة ، في حين تدنت التجارة من ايران بشكل ملموس • فقبل سنوات قليلة كانت بغداد المركز الرئيسي للمنتجات والمصنوعات الايرانية التي تزود بها الاسواق السورية والارمنية والتركية • لكن الفرس مالبثوا ان انشأوا لهم طريق ارضروم وطوقات ليصبح الطريق السهل المأمون الى القسطنطينية ولذلك فان السلع التي كانت تخزن هنا ، كما هو الامر في الاسواق المركزية ، تنقل الآن بذلك الطريق رأسا الى العاصمة التركية فتؤمن بذلك ربحا اوفر للعملاء الايرانيين وخسارة للعملاء في بغداد اولئك الذين كانت تلك السلع تمر بأيديهم قبلا •

وقلة الثراء هي الصفة البارزة بين كل طبقات السكان في هذه المدينة وليس نقص الفخامة المعتادة بين العسكريين هو الذي يصطدم به القادم من مصر والاقاليم الاخرى الكبرى في الامبراطورية التركية بل ان مظهر الفقر البادي لدى جميع الطبقات المختلفة يؤلف مفارقة ممجوجة للمظاهر البهيجة من الألوان الزاهية التي تشيع بين الطبقات الدنيا من سكان دمشق وغيرها من المدن المماثلة على الطريق التي تمر بها •

وتشاهد بعض الخيول الجميلة القليلة العدد في اصطبلات حرس الباشا لكن بعض التجار الاغنياء يستعملون بعض المهار الجميلة التي تتراوح أسعار الكثير منها بين الفين وثلاثة الاف قرش او مائة وخمسين جنيها استرلينيا • وقد يأتي الاعراب أحيانا بخيول جياد من الصحراء لكن صعوبة الحصول على حيوان جميل هنا أكثر مما يتوقع الحصول عليه في ضواحي المدينة وحتى في بلاد نجد التي تعد المصدر الكبير لتجهيز اجمل الخيول في العالم •

وكذلك توجد الابل الفاخرة باعداد كبيرة وكلها من ذوات السنام الواحد* في حين يكثر وجود الجاموس باعداد كبيرة على ضفاف دجلة كما هو شأنها على حدود نهري الغنج(٢١) أو النيل •

وفي هذا المكان شاهدت لاول مرة الثور ذا السنام ، وهو الشائع في الهند وفي الاجزاء الجنوبية من الجزيرة العربية ، بامتداد سواحل اليمن لكنه مع ذلك غير معروف في مصر ولا في الاجزاء الشمالية من بلاد ما بين النهرين •

من احدى خصائص بغداد وجود الحمير البيض فيها والتي ، كما هو الامر في القاهرة ، يمكن أن تسرج وتلجم ليستخدمها المسافرون من مدينة الى اخرى اذ ان العربات من أي نوع ليست معروفة هنا • وهذه الحمير مساوية في ضخامتها وحيويتها للحمير المصرية وخطواتها سريعة سهلة •

---

* الفكرة الشائعة فى أوربا ان ذا السنام الواحد من نوعى هذا الحيوان يدعى جملا وان ذا السنامين يسمى بالهجين والحقيقة ان هذا الوصف مختلف • فالجمل ذو السنامين لا يوجد الا في بكتيريا (٢٢) والبلدان الممتدة الى الشمال والشرق من ايران وهذه تالف الاجواء الباردة وتعيش فى البلدان الخصبة اكثر من بقية الاجناس الاخرى وهى اقصر طولا واكثر سمكا وعضلا يغطى جلودها وبر رمادى فاحم كث ، وتكون اقوى واثقل من أية أنواع اخرى من الابل • ولست أعرف انه تم توليد هجائن من هذا الحيوان ذي السنامين • وان الجمل الوحيد الذى يشاهد فى الجزيرة العربية وافريقيا ومصر وسوريا وما بين النهرين هو ذو السنام الواحد • وهذا النوع بتعوده على المناخ الحار وندرة الطعام والماء يكون اطول قامة واكثر رشاقة واكشف لونا ، واخف وزنا فى شكله ولحمه من ابل بختياري • اما شعره فقصير وجلده طري اشبه بخيول انكلترا أو ثيرانها • ومن هذا النوع وحده ينتج الهجين وهذه ابل من ذوات السنام الواحد ومن نوع جيد وهى لا تستخدم لنقل الاثقال بل تخصص للركوب وتستعمل للرحلات السريعة • ولهذه الابل فى الواقع نفس الصلة بالابل من ذوات السنام الواحد كعلاقة خيول السباق بالخيول الاخرى وتبذل العناية التامة بهذه الابل بالمحافظة على نقاء ارومتها وتحسين جنسها كيما تكون على الدوام وافية لاداء هذا الغرض • فهى تدرب فى مصر فى حظائر الهجين وذلك لتزويد حملة الرماح والفرسان والقيام برحلات مدهشة من ناحية السرعة والمسافة وهذه يطلق عليها العرب اسم هجين بينا يسمون النوع الآخر بالجمل أو الگمل وفاقا للمنطقة التى يلفظ فيها حرف الجيم خفيفا أم شديدا •

وهي تلطخ عادة بالالوان وتخطط بخطوط الحنة الحمراء بطريقة تكون ملاءمة للألوان المضحكة التي يتميز بها المهرج الانكليزي غير ان أنواع الحلي قد سيئء اختيارها بالنظر الى وطأة المدينة المسلمة بصفة عامة •

* * *

الحادي والعشرون من تموز :

امضيت اليوم كله في البيت كيما استقبل في الصباح زيارات البارزين من المسيحيين الذين يقيمون هناوغيرهم من الشخصيات العامة الاخرى الذين يحضرون ديوان المستر ريج يوميا •

والقنصليتان الاوربيتان الوحيدتان في بغداد هما القنصلية الانكليزية والقنصلية الفرنسية • والاولى انشأتها شركة الهند الشرقية وهي ذات مآثر كريمة جدا ، ويغمرها النشاط والاعتبار اللذين اشاعهما فيها المقيم ريج*

تتألف البناية التي تحتلها دار المستر ريج من عدة مساكن تجتمع في دار واحدة ، وتعد من اوسع المنازل في المدينة وافضلها واكثرها تأمينا للراحة • فهي تتألف من فنائين كبيرين يستخدم احدهما بمثابة مأوى لانه يضم عددا من الغرف والاروقة حواليه وفيها شرفات مسورة معدة للنوم أثناء الليل في الهواء الطلق ،

---

* لقد وقع هذا الشخص المحترم الذى يستحق الرثاء ، بعد فترة قصيرة من هذا التأريخ الذى تحدثنا عنه ، ضحية لتلك الوافدة من الشرق ونعنى بها وافدة الكوليرا خلال احدى رحلاته الى ايران وبذلك وضعت النهاية المباغتة والسابقة لذلك الخلق اللامع الذى كانت مواهبه العميقة المتنوعة تشير اليه • ولما كانت الاحداث التى دونت فى هذا الكتاب نتيجة التجربة والاطلاع الشخصيين فليس فى الامكان اغفال اى منها • ومع انه لم يحذف شيء مما ذكر فى المسودات الاصلية يخص ذلك الرجل الممتاز الا انني اجد نفسي ظالما ان لم أضف – بعد مضي هذه الفترة من الزمن – الى ذلك اخلاصي في هذه الشهادة المتواضعة لما كان عليه من خلق كريم وسلوك عظيم واشيد بتعطشه الواسع الى الاهتمام بالعلم والمعرفة والى مسلكه المهذب ورقته ، وكرمه الذي لا حدود له ، والذي جعله عزيزا لدى كل من اسعدهم الحظ بان يصبحوا من اصدقائه أو ضيوفه •

وعدد من الخلايا المحفورة داخل الأرض يطلقون عليها اسم السراديب لتجنب شدة وقد الصيف أثنـاء النهار ، بالاضافة الى الاصطبلات والمطـابخ والدوائر المختلفة الجيدة الفارهة •

وتقوم الى جانب ديوان المستر ريج دائرة طبيب انكليزي وسكرتير ايطالي، وعدد من الادلاء أو المترجمين والقواصين والسائسين والخدم ، وجميع هؤلاء يشغلون دوائرهم الاصلية ويمارسون اعمالا متباينة كما هو الامر في الهند • وهم يتألفون من الاتراك والعرب والجيورجيين والفرس والهندوس • وهناك سرية من الجنود الهنود يؤلفون الحرس وهم يؤدون بابواقهم وطبولهم نفس المعزوفات التي تؤدى في المعسكر او الحامية •

ولقد كان يقيم هنا قبلا عدد من الجنود الخيالة الاوربيين لكن عددهم تناقص وكان يوجد على الدوام يخت كبير مريح معد للرحلات النهرية تحت امرة نوتية من الهنود •

اما صطبل الخيول فهو كبير ومختار • وكل شيء يخص المقيمية اعد بحيث يثير انطباعنا بالاحترام في أذهان السكان الذين كانوا يشهدون الطريقة التي تدار الامور فيها وتحظى بالتأييد • والحق يقال ان المستر ريج يعتبر بصفة شاملة أقوى رجل في بغداد ، وانه يأتي بعد الباشا مباشرة ، وان البعض يتساءل لم لا يقدم الباشا في اي وقت على تطوير مسلكه طبقا لمقترحات المستر ريج ونصائحه بدلا مما يرغب فيه مجلسه •

* * *

كان طراز معيشتنا هنا هو ان ننهض حين تنبعث اولى أشعة النهار فنقوم بجولة على ظهور الخيل ، ثم نأخذ حماما ، ونجتمع بعد ذلك لتناول الفطور في حدود الساعة الثامنة صباحا واذ ذاك يجلس ريج في ديوانه حتى العاشرة حيث يحضر بصفة منتظمة جميع موظفي مؤسسته ، ورؤساء الدوائر الحكومية الكبيرة في المدينة • وفي هذه الزيارات التشريفية كان كل شيء يجـــري بلباقة • وليس

هناك أكثر دلالة على الاحترام البالغ الذي يحظى به المقيم من هذه الاحاديث التي يتبادلها الزائرون • وحين تنتهي جلسة الديوان هذه يهرع موظفو القنصلية بصفة عامة الى السراديب لتجنب حرارة النهار ثم نجتمع ثانية عند غـــروب الشمس لتناول العشاء في احـدى الشرفات في الهواء الطلق حيث تستمر المـائدة حتى العاشرة حين نتفرق ونذهب الى مضاجعنا لننام في شرفات اخرى متقاربة • ونادرا ما تدعنا حرارة الجو نتغطى بغطاء خفيف حتى اننا لا نستعمل الناموسيات ولو اننا ننام في أعلى مكان في سطح الدار وليس فوقنا سوى قبة السماء المزخرفـــة بالنجـــــــوم •

أما القنصلية الفرنسية فانهـــا تتألف من المسيو « فيغورو » Vigoroux القنصل العام وهو رجل ذكي لطيف المعشر ، ومن مترجم شاب من حلب وهـي لانضم سوى دار وضيعة وقلة من الخدم • والدير المسيحي الذي يخضـــــع للحماية الفرنسية يديره راهب كرملي يدعى الاب فانسنزا Padre Vincenza وقد غادره رفيقه كاميــلا اليسوعي Camillo Di Jesu مؤخرا الى أوربا وفي هذه الكنيسة توحدت بقايا الطوائف الاغريقية والسريانية والكلدانية والفرق المسيحية الاخرى لأن أيا منها لا تكفي من ناحية العدد أن تنشىء لها كنيسة خاصة منفصلة • غير أن التوحيد الذي تمت تجربته لم ينجم عنه سوى الخلاف وعدم التفاهـــــم •

وفي أثناء النهار استطاعت امرأة مسنة من بغداد هي ام أحد الخدم في الدار أن تحصل على اذن كانت تلاحقه طويلا لتقدم احتراماتها الى السيدة ريج (ابنة الشيخ الوطني الشهير السر جمس ماكنتوش) • Sir James Mackintosh وحين تم تقديم المرأة الى هذه السيدة التي كانت ترتدي البدلة الانكليزية دواما ظهرت دلائل خيبـة الأمل على وجه تلك العجوز التي كانت كل تقاطيعه تنطق بالقول « ماذا ! أهذه المخلوقة البسيطة غير المزوقة زوجة الباليوز » (الاسم الذي يطلق في بغداد على سفراء الدول الاجنبية) التي كنت أتوقع أن أراها وقد ارتدت أغلى الثياب الموشاة بالماس واللاليء والذهب ؟ ولغرض التخفيف من وطأة خيبة

الامل هذه رد عليها أحد الخدم يقول أن السيدة التي شاهدتها ليست سوى شقيقة زوجة الباليوز ، وان الزوجة نفسها قد ذهبت الى الحمام ، واذ ذاك أجابت العجوز «آه ! لقد كنت متأكدة حقا بانني لم أخدع بهذه الدرجة .أتكون زوجة الباليوز بك ترتدي مثل هذه الملابس البسيطة ؟ ذلك أمر مستحيل ! انني متأسفة اذ قدمت الى هنا في مثل هذه اللحظة التعسة . أما الآن فعلي أن اقنع نفسي بتصور مظهرها الفخم مادمت كبيرة السن ولن تتاح لي فرصة أخرى لرؤيتها بنفسي ! »

* * *

لقد كان الجو شديد الحرارة الى درجة لايستطيع معها سوى الشخص الذي وهب الشباب والصحة التامة أن يتنقل أثناء النهار ، ولذلك نستطيع أن نقدر مدى حب الاستطلاع أو الرغبة التي حدت بتلك المرأة المسنة الى أن تقطع كل تلك المسافة الطويلة سيرا على قدميها وفي مثل ذلك اليوم .

يمكن تقدير حالة الجو في هذه الفترة ، كما تشير اليها درجات المحرارين الفخمين اللذين كان يجري فحصهما ومقارنتهما ، من الحقائق التالية :-

كانت اوطأ درجة وقف الزئبق عندها حين انبثاق أول اشعة الفجر ، وهو أبرد جزء من الاربع والعشرين ساعة عادة ، هي الدرجة ١١٢ فهرنهايت . أما عند الظهر فقد وقف عند الدرجة ١١٩ . وفي الثانية الا قليلا كان في الدرجة ١٢٢ ثم هبط عند المغيب الى الدرجة ١١٧ وهبط في منتصف الليل الى الدرجة ١١٤ . لقد كان الوضع هكذا خلال الاربع والعشرين ساعة الاخيرة كانت الريح ساكنة تماما . وكانت الشمس تبدو حين ينظر اليها وسط الضباب الكالح حمراء كالدم ، وكان الجو ملتهبا تماما .

ولم يكن هناك في الواقع أي فرق ملموس بين حرارة النهار وحرارة الليل مادام المرء جالسا في الظل . أما اذا ماتعرض للشمس فان أشعتها يندر احتمالها ، بل ان أبناء البلاد يموتون باعداد كبيرة من شدة الحر ، ولولا المأوى ووسائل الراحة التي يهيؤها الثراء والبراعة في منزل الممثل البريطاني ، لما أصبحت الاقامة هنا محتملة بالنسبة للاوربي .

أما في الشتاء فان الجو يكون باردا (لان المدينة تقع على خط عرض يساوي ٣٣ درجة شمالا تقريبا) وان الجبال المكللة بالثلوج تقع على مسافة قصيرة ومنها تهب الرياح القارصة . لكن اشهر حزيران وتموز وآب الثلاثة تكون شديدة الحرارة الى درجة تجعل الاشخاص الذين يمكثون هنا ، حتى وان كانوا قد أقاموا طويلا في الهند ، يتحسرون على المناطق المعتدلة الحرارة في البنغال والهندستان .

ويمكن أن نضيف الى شدة الحرارة التي اطلع عليها القاريء الانكليزي من الدرجات التي سجلها المحرار في الصفحة السابقة ، ان هناك فصولا تكون فيها الحرارة أشد مما تم ذكره ففي رسالة تسلمتها من المستر ريج خلال اقامتي في كلكتا مؤرخة ببغداد في السابع من نيسان سنة ١٨٢٠ أي بعد حوالي أربع سنوات على مروري بالمدينة في طريقي الى الهند يقول فيها « لقد كان صيفنا الاخير سيئا بشكل غير اعتيادي ومخيفا الى درجة تجاوز كل ماجربته أنت هنا (ولو انه تهيأ لك نموذج محتمل من جونا) ذلك انني صممت في احدى المرات أن أبعث لك بمقدار منه لكي تنشره ! » .

شروح وتعليقات المعرب على الفصل الثامن

(١) لعبة الجريد Jereed نوع من السباق بين الفرسان أشبه بلعبة الهوكي وكانت لها حلبة في بغداد •

(٢) الخليفة العباسي الناصر لدين الله الذي حكم في الفترة مابين ١١٨٠-١٢٢٥م وهو الذي أقام سور بغداد الشهير في جانب الرصافة سنة ٦١٨هـ ١٢٢١م •

(٣) يعتبر جامع الرصافة الذي شيده الخليفة أبو جعفر المنصور سنة ١٤٣ هـ ٧٦٠ م أقدم جامع في جانب الرصافة من بغداد بل هو أول بناء شيد في القسم الشرقي من بغداد • أما جامع سوق الغزل الذي يعتبره المؤلف أقدم جوامع بغداد فقد شيده الخليفة علي المكتفي بالله في الفترة مابين ٢٨٩ – ٢٩٥ هـ (٩٠٢ – ٩٠٨ م) وكان يعرف باسم جامع القصر ثم أطلق عليه اسم جامع الخليفة فجامع الخلفاء أما مئذنته الشهيرة التي لاتزال قائمة فقد شيدت سنة ٦٧٨ هـ ١٢٧٩ م (مصطفى جواد واحمد سوسة دليل خارطة بغداد) •

(٤) يبدو أن تدوين اسم الخليفة المستنصر بالله على جامع سوق الغزل قد حدث نتيجة اجراء تصليحات فيه أو اعادة بنائه مجددا فنسب بذلك الى المستنصر بأنه هو الذي شاده اذ أن الفترة بين المكتفي والمستنصر تبلغ مائتين وثماني عشرة سنة •

(٥) جامع مرجان وقد سماه المؤلف باسم جامع المرجانية وقد شيد هذا الجامع في الاصل ليكون مدرسة وقد بناها أمين الدين مرجان مولى الشيخ اويس الجلائري في الفترة ٧٥٥ – ٧٧٣ هـ (١٣٥٦ – ١٣٧٤ م) ولكثرة ما اعتاد المسلمون الصلاة في هذه المدرسة سميت باسم جامع مرجان •

(٦) البقتة يقصد بها الحرير والموسلين هو النسيج الحريري المنسوب الى الموصل

ويقع هذا السوق بمحاذاة خان مرجان (المتحف الاسلامي الآن) والذي يقابل جامع مرجان على الجانب الأيمن من شارع الرشيد •

(٧) القنوات Kannawaught بلدة قديمة تقع في منطقة جبل الدروز في اقليم السويداء بسوريا •

(٨) حوران سهل من مجموعة سهول واسعة في بلاد الشام تمتد من جبال حوران جنوبي الدروز فتسير شرقا نحو البادية ويتفرع منها وادي حوران الذي يدخل الاراضى العراقية شرقي « الرطبة » •

(٩) تدمر Palmera وبعلبك Balabek من المدن الاثرية القديمة في بلاد الشام وقد كانت تدمر عاصمة الدولة العربية التي نشأت في تلك الاطراف وكانت متحالفة مع الرومان أما بعلبك فتشتهر بقلعتها الاثرية التي شيدها الرومان •

(١٠) جرش وعجلون من المدن الاثرية القديمة في شرقي الاردن أما ديكابوليس Decapolis فهي مجموعة من عشر مدن تقع كلها عدا واحدة على الجانب الشرقي من نهر الاردن وبحيرة طبرية وقد تحالفت هذه المدن بعد معركة بومبي سنة ٦٤ – ٦٣ ق٠م ومن أهمها دمشق وفلادلفيا ورافانا وسكيثايولس (بيسان) وغدرا ، وهيبوس وغراسا وكاناثا وديون وغيرها •

(١١) بصرى من المدن القديمة في بلاد الشام وتقع في سهل حوران الجنوبي على مقربة من خط الحدود بين سورياوالاردن وكانت بصرى أول الاماكن التي افتتحها المسلمون من بلاد الشام صلحا حين قدم بهم قائدهم المظفر خالد بن الوليد •

(١٢) خان الارطمة سماه المؤلف خان الاورطوه Oortheweh ويسميه العامة خان الاورطة وهذا الخان شيده أمين الدين مرجان بعد انشائه المدرسة المرجانية ويعتبر الآن من ضمن الاماكن التي تضمها محلة باب الاغا ببغداد •

(١٣) الشيطان الاعرج في مدريد Diable Boiteux Demadrid
تمثال من البرونز على رأس احدى الكتدرائيات في مدريد •

(١٤) البنش هي العباءة عند الاتراك أو مايعرف بالبشت عندنا في العراق •

(١٥) أسعد باشا هو ابن سليمان باشا الكرجي وكان أسعد قد ولد في بغداد ولذلك فهو الوحيد بين الولاة الذين ولدوا في بغداد ويظهر ان الاهالي هم الذين أرادوا تولية أسعد باشا وذلك بعد أن دبر داود باشا الكرجي مؤامرة قتل فيها الوالي سعيد باشا سنة ١٨١٦ لكي يأخذ الولاية لنفسه • ويتبين لنا أن فترة حكم أسعد باشا لم تطل أكثر من بضعة أشهر حيث انتزع داود باشا الولاية من الباب العالي في تلك السنة انتزاعا ورغم ما اشتهر به اسعد باشا من قسوة وشدة فقد خفض الرسوم الكمركية ونشط بذلك حركة التجارة •

(١٦) لاندري من أين جاء بكنغهام بهذه القاعدة الشاذة المتسري • فالمعروف أن التسرى وامتلاك الاماء من البيض والسود كان شائعا في كل الممالك الاسلامية ومنها العراق حتى في العهد العثماني المتأخر • وامتلاك الاماء والرقيق لم يكن مقتصرا على طبقة دون أخرى • فقد كان للاثرياء عبيد وجواري بغض النظر عن قومياتهم وأديانهم •

(١٧) كان الاسم الشائع للهند في كتب التواريخ والرحلات القديمة هو الانديز Indise نسبة الى نهر الانديز •

(١٨) هرمز ويسميها الاقدمون من المؤرخين والرحالة باسم اورمتز Ormutz

(١٩) سماها راولف باسم بلصرا Balsara واسمها القديم هو باصورا Bassora

(٢٠) دعاها راولف باسم بغدات Bagdat

(٢١) نهر الكنج من أكبر أنهار الهند وهو النهر المقدس عندهم وكان العرب القدامى يسمونه نهر الجنز •

(٢٢) بكتيريا Bactria من الاقاليم الشرقية لايران وهي من المناطق الشهيرة في التأريخ الفارسى القديم وتقوم فيها سلسلة جبال «بختياري» ـ وهو نفس اسم بكتيريا القديم ـ التي تسكنها قبائل بختياري الشهيرة •

الفصل التاسع

رحلة الى عكركوف

٢٢ تموز :

اصطحبت المستر نللينو السكرتير الايطالي للمقيم وأحد الجند الهنود من الحرس كدليل • فقمنا عند الصباح برحلة الى خرائب تدعى عكركوف • واذ خرجنا من باب الجسر عبرنا جسرا مؤلفا من زوارق يبلغ طوله مائتين وخمس وسبعين خطوة حصان أو اقل من ستمائة قدم • وبناء هذا الجسر متخلخل • واذا ما أخذنا بنظر الاعتبار الحشود التي تمر فوقه باطراد ، زادت دهشتنا من بقائه متماسكا نظرا لوهن زوارقه ، وشدة الريح والتيار في بعض المواسم الخاصة •

عبرنا من هنا فاجتزنا سلسلة متوالية من الشوارع والاسواق في غربي دجلة ومن ذات الصنف الذي يقع في الناحية الشرقية حتى وصلنا أحد المستشفيات الرئيسة للدراويش[١] • وبناء واجهة هذا الصرح لا يمثل شيئا ملحوظا لكن البناية جيدة شيدت من الآجر ، وهي كأي من صروح بغداد ، تم تشييدها من ذات المواد التي تبنى منها البنايات الفخمة في أوربا في الوقت الحاضر • فالطاق الكبير في الجبهة ذو شكل غوطي وهو جد مرتفع • والاشرطة الواسعة على كل جانب منه ، تضم كتابات كوفية طويلة جميلة خطت بشكل بارز في صيغة زخرف •

خرجنا من هناك الى ضواحي الصحراء الغربية ، وواصلنا سيرنا فيها باتجاه الغرب حتى وقعت أنظارنا على خربة بعيدة كنا نبحث عنها • ومن طبيعة مستوى الارض التي سرنا فوقها ، بدا لنا أن هذا البناء المرتفع الذي شاهدناه لاول مرة يقع على مسيرة ساعة ونصف الساعة على ظهور الخيل ، ولو اننا انفقنا ساعتين قبل أن نصل اليه ، وزهاء ثلاث ساعات مذ غادرنا المدينة • وعلى هذا قد يقال ان البناء يبعد زهاء اثني عشر ميلا عن بغداد وانه ، كما يشير الحك ، يقع الى الشمال الغربي منها •

كان هذا الاثر المحطم يدعى عكركوف ويعرف عادة بقصر نمرود[٢] وهو كتلة لا شكل لها مشيدة بالآجر تقوم على قاعدة واسعة تحطمت الآن فلم تعد سوى كتلة من الركام • ولقد قدر ارتفاع البناء ، كما ضبطه المستر ريج ، بمائة وستة وعشرين قدما انكليزيا ، ولو أن [نيبور] قال عنه ان ارتفاعه يبلغ سبعين قدما دنمركيا ، وقدر قطر اكبر جزء منه بمائة قدم •

لايزال شكل القسم الواطيء منه المشيد بالآجر ظاهرا ، وهو يرتفع فوق القاعدة الاصلية بثلاثمائة قدم ويظهر هذا القسم كتلة من ركام وان كان في الاصل قسما من بناء تبلغ مساحته مائة الف قدم مكعب •

أما القسم الباقي من البناء فهو مشيد باللبن ذات احجام كبيرة بينها طبقات خفيفة من الطين ، كما وضعت بين كل خمسة أو ستة صفوف من الآجر طبقات من القصب رصفت متقاطعة مع بعضها البعض في أربع طبقات منفصلة تبدو من الطبقتين الاولى والثالثة نهاياتها الخارجية ، بيما تظهر من الطبقتين الثانية والرابعة جوانبها على الشكل الذي يتم به نسج حصيرة القش •

تساقطت الاجزاء الخفيفة من الآجر بفعل العوامل الجوية فبدت هذه الطبقات ظاهرة في شكل حواشي بارزة ترى على أبعاد كبيرة في خط منتظم •

ومن الجائز أن تكون طبقات القصب هذه قد استعملت على أبعاد لكي تجفف الرطوبة التي قد تمتصها المواد الترابية من الارض وتنقلها الى وجه البناية ، ولربما عولجت بمادة كيماوية أما لكي تتناسب وذلك الغرض أو لتحفظ البناء من التسوس،

لأن هذا القصب ما يزال جديدا براقا وكأنه قد وضع هناك خلال هذه السنة • ويبدو من حجم هذا القصب وتركيبه انه من القصب النهري وليس من أغصان الحشائش المعروفة • وما عدا طبقات القصب يوجد في بعض الاماكن مزيج من الجص والحصى يبلغ سمكه أكثر من قدم واحد في حين لا يتجاوز سمك طبقات القصب البوصة أو البوصتين والظاهر انه لا توجد هناك قاعدة متساوية في تحديد الأبعاد بين طبقة وأخرى •

أما نوع الآجر وحجومه وطريقه بنائه ، ماخلا طبقت القصب هذه ، فانه يشبه ماهو ظاهر في أسوار (تانيس) القديمة(٢) عاصمة الفراعنة في مصر السفلى وفي أسوار «اليثاس»(٣) احدى المدن القديمة في مصر العليا • وتشبه كتلة البناء بوضعها الحالي بقايا هرم مشيد من الآجر اكثر من أن تكون جزءا من نوع آخر من البناء • ذلك لان قاعدته تحتل زهاء ثلثمائة قدم مربع • ومن هناك ترتفع بشكل منحدر فوق كتلة الانقاض التي تؤلف أحد أقسام البناية الاصلية • ذلك لان السطح التحتاني قد تهدم بفعل الرياح فبدت طبقات الآجر والقصب فيه بشكل واضح •

وانحدار كتلة الانقاض طفيف ويمكن تسلقه في أكثر الاماكن دون صعوبة• وبعد أن يرتفع البناء حوالي خمسين قدما يؤدي الى كتلة بناء كامل لايزال الآجر الذي بني به بارزا قائما •

ويرتفع هذا القسم في كتلة عالية وهو أقرب في شكله الى الهرم من أي بناء آخر ، وان كان لا شكل له على وجه الدقة ، وذلك بسبب انعدام الانتظام في كل جزء من أجزاء هيكله •

وترتفع بعض أقسام البناء بشكل عمودي ، وترى بعض مظاهر الثقوب والقنوات في الجزء الخارجي الظاهر منه •

وكما يبين من وضع هذا الهيكل المتهدم المنقض ، لابد أن تكون هذه القنوات ممتدة تحت السطح الاصلي للبناء أو الى وسطه تماما •

أما في الجانب الشمالي الشرقي وعلى مقربة من منتصف ارتفاع الجزء الكامل الباقي من الهيكل فيوجد ممر أشبه بالنافذة المقوسة ماتزال مفتوحة ولا ترى نهايتها من أية ناحية من الانقاض التي كنت أقف فوقها • ويعتقد البعض أن النافذة تعود في الاصل الى البناء ، بينا يرى الآخرون أن هذه النافذة قد انشئت في الاصل لتقاس بها الاجزاء الداخلية من البناء • وقد بدا لي أن هذا أشبه بالجزء المعاصر لذلك الصرح من أن يكون تابعا له ولذلك رحت افضل هذا الرأي لانه لم يبد أي مظهر لقوس مشيد في قمة ذلك الممر ولا يزال من المشكوك فيه ما اذا كان الآشوريون أو معاصروهم قد عرفوا القوس المشيد • وكل من رأى هذه الخربة واشباهها في بابل يأبى أن يعتبرها من عصر أو بناء مماثلين • فلم ير للطاق أثر هناك حتى الآن ولا يتوقع العثور عليه في مثل هذا المكان سواء كان جزءا أصيلا من البناية أو جزءا من ممر يمتد داخل البناء لغرض القياس وسواء كان المظهر الطفيف الذي يمثله ، والذي يوحي بوجود طاق مشيد ، خادعا ، فليست لدينا أية وسيلة لاصدار حكمنا عليه من دون أن نرتقي الى النافذة ذاتها وذلك أمر غير مستطاع •

ومع أن داخلية هذه الكتلة الصلبة من البناء مؤلفة من اللبن الا أن سطحها الخارجي قد غلف بالآجر ، وان كثيراً منه قد تناثر محطما عند حاشية كتلة البناء ، وهو يشبه في شكله وحجمه الآجر الموجود في بابل ولو انه لم يكن مكتوبا كما هو شأنه ذاك • وحول هذه الخربة المتهدمة وعلى مختلف الاتجاهات ولاسيما في ناحيتي الجنوب والغرب تمتد تلال طويلة واطلال أصغر مكونة من انقاض البناية السابقة ذاتها وقد ظهرت عليها قطع اللبن والآجر والفخار بنوعيه البسيط والمزجج • أما الحصى فلا وجود له لان الارض المحيطة بالبناء لاتحويه • ذلك أن المظهر المعتاد لجميع البنايات القائمة في هذه البلاد سواء بنايات بابل القديمة الى بنايات بغداد الحديثة ، هو أن هذه البنايات مشيدة بالآجر • فالباقي من هذه الآثار الكافية تدل على أن برج نمرود ، كما يدعونه ، لايقوم وحده وانه لابد من وجود مدينة الى جانبه أو عدد ملحوظ من البنايات الصغيرة من هذا الطراز أو ذاك •

فما نزال نرى بقايا قناة كبيرة تمر عبر الجزء الرئيسى من هذه الاطلال والتي لاريب في انها كانت تزود السكن بالماء من دجلة وتساهم في اخصاب السهل المحيط به • ومن المؤيد أن اهمال تلك القناة هو العقبة الوحيدة في وجه زراعة الارض القائمة هنا اذ أن سطح الارض مغطى بتربة خفيفة جيدة لاتحتاج الى شيء سوى أن تروي لتغدو منتجة ، وان الريف برمته في مثل هذه الاحوال أشبه بالارياف المصرية التي لا تغمرها هبات النيل لكنها تروى بالقنوات كلية •

ان تحديد طبيعة هذا البرج المشيد بالآجر تجعل من الصعب على المرء أن يتصور نوع ذلك الصرح على وجه التحديد • فقد ظن بعض المسافرين في هذه البلاد انه بقايا برج بابل ، ولكن كما لاحظ ذلك نيبور جيدا ، ان برج بابل يقع بجوار الفرات في حين ان هذا الصرح لايبعد كثيرا عن ضفاف دجلة*

ويبدو أن نيبور نفسه قد ظن أن هذا الصرح ليس سوى رابية بني عليها أحد خلفاء بغداد الاولين ، أو حتى أحد ملوك الفرس الذين انشأوا المدائن ، منزلا ريفيا كيما يتمتع على هذا الارتفاع بالهواء البارد الطري المنعش +

ان من الصعب أن نتقبل صدور مثل هذا التبرير الخاطيء من رجل عرف بدقة الملاحظة مثل نيبور • فاولا ان مادة البناء وطرازه قد يحملان كل انسان رآه على اعتباره من العصر البابلي • وان نيبور نفسه قد وصفه بأنه مشابه لبرج بابل الذي شاهده نفسه في الحلة • وثانيا ان موقع المدائن ، طبقا لكل التواريخ

* نيبور : رحلة فى الجزيرة العربية مجلد ثان جزء ٤ ص ٢٤٩ الترجمة الفرنسية

Niebuhr : Voyage En Arabie Tomeii P. 248.

+ « **يظن كثير من الرحالة ان عكركوف هو برج بابل • غير ان هذا** يقع على مقربة من الفرات بينا يقرب عكركوف من دجلة • ومع ذلك فلم يعرف حتى اليوم لاي غرض انشيء هذا الصرح وقد يظن ان واحدا من أوائل خلفاء بغداد ، أو احد ملوك فارس الذين اقاموا المدائن ، قد انشأ هذا الصرح هنا لكى ينعم بالهواء البارد المنعش من عل •
[نيبور رحلة فى الجزيرة العربية : مجلد ٢ ص ٢٤٨]

أفضل من موقع هذا البناء في عذوبة هوائه وبرودته بسبب قربه من النهر والغابات وما شاكل ذلك ، ولا شيء اكثر خطأ من نقل المدائن من تلك البقعة الى موقع عكركوف الذي لايحتفظ بشل تلك المزايا • أما القول بأن الخرائب المحيطة قد تكون جزءا من بغداد العتيقة فهو قول خاطيء ذلك لان الاثر الرئيس لايشبه الابنية الاولى للخلفاء ، ولانه يجعل عرض بغداد يبلغ عشرة أميال على الاقل من أحد جانبي النهر حسب اذا ما افترضنا ان تلك هي نهاية الجانب الغربي الاقصى لبغداد*

ولا يوجد أدنى شك في أن القناة التي ترى هنا انما هي بقايا قناة عيسى(٤) التي قال عنها « الميجر رنل » انها تربط دجلة بالفرات ، وفي الجزء الذي يقترب فيه النهران أحدهما من الآخر ، وتمتد من بغداد العتيقة في الناحية الشرقية الى الفلوجة في الغرب حيث وقعت معركة « كوناكسا »(٥) بين كورش الصغير و « اردشير »(٦) في سنة ٤٠١ قبل الميلاد • ولم يبق الآن أي شاهد على آثار سور «مادي» الذي كان يمتد من ذات النقطة في الشمال الشرقي وينتهي عند ماسبراكتا(٧) ونيبوليس(٨) في الجنوب الغربي** •

* عند سرد تعداد سلالة « نوح » بالحديث عن نمرود يقال « ان بداية هذه المملكة كانت بابل وارك وأكد وكالح فى ارض شنعار • ومن تلك الارض كان قد خرج آشور فبنى نينوى ، ومدينة رحبوث وكالح وريسين ، بين نينوى وكالح ، وهى ذاتها مدينة عظمى [سفر التكوين ١٠ فصل ٥ ص ١٠ – ١٢] • فمن بين الاسماء التى عددت فى ارض شنعار نرى الاسم الوحيد الذى يحمل ادنى مشابهة لعكركوف هو (أكد) وهذا شبه ضئيل جدا لا يمكن استخلاص أية نتائج صحيحة منه • اما الجزء الباقى من العبارات المقتبسة فهو يستعمل للدلالة على ان حدود أرض شنعار تقع جنوبي نينوى ذلك لانه بعد تعداد مدن شنعار قيل ان آشور قد خرج من تلك الارض ليشيد تلك المدن التى تأتى اسماؤها بعدها •

** **لا يوجد في التأريخ بحث أكثر صراحة وحيوية من البحث الذي سجله زينفون في كتابه (الصعود) للمعركة التي وقعت في هذه البقعة بين** امراء فارس الاشقاء • ولقد لاحظ بلوتارك بشكل أكثر صوابا ان المؤرخ الاثينى **لم يصف تلك المعركة كما وقعت تماما لكنه استطاع بقوة عبارته ودقتها ان**

ومن امتداد تلال عكركوف وطبيعتها لايوجد سبب يحمل على الاعتقاد بأن تلك المدينة كانت كبيرة . والحقيقة أن الخربة الرئيسة لا تشبه أي مكان يتخذ للسكن من أي نوع كان ، وان النتيجة التي توصلنا اليها في موقع الاثر تدل على انه لابد وأن يكون بقايا هيكل منعزل له صفته الدينية ، أو ضريح وان بعض الدوافع ، عدا دوافع العبادة والاحترام للميت ، قد حفزت بما كان لها من القوة على اقامة مثل هذا النوع من الهياكل . فهو بوضعه الراهن الذي لا شكل له يتألف من قاعدة واسعة ومن قمة صغيرة نسبيا وهو أقرب شبها بالاهرامات المتهدمة من أي بناء آخر . ولقد سرنا حول منحدر القاعدة ، وقدرنا بأن البناء ، اذا كان برجامربعا ، فان الاجزاء المتساقطة من القمة لابد وأن تكون أكثر بروزا حول هذه القاعدة مما هي عليه فعلا .

يجعل القارىء يشعر متمثلا كل حادث ويشارك في كل خط كما لو ان الحادث لم يكن من صنع الماضى وانما كان يمر امام ناظريه تماما . فالنفور الشديد بين اردشير واخيه كورش ، وهو ليس اقل تاثيرا من الكره المتبادل بين اتيوكليس (٩) وبولينسيس (١٠) الذى لم يمحه حتى الدم ، ربما كان من اكثر الاحداث الشاذة المرتبطة بهذه المعركة الا اذا بقي شيء ما غير اعتيادى فى موقع العشرات من الاغريق الذين تعقبوا كورش وجرموا ، على حين غرة ، من قائدهم العام ، وتخلى عنهم حلفاؤهم فى قلب آسيا واحيطوا بانهار وصحارى وجبال يعسر عليهم اجتيازها وضيق الخناق عليهم اكثر من مليون رجل مسلح . ففي كل لفتة من لفتات الحظ خلال التحام المعركة يكون القارىء في ذروة التخيل لما سيحدث لأولئك الرجال الشجعان .

وحين يرى بعد برهة قصيرة الجيش البربري وقد تحطم وتبعثر ، ويتأثر بالارهاب الذي ينشره اولئك الاغريق ، يمتلىء فؤاده جذلا كما لو ان شيئا من المجد الذي شهده قد انعكس على نفسه هو . تلك هى قوة العبقرية فى اضفاء الحيوية على التأثيرات المؤقتة للانسان فالقارىء الانكليزى قد يتلذذ بهذه العلاقة التي افرغ بها المستر سليمان ترجمته الصادقة الجميلة للجزء الاول من كتاب (الصعود) . وقد يضاف الى هذا ان الاغريق وجدوا فى جوار ميدان المعركة بساتين من النخيل استعملوا بعضها فى بناء جسور لعبور القنوات وبعض الخنادق العميقة ، كما عثروا على الخمر والشراب المصنوعين من فاكهة تلك الاشجار ذاتها في القرى [ذات المصدر الكتاب الثاني] .

ولقد عرفنا في مصر هرما كبيرا شيد من ذات المواد وان هيرودوتس كان يشير الى الكتابة الفاخرة التي يحملها والتي تتناقض مع الكتابات المدونة على الحجر* وبقايا مثل ذلك الهيكل — ومن المحقق انه الوحيد الذي أتى على وصفه ماتزال قائمة على مقربة من الضفة الغربية لنهر النيل في « سقارا »[١١] وقد شيد من ذات المادة واصابه نفس الخراب فغدا لايمثل سوى كتلة من حجارة عديمة الشكل مثلما هي عليه خرائب عكركوف القائمة .

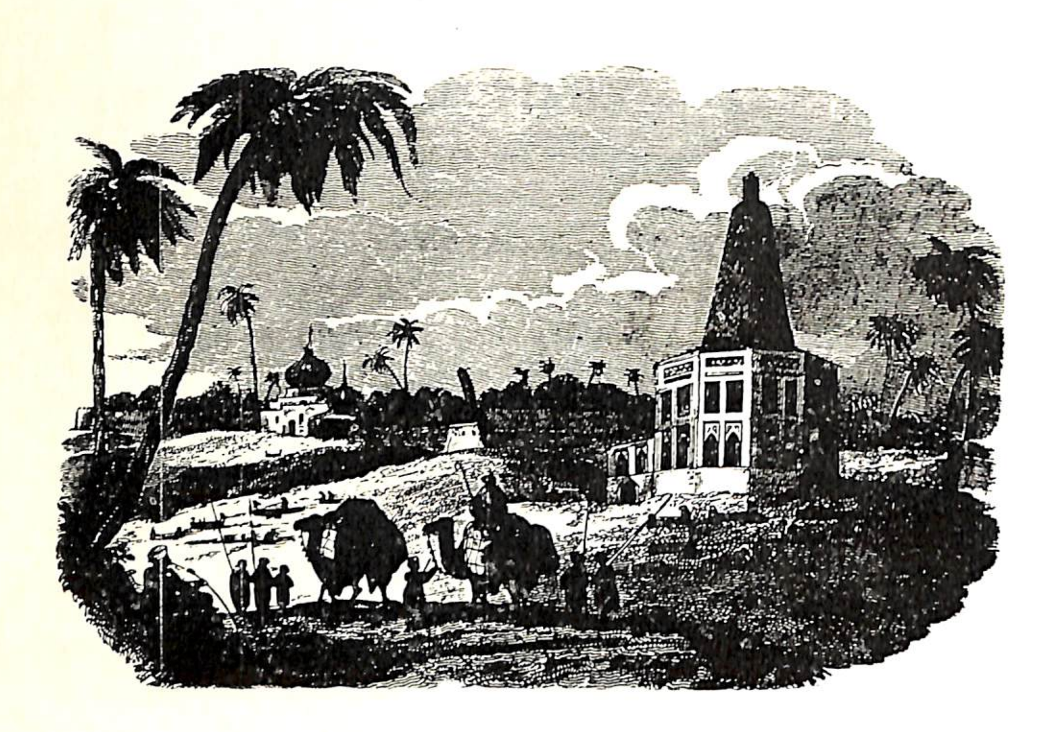
وقد يعتبر الممر الواقع حول منتصف الطريق الى الجهة الشمالية الشرقية مظهراً آخر من مظاهر الشبه بالاهرام المصرية . وهو جدير بالذكر ، لأن القسم الخارجي منه قد شيد هو الآخر بالآجر وبالطريقة التي بنيت بها الاهرام بالحجارة الصلبة الجميلة . وعلى هذا الاساس يبدو من المحقق أن هذا الاثر يشبه تلك الاهرام . فهو قد يكون قبر أحد الملوك القدامى وأن الانقاض المتناثرة حواليه من ذات المادة قد تكون من الاضرحة المألوفة التي تحيط بالاهرام المصرية ، في حين قد تدل أجزاء الفخار على انها بقايا الاوعية المحطمة أثناء الاحتفال بتقديم النذور، أو لتكريم الموتى ، أو من تلك التي تستعمل للاغراض البيتية[١٢] .

أما القناة فلا شك انها كانت تستخدم لغرض الاتصال بين النهرين الشهيرين دجلة والفرات وليس هناك من مكان أفضل من البقعة التي اختيرت لمرورها من هذا النهر الى ذاك في حين أن الارض التي كانت تفيض فيها قد تحسن وضعها بفعل المياه** .

---

* « لا تحط من قيمتى بان تقارننى مع الاهرام المشيدة من الحجر آ فانا ارفع منها منزلة مثل جوبتر (١٣) بالنسبة لبقية الآلهة . فانا مشيد بالآجر الذي صنع من الطين المتماسك مع الاعمدة والذى استخرج من قعر البحيرة » هيرودوتس » يوتيرب ١٣٧
Herodotus : Euterp 137.

** « نحو بابل وسلوقية حيث تتلاطم أمواج نهري دجلة والفرات وتصطدم بضفافهما وترويان الريف ، تطبق نفس اساليب الزراعة كما هو الامر فى مصر . ولكن تأثيرها أوسع وربحها أعظم . ذلك ان الناس هنا يدخلون الماء من فتحات أو بوابات للفيضان كلما أرادوا ذلك [بليني : التاريخ الطبيعي الكتاب ١٨ الفصل ١٨]
Pliny : Natural History Book XVIII C. 18.



قبر السيدة زبيدة في بغداد سنة ١٨١٦ من رسم المؤلف

مقابل صفحة ٢٢٨

ولقد عثرنا على مقربة من هذه القناة على قطعة من اللبن تغطي وجهها مادة صلبة ذات لون أخضر فاتح حولت الى ما يشبه الزجاج بفعل النار لكن لم نر أية حروف سهمية الرأس أو كتابات بابلية عليها .

* * *

وفي حوالي الساعة العاشرة غادرنا خرائب عكركوف وعدنا بنفس الطريق حيث شربنا ماءا آسنا من احدى الآبار حفرت على مسافة متوسطة بين الخرائب والنهـــر . ولا يزيد عمق تلك البئر عن عشرين قدما لكنها تنتج من الماء مايكفي لارواء الابل والمواشي . وليس من شك في أن الصحراء كلها تنتج نفس الكميات من الماء في نفس ذلك العمق . أما مذاقه فهو مر بشكل طفيف وهو آسن لانـه يأخذ هذه الرائحة من صفة التربة .

واذ كانت الشمس مرتفعة الآن شاهدنا في الناحية الشمالية الغربية منا منظر السراب الهائل الذي يوحي ، بسبب طبيعة الارض هنا ، الى الذهن بأن التربـة الملحية ملائمة لهذا الخداع الذي يقع البصر فيه . وبعد برهة قصيرة استدرنا نحو اليسار لنزور مسجد الامام موسى الكاظم الذي جذبت اهتمامنا قبه الذهبية ومنائره الجميلة من مسافة بعيدة . ولقد وجدنا هذا المسجد يقع وسط قرية كبيرة تحيط بها بساتين النخيل من كل جانب تدعى «الكاظم» وذلك هو لقب موسى الذي يعني « الصـــابر » .

أما المسجد ذاته فهو بناية كبيرة تقع وسط ساحة واسعة يحيط بها ســـور مرتفع حسن البناء . ومن أهم مظاهره القبتان اللتان تتوجانه وقد غطيتا بســطح كامل من الذهب* تحيط بهما ، على مقدار ما استطعنا رؤيته ، نقوش أو كتابات مدهشة . وترتفع حول هاتين القبتين أربع منائر مرتفعة تحتفظ واحدة منها ببرج وقبة فوق الشرفة . في حين تنتهي المنائر الثلاث الباقية بالشرفة ذاتها لكنها كلهـا

* تشابه هذه بصفة خاصة قباب مشهد المدينة الشهيرة والمكان الذي يحـج اليه الفرس في خراسان والتي تبين سطوحها المذهبة المتلألئة للمسافرين مســافة بعيـدة .

قد زينت بالكاشي الملون الذي رصف على سطوحها فغدت تؤلف معا منظرا فخما بالغ التأثير .

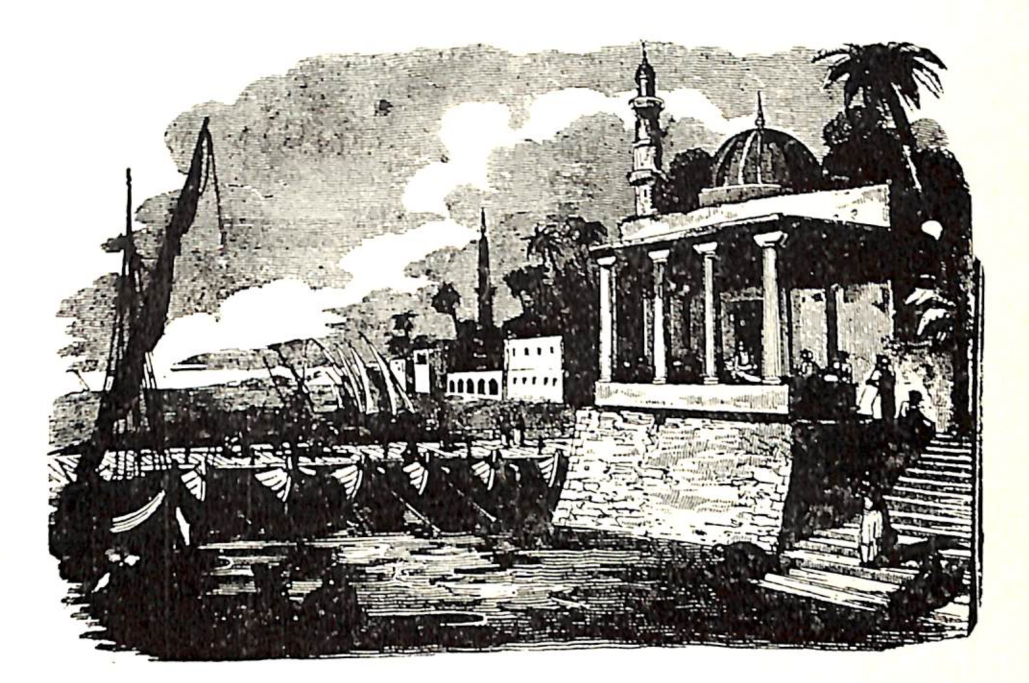
ولما كان المسيو بللينو يرتدي اللباس الافرنجي فلم نحاول أن ندخل ساحة المسجد لان ذلك قد يكون محفوفا بالخطر . وهذا قبر أحد شهداء الشيعة الاوائل (الطائفة الايرانية من المسلمين)(١٤) والذي قتل سنة ١٨٥ هجرية على يد الخليفة الذي كان يحكم بغداد في ذلك الوقت ، لانه أحسن في داره الى المحكوم عليهم من أنصار «علي» ولذلك غدا مكانا يحج اليه الايرانيون ولا يضاهيه سوى قبور زعمائهم العظام في مسجد الحسين + ومسجد علي في الصحراء الواقعة جنوبي غربي الحلة وبابل القديمة(١٥)

ولقد وجدنا هنا عددا من الزهاد الفرس داخلين ساحات المعبد وخارجين منها. وأقيم أمام أبوابه الخارجية معرض يشبه المعرض الذي يقام أمام ساحة الضريح المقدس في بيت المقدس ، وهو مزود بذات الانواع من السلع تقريبا حيث تؤلف المسابح والمحابس والاقراط وما شاكلها القسم البارز منها .

واذ واصلنا سيرنا داخل سوق القرية وجدنا ان ثلاثة أرباع الناس الذين رأيناهم كانوا من الفرس أما الربع الباقي فيضم السكان المقيمين والاغراب من عناصر أخرى . وبعد أن غادرنا القرية التي يبلغ طولها زهاء نصف ميل ، سرنا في اتجاه الجنوب الشرقي بامتداد ضفة النهر وقد اجتزنا مكانا قيل عنه انه موقع بغداد القديمة ، المدينة التي بناها الخليفة المنصور . صحيح ان هناك آثاراً ضئيلة للابنية السابقة ماتزال ترى هنا في أنقاض متناثرة عند الطريق ، غير ان هذه لايمكن أن تعتبر بقايا مدينة عصرية نسبيا .

توقفنا في طريقنا عند احدى المقاهي الصغيرة التي تكثر هنا والتي تتألف على شكل ايوان أو كهف تحت الارض حيث تتوفر النارجيلة والماء البارد وقدح القهوة والظل والراحة ، وحيث تقدم كل هذه المنعشات الى المسافر بترحاب ورخص حتى في أشد ساعات النهار حرارة .

+ المسجد هو ذات المعنى المقصود بكلمة جامع في العربية .



جسر بغداد سنة ١٨١٦ من رسم المؤلف

مقابل صفحة ٢٢٧

بعد نهر دجلة من الضفة التي كنا عليها هنا ، أكثر ضيقا من أية نقطة ضيقة يبلغها النيل كما اتذكر ماخلا ذلك الذراع الضيق (الذي لايمكن أن يعد هو النهر الرئيسى) حين يمر بين الفسطاط ، أو القاهرة القديمة ، وجزيرة الروضة على الجهة الشرقية • ويبدو أن معدل جريان النهر هنا يبلغ زهاء ميلين في الساعة الواحدة والضفاف منحدرة والماء اسود عكر •

وفي حوالي الظهر وصلنا قبر زبيدة التي اتجه طريقنا نحوها من دون احترام لذكرى زوجها ولذكراها هي • ذلك أن اسم الخليفة هارون الرشيد وقرينته زبيدة(١٦) تعيد الكثير من الاحداث البهيجة اذ انها تذكرنا بالسرور الذي كان يغمرنا ونحن نقرأ قصص ألف ليلة وليلة في باكر أيامنا •

يتألف هذا القبر الذي يقع وسط مقبرة واسعة من قاعدة مثمنة الزوايا ذات طنف تقوم في المقدمة • ويبلغ قطر البناء كله زهاء ثلاثين قدما وعلى هذه القاعدة انشئت قبة عالية مدببة من بناء فريد الشكل ترتفع الى حوالي ستين أو سبعين قدما • ويكون الدخول من السقيفة الخارجية الى الضريح ذاته أو الى القاعدةالمثمنة الزوايا ، عبر ممشى يغطيه سقف معقود ، وترى فوقه كتابات حديثة مؤرخة في سنة ١١٣١ للهجرة • ولقد استنسخ نيبور تلك الكتابات وذكر عنها ان في تلك السنة ذاتها دفن حسن باشا ، والى جانب زبيدة الشهيرة ، زوجته المتوفاة عائشة وهي ابنة رجل يدعى مصطفى باشا ، وانه قام في هذه المناسبة باصلاح البناء كما شيد الى جانبه بعض المرافق للدراويش أو الجوالين الفقراء المتمسكين بايمانهم تمسكا صحيحا • ولقد حدث هذا بعد سنوات عديدة مرت على مدفن ذلك الجدث الذي شيد هذا الضريح له ، اذ أن المقرر هو أن زبيدة توفيت سنة ٢١٦ هجرية أو سنة ٨٣١ ميلادية •

واذ دخلنا البناء وجدنا ثلاثة قبور متميزة أقيم الواحد منها الى جانب الآخر وقد شيدت ببساطة من الآجر على مرتفع مستطيل فوق الارض ، أما بقايا من كان يرقد في القبور الثلاثة منها فغير معروفة • وقد احتلت هذه القبور تقريبا أكثرية الساحة الداخلية وهي في حالة انهيار • وجدران القاعدة المثمنة التي تبلغ نصف

ارتفاع البناء بسيطة وقد طليت في وقت ما بالبورق الابيض وتقوم قبالة باب المدخل كتابة عربية خطت في شكل نقوش على القاشى ، وهذه الكتابة ليست كاملة بسبب اختفاء عدد من قطع القاشى التي دونت عليه •

واذ يتطلع الناظر من هناك الى أعلى يرى قبة مدببة اشبه بقرص السكر غطي سطحها الداخلي بالاقواس المدببة والمحاريب المجوفة وهي من طراز الافاريز العربية التي تشيع في أبواب البيوت العربية • ويرى عدد كبير من الثقوب على مسافات منتظمة ، ونافذتان صغيرتان تقابل احداهما الاخرى على مقربة من بداية القبة • وقد بنيت هاتان النافذتان وكذلك الممشى الواقع تحت الكتابة المنقوشة على الضريح من أقواس مدببة ولو انه يقوم فوق المدخل من السقيفة ذاتها ، والذي أصلح حديثا ، طاق مفرطح •

صعدنا من المدخل سلما ضيقا ملتويا تبلغ درجاته نحوا من خمس وعشرين ذا مرتقى منحدر ، حتى بلغنا قمة القاعدة المثمنة التي قدرنا ارتفاعها بثلاثين قدما على الاقل • وتمشينا حول القمة المدببة التي ارتفعت من وسط هذه القاعدة العالية الى حوالي ثلاثين أو أربعين قدما • أما ظاهر البناء فيمثل عددا من الفواصل المحدبة قليلا تتصل بمحاريب مجوفة من الداخل وذات منظر فريد • تنسمنا من هنا الهواء العذب وسرحنا النظر بعيدا ومن هذا المرتفع شاهدنا بقايا الاثر الرئيس الذي خرجنا لزيارته*

وحين عبرنا جسر القوارب ثانية وعدنا الى باب بغداد أخذنا نشاهد الآن جبهة البناية المجمعية الشهيرة المعروفة باسم مدرسة المستنصرية التي ذكرها المؤرخون العرب بانها طراز احدى الكليات ومأوى المتعلمين • أما الآن فانها في حالة تهدم ولو أن جزءا منها مايزال مستخدما بمثابة خان أو كروان صاري •

* يقع قصر نمرود أو خرائب عكركوف في الغرب باتجاه الشمال ونصف الشمال مسافة عشرة أميال • وقبب الامام موسى الذهبية في الشمال والشمال الغربي على بعد أربعة أميال ، وجامع الوزير أو الجامع الكبير قرب جسر بغداد في شرقي الشمال الشرقي على مسافة ميل واحد •

ويشاهد على واجهة هذا الجزء المتجه نحو النهر عمود سميك يمتد بطول البناية كلها وقد يبلغ طوله نحوا من مائتي قدم ويضم كتابة مستطيلة بالخط الكوفي نقشت في الافريز العلوي فوق قاعدة مزخرفة وكلها مصنوعة من الآجر وقد تهدمت بعض أجزاء الجدار الذي تمتد حوله هذه الكتابة • واجرى تصليحه دون تجديد الحروف المطموسة حيث تقطع تلك البقع من البناء المتهدم سطور هذه الكتابة في عدة أماكن • وما يزال هذا الشارع يعتبر من أوسع الشوارع العامة في بغداد • فهو قريب من الجسر لانه يقع على جهته اليمنى حينما يتم عبوره من ناحية الغرب وعلى ضفة النهر مباشرة • وقد استطاع نيبور اثناء اقامته هنا أن يستنسخ هذه الكتابة بوساطة أحد الملالي حيث ظهر منها ان ذلك البناء قد تم تشييده من قبل الخليفة المستنصر سنة ٦٣٠ هجرية أو سنة ١٢٣٢ مسيحية •

وفي حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر عدنا من رحلتنا هذه وقد غدت حرارة الجو لاتطاق • وبنتيجة التحريات التي قمنا بها بعد الظهر علمنا من أحد الملالي الذي زار المنزل ان كلمة عكركوف قد تشير الى علم الصرف العربي ! وانها قد تعني « مكان ذلك الذي تمرد على الله » • واذا ماطبق هذا التفسير على التقليد الشائع بأن نمرود كان مخلوقا متمردا وأن عكركوف كانت « مثواه » بعد وفاته ، فانه يأتي مطابقا تمام المطابقة لما قيل بأن هذا البناء كان ضريحاً ملكياً غير أن الموضوع من ناحيته الاثرية المجردة لابد وأن يكتنفه الشيء الكثير من الغموض

شروح وتعليقات المعرب على الفصل التاسع

(٢) المعروف ان قصر نمرود كان قائما في مدينة نمرود وهي مدينة كلح العاصمة الثانية لآشور ولكن العامة اعتادوا أن يطلقوا كلمة نمرود على الآثار التي كانت ظاهرة في نينوى وفي عكركوف وحتى في بابل •

(١) مستشفى الدراويش لايوجد ذكر لوجود مستشفى في جانب الكرخ في الوقت الذي زار المؤلف فيه بغداد • ويبدو أن ما اعتبره المؤلف مستشفى للدراويش هو أحد الاربطة أو الزوايا التي يكثر وجودها ويعيش فيها الزهاد والنساك •

(٣) تانيس Tanis عاصمة مصر السفلى ، والثياس Eltheas من مدن الفراعنة الشهيرة في أعالي مصر •

(٤) نهر عيسى يتفرع هذا النهر من الفرات جنوبي الفلوجة ثم يصب في دجلة جنوبي بغداد في النقطة المسماة « تلول خشم الدورة » وهذا النهر قديم كان موجودا في عهد الآشوريين والبابليين • وبعد أن تم بناء مدينة بغداد على يد الخليفة أبي جعفر المنصور أقدم (عيسى بن علي العباسي) عم أبي جعفر المنصور على احياء هذا النهر وكريه وتنظيم قنواته فنسب اليه وسمي باسمه « نهر عيسى » ومن نهر عيسى تخرج قناة كانت تمر بمدينة عقرقوف •

(٥) معركة كوناكسا Conaxa وتعرف لدى العرب باسم كناسة حدثت سنة ٤٠١ ق•م• بين الاخوين كورش الصغير واردشير الثاني ولدي داريوش الثاني وكان اردشير قد تولى الحكم بعد وفاة أبيه داريوش الثاني لكنه ما لبث أن وجد أن أخاه كورش ، وهو أصغر سناً منه ، قد أخذ يسيء الادارة ولم يسر على خطته فحدثت منازعات بينهما أدت الى وقوع هذه المعركة التي وقعت في كوناكسا على نهر الفرات غربي الفلوجة

وانتهت بمقتل كورش وتشتت جيشه الذي قيل انه كان يضم مائة ألف جندي فارسي وثلاثة عشر ألف جندي اسبارتي •

(٦) أردشير يعرف لدى الغرب باسم ارتكزيكس Artexexes أو ارتاحشيرشا كما يسمى أحيانا باسم اكزركيس Xerxes

(٧) ماسبراكتا Macepracta مدينة كانت تقع على نهر الفرات قريبا من مدينة الفلوجة الحالية وعندها تتفرع من نهر الفرات عدة فروع منها نهر عيسى الذي يصب جنوبي بغداد •

(٨) نيبوليس Neapolis اسم روماني لمدينة كانت تقع على الفرات باتجـاه ماسـبراكتا •

(٩)،(١٠) اتيوكليس Eteocles وبولينسس Polynces من فرسان اليونان الذين اشتهروا بالخصومة •

(١١) هرم سقارا Saccara من الاهرام الشهيرة التي بناها الفراعنة في مصـر وسقارة من قرى محافظة الجيزة وكانت الاسرة الفرعونية الرابعة هي التي بنت أهرام سقارا •

(١٢) لقد ثبت تأريخيا وبصفة قاطعة ان عقرقوف هي نفسها مدينة «دوركوريكاليزو» التي أسسها ملوك الكيشيين الذين ظهروا في ايران واستولوا على العراق في الفترة مابين ١٧٤٠ و ١١٥٠ ق•م• وقد شيدت هذه المدينة في أوائل القرن الخامس عشر قبل الميلاد •

(١٣) جوبتـر Jupiter من الآلهة الخرافية لدى الاغريق وهو يطلـق أيضا على الكوكب المعروف لدى العرب باسم زحل •

(١٤) يغلب على المؤرخين والرحالة الاجانب أن يخلطوا ـ أما بصفة متعمـدة أو عن طريق الخطأ ـ في موضوع الايرانيين والمذهب الشيعي • ومع أن الاصول التأريخية تؤكد أن الفرس هم الذين أبرزوا المذهب الشيعي وبثوا

الدعاية له ولا يزالون ، وانهم كانوا يرمون من ورائه أهدافا ايرانية عنصرية خالصة لا علاقة لها اطلاقا لا بالاسلام ولا بآل البيت رضوان الله عليهم ، مع ذلك فليس كل الشيعة من الايرانيين لان العرب الذين تشيعوا فيما بعد كثيرون • ولهـذا فان من الخطأ الفادح ان نعتبر كل الشيعة من الطائفـة الايرانيـة •

(١٥) وهذا خطأ آخر وقع فيه المؤلف أيضا فمشهد الحسين رضوان الله عليه في كربلاء لا يضم سوى ضريح الحسين وضريح العباس وهما من بيت الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ولا علاقة لهما بالفرس سوى ماذكر عن زواج الحسين من ابنة يزدجر ملك الفرس الذي أسره العرب في وقعة المدائن •

(١٦) من الاخطاء الشائعة حتى الان ما يذكر عن قبر السيدة زبيدة الذي يقـع في الكرخ قرب مقبرة معروف الكرخي • فالشائع حتى الآن ان هـذا القبر يعود الى السيدة زبيدة زوجة الخليفة العباسي العظيم هارون الرشيد ولكن الحقيقة ان هذا القبر حديث البناء وهو يعود الى السيدة « زمرد خاتون » زوجة الخليفة المستضىء بالله العباسي وام الخليفة الناصر لدين الله وانها قد توفيت سنة ٥٩٩هـ (١٢٠٢م) في حين ان زبيدة زوجة الرشـيد كانت قد دفنت في مقابر قريش اي في المكان الذي يوجد فيه ضريح الامام موسى الكاظم وقد احرق قبرها مع غيره من قبـور قريش في الفتنة التي وقعت سنة ٤٤٣هـ (١٠٥١م) •

(مصطفى جواد دليل خارطة بغداد) •

الفصل العاشر

سفرة من بغداد الى آثار بابل

٢٤ تموز :

حددنا هذا اليوم للقيام بسفرة الى آثار بابل ولذلك امضينا وقت الصباح كله في الاستعدادات اللازمة لسفرتنا هذه . ولقد أعرب المسيو بللينو سكرتير المقيم عن رغبته في مصاحبتنا ولو ان الوقت ، بالنظر لشدة الحرارة فيه ، لم يكن ملائما لمثل هذه السفرة . غير ان حلول فرصة للسفر مع اناس مستعدين لمثل هذا البحث يعد شيئا نادراً ولهذا اعتبر بللينو تلك السفرة ملائمة له .

كان المقرر ان يرافقنا كبير السائسين لدى المستر ريج وهو خيال كردي كان قد سبقنا الى حضور المكان ، مع خادم زنجي وبغل لحمل لوازمنا ومتاعنا . ولقد تزودنا برسالة من المستر ريج الى حاكم الحلة واخرى من باشا بغداد الى الآمر العسكري في الناحية المجاورة للمكان المقصود وبذلك ضمنا مساعدته لنا وحمايته .

واحتفظ زميلي بملابسه الاوربية . اما انا فقد اخترت اللباس البدوي .

واذ كنت ملما الماما جيدا باوضاع الناس وباللغة العربية فان سفرتنا ستكون مقبولة اذا ما تحركنا من دون حاشية او حرس ، ذلك لانني كنت ارغب في ان اكون الدليل للمسيو بللينو الذي كان يعد من الرحالة الاوربيين وبهذا أصبح الشخص البارز في الفريق .

غادرنا بغداد في حوالي الساعة السادسة مساء فعبرنا جسر الزوارق فوق نهر دجلة ، ثم اجتزنا شوارع مزدحمة في القسم الغربي من المدينة . كان عدد الناس الذين تجمعوا على المقاعد في المقاهي المواجهة للنهر يتمتعون برؤية النهر الجاري ويستنشقون نسيم الماء العليل ، كبيرا بصفة مدهشة ، في حين ان تعدد الاشخاص والملابس في مثل هذا الحشد المختلط كان يؤلف صورة ممتعة للملابس والعوائد .

واذ غادرنا باب السور الغربي شاهدنا امامنا منظر الصحراء القاحلة . كان قبر زبيدة يقع على يميننا وهو الاثر الوحيد الذي تراه العين . وقد اتجه سيرنا خلال نصف الساعة الاولى من بوابة بغداد نحو الجنوب الغربي تقريبا حيث بلغنا عند المغيب منحنى نهر دجلة وهو يتدفق سريعا عبر الضفاف الجرداء وقد بانت في وسطه عدة بقع من الرمال الجافة .

ومن هناك اتجه طريقنا نحو الجنوب وبعد ان قطعنا ارضا قاحلة صلبة مررنا في حوالي الساعة الثامنة بخان يدعى « خان الكهية »[1] والذي لم ندخله .

وفي ذات الطريق نحو الجنوب والجنوب الغربي وفي ذات الارض الجرداء وصلنا في العاشرة « خان اسد »[2] الذي تحيط به قرية صغيرة يسكنها العرب . واذ وجدنا عددا من الناس يتحركون هنا رغبنا في ان نتوقف برهة قصيرة ، وما ان دخلنا الخان حتى وجدناه غاصا بالحيوانات وأصحابها بحيث لم نستطع أن نشق طريقنا فيه الا بصعوبة على الرغم من سعته وحسن بنائه وكفايته لاستيعاب مالا يقل عن خمسمائة شخص داخل جدرانه . استرحنا في الساحة واديرت علينا كؤوس القهوة الفاخرة التي لا اتذكر انني شربت مثلها في اي مكان اثناء الطريق . وقد

سمعنا ان هذا الخان قد اشتهر بالقهوة الفاخرة التي تعد فيه وان ما جربناه هنا فيه يؤكد جدارته بمثل هذه الشهرة التي يتمتع بها تماما •

ولقد تأثرت كثيرا بالادب الجم الذي كان يتحلى به نزلاء الخان وسرورهم بكل ما يتعلق بنائه وفي حوالي الساعة الحادية عشرة امتطينا خيولنا ثانية ، واتجهنا نحو الجنوب ونحن نسير بين آونة واخرى نحو الغرب ايضا ، حيث عبرنا احدى القنوات فوق جسر متهدم مؤلف من قنطرة واحدة ضيقة لا تسمح الا بمرور شخص واحد في وقت واحد وقيل لنا ان هذه القناة قد حفرت حديثا ، وان الريف الممتد على ضفتيها غدا خصبا بفعل المياه المتدفقة من القناة غير ان الارض في الوقت الحاضر مهملة وذلك بسبب تعرض الذين يزرعونها لضرائب ثقيلة تفرضها الحكومة عليهم •

وقد ذكر لنا انه كان يتردد على هذا المكان بالذات اسد كبير يرد من الفرات مساء كل يوم بانتظام بحثا عن فريسة له ، الى ان اصطاده احد الاعراب من قبيلة « زبيد » التي تسكن هذه المنطقة الممتدة بين الفرات ودجلة •

الخامس والعشرون من تموز

اجتزنا بعد منتصف الليل تماما قناة عميقة وواسعة لكنها جافة تشبه في وضعها نهر ملكا* الذي يفترض ان ملوك بابل هم الذين حفروه والذي يستمر في مجراه من نهر الفرات عند مدينة ماسبركتا حتى النهاية الجنوبية الغربية القصوى من سور المدائن الى الموقع الذي قامت فيه مدينتا طيسفون وسلوقيا على نهر دجلة •

وقد استخدم هذا النهر ايضا في وقت متأخر في عهد الخلفاء لا لغرض ارواء

* يسمى الفرات نهر (بفتح الهاء وسكون الراء) أو نهر [بفتح النون وسكون الهاء] وهو مأخوذ من العبرية [انظر الاصل في سفر التكوين : الاصحاح ١٥ الآية ١٨ ، ويوسفس : الاصحاح الاول الآية ٤] • وفي سوريا لاتزال الكلمة (نهر) ـ بفتح النون وسكون الهاء ـ تعنى النهر ولكن تطلق هذه الكلمة في بابل بصفة رئيسة على الجدول •

الأراضي المحيطة به حسب وانما للملاحة بمرور الزوارق فيه من نهر الى آخر* •

وفي حوالي الساعة الثانية مررنا بخان ثالث يدعوه الاتراك « خان اورطة » ونسميه العرب « خان بير يونس » فاسمه الاول مأخوذ من وقوعه في منتصف الطريق بين الحلة وبغداد • واسمه الثاني أخذ من اسم بئر قيل ان النبي يونس كان يستقى منه اثناء سفراته من نينوى واليها •

مررنا بهذا الخان من دون ان ندخله وبعده بنحو ساعة وجدنا طريقا يتفرع نحو الغرب بينما الطريق المستقيم ما يزال مستمرا •

وقادنا خادمنا الزنجي الذي كان يعمل بمثابة مرشد لنا ، في الطريق الاول حتى اذا ما طلع النهار وجدنا أنفسنا في « خان مزرقجي أوغلو »(٤) على الطريق الى مسجد الحسين ، وعلى مرأى من « المسيب » التي يقوم فيها جسر فوق نهر الفرات • استدرنا من هذا الخان دون ان ندخله ولو انه بدا فسيحا حسن البناء •

* لا يوجد ادنى شك في ان هذا المكان ذاته هو الذى مر به « راولف » في طريقه من بابل الى بغداد ، والذي ظن خطأ بأنه سور بابلي قديم • فهو يقول [بعد ان قطعنا مدة اثنتي عشرة ساعة في مشقة واسعة عبر اماكن مهجورة ، ظهر الاعياء على ابلنا ودوابنا مما كانت تحمله من احمال ثقيلة ، هبطنا واسترحنا ، نحن وحيواناتنا ، على مقربة من مرتفع لنريح أنفسنا ولنمكث حتى الليل هناك • ثم ننهض عند منتصف الليل كيما نصل (بغداد) قبل شروق الشمس •

وفي ذات اللحظة التي نزلنا فيها ذلك المرتفع قمت بالتحري عنه فوجدته يتألف من مرتفعين احدهما خلف الآخر يفصل بينهما خندق ويمتدان وكأنهما جدارين متوازيين الى مسافة طويلة ، وقد تخللتهما فتحات كالابواب يستطيع المرء ان ينفذ منها • والذي اعتقده انهما سورا مدينة قديمة قال « بليني » عنهما ان ارتفاعهما يبلغ مائتي قدم ، وعرضهما خمسين قدما ، وان الفتحات فيهما تمثل الابواب القديمة للمدينة حيث كان يوجد فيها مائة باب حديدي • وهذا شيء محقق لانني شاهدت في بعض الاماكن تحت الرمال وفي المنطقة التي يغطيها ذانك المرتفعان ، جدارا قديما ظاهرا بكل وضوح •

[راوولف : ص ١٤٠] •

Rauwolff P. 140.

وتطلعنا نحو الشرق فرأينا في ذلك الاتجاه خان الاسكندرية على مسافة ثلاثة اميال •

ترجلنا هنا بعد شروق الشمس مباشرة ووجدنا مأوى فخما لنا ولدوابنا • ولذلك قررنا ان نمكث هنا طيلة اليوم لنتفادى الحر الذي غدا الان شديدا • بني هذا الخان في القرن الماضي على نفقة محمد حسين خان امير الدولة لحساب ملك فارس ، وذلك لغرض اراحة الزوار الفرس الذين يقصدون مسجد علي ومسجد الحسين • والمسجدان هما من اشهر المحلات التي تزار وفي هذين المسجدين توجد اغنى الاضرحة في العالم تقريبا والي جردها الاصلاحيون الوهابيون من ذخائرها مؤخرا* •

يختلف تصميم هذا الخان اختلافا جوهريا عما هو موجود من امثاله في الطريق من الموصل الى بغداد ، وهو مطابق اكثر من سواه للفكرة التي تكونت لدينا في أوربا عن الخانات الشرقية • فتلك الخانات تتألف من غرف عديدة معقودة سقوفها ذات مساحات مختلفة ، وتنفصل كل واحدة منها عن الاخرى ، وتوصل بينها فرجات من طراز تركي • اما هذا الخان فهو على النقيض من ذلك ومثل البقية على الطريق ما بينه وبين بغداد ، مؤلف من ركيزة مربعة ضخمة تكتنف ساحة مفتوحة • ويقوم داخل هذا المربع ممر مسقف يمر حول كل من الجوانب الاربعة ، ويحوي حظائر فخمة للماشية ، ومقاعد مرتفعة في فجوات عميقة مقوسة ، تشبه العديد من الغرف المنفصلة التي تعد لمأوى المسافرين في الشتاء او في موسم الامطار •

وفي خارج هذا المشى المسقف وأمام الساحة الداخلية ، تقع فجوات أو غرف معرضة للهواء الطلق • ومع ذلك فهي محمية من الشمس تماما في جميع نقاط الخان على اختلاف ساعات النهار • وتحتل الساحة ذاتها منصتان مرتفعتان مستطيلتان يسمح طولهما وعرضهما بوجود ممرات مناسبة فيما بينهما ومن حولهما •

* انظر وصف هذا التجريد في البحث الخاص بغزوات الوهابيين في المجلد الاول ص ٢٣١ •

وفي اسفل هاتين المنصتين وبامتداد الخارج ، توجد كوات واعمدة لربط الخيول اذا ما اريد حفظهما في الهواء الطلق • في حين اعدت المنصتان لينام المسافرون عليهما خلال ليالي الصيف الحارة الجافة • وتتصل بهذه غرف اخرى ، ومحراب للصلاة يرتفع في موقعه الصحيح من ناحية المرتفع الجنوبي • وما عدا ذلك فهناك اماكن فاخرة للطبخ وكميات وفيرة من الماء ، ولو انه ليس من نوع جيد ، يستخرج دائما من بئر ملحقة بالخان •

ويبدو هذا الخان بصفة عامة وكأنه يقي باسكان الف شخص مرة واحدة ويهيىء لهم الراحة فعلا •

والخلاف البارز في نمط الخانات هنا ، وفي تلك التي ترى على الطريق بين الموصل وبغداد ، قد ايد الفكرة التي تكونت لدي في الاصل عنها وهي ان هذه الخانات الاخيرة ذات نمط تركي شيدتها الحكومة بمثابة محطات لسعاة البريد وللموفدين العسكريين بين عاصمة الامبراطورية ومدنها الكبرى على حدودها باتجاه الجزيرة العربية وفارس والهند* في حين دعتني ذات الاسباب الى ان اعتبر تلك الخانات القائمة بين بغداد والحلة ذات اصل عربي او انها شيدت حديثا من قبل الملوك الايرانيين لاستراحة المسافرين من بلادهم الذين يقطعون هذا الطريق الى الاماكن المقدسة لديهم •

والناس المجتمعون في القرى الصغيرة حول هذه الخانات كلهم من أصل عربي وهم يتكلمون العربية حسب ما خلا واحد او اثنين من الموظفين الذين يحسنون التركية والفارسية لتعريف انفسهم للجمهور •

ولقد شيد خان الاسكندرية من آجر قديم حفر من الخرائب القائمة في ذلك الموقع • والحقيقة ان كل مايحيط بهذا البناء من آثار محطمة يكفي لحملنا على الاعتقاد بأن مأوى قديما كان قد وجد هناك • فهذه البقايا تتألف من قطع كبيرة من الآجر والخزف الاحمر الجميل وكلاهما مضلع ومستو ، والبعض منها

* انظر الاسباب التي ذكرت قبلا لهذا الرأي في الصفحة ١٣٨ من هذا المجلد الحالي •

مزجج بالوان مختلفة • بالاضافة الى اكوام من الانقاض تشبه تلك التي تتجمع عادة في مواقع الاماكن القديمة • ولم استطع معرفة اي اسم شائع اطلق على تلك الانقاض ، ولم نعثر على أية فكرة تكشف لنا أسباب الصاق اسمها الحالي بها • وواضح ان اسم الاسكندرية الذي أطلقه الاتراك على الاماكن الخاضعة لحكمهم لم يكن ليطلق من دون الاشارة الى بعض الاحداث التي رافقت حياة الاسكندر • وأكثر من المؤكد ان لهذا علاقة مماثلة بأمر يرتبط بتأريخ ذلك البطل ، والذي قد تكون ذكراه قد ضاعت الان سيما وان الانقاض الاثرية الظاهرة هنا تجعل المرء يتوقع سماع اسم قديم •

والملاحظ اننا في طريقنا من بغداد حتى هناك اجتزنا عددا من التلال والانقاض الظاهرة التي لم يعرف رفاقنا لها اسما ما ، ولم نر من المقيمين على الطريق ، ولا هنا من سكان هذه البلاد من كان يعرف مدينة « نهر الملك » الحديثة التي ثبتت في خارطة « الميجر رنل »(٥) •

* * *

وبعد قضاء يوم كانت الحرارة فيه لا تطاق ، وقد بلغت الدرجة ١١٧° في اقسام الخان الداخلية وفي اكثف ظل ، شرعنا نتهيأ للرحيل عند غرب الشمس واذ امتطينا خيولنا واصلنا سيرنا باتجاه جنوب الجنوب الغربي فاجتزنا ريفا منبسطا قاحلا تخترقه عدة قنوات صغيرة ما يزال الماء المتدفق من الفرات موجودا فيها ، حيث وصلنا بعد حوالي ساعتين الى « خان الحاج سليمان » • وقد قيل لنا ان هذا البناء قد شيد من قبل رجل عربي يحمل اسمه ، وهو ادنى في مساحته ومظهره الخارجي من الخانات التي مررنا بها •

ولقد اعتزمنا ان نستريح هنا ونتناول القهوة لكننا اخبرنا بان الخان قد هجر مؤخرا • ولذلك حصلنا على كمية طيبة من ماء النهر من القرويين الموجودين هناك واستأنفنا سيرنا •

وفي حوالي الساعة العاشرة بلغنا خان « المحاويل » حين ترجلنا لنمضي

الليلة فيه ، حيث فهمنا ان خرائب بابل ستكون ظاهرة بعد ان نجتاز هذا الموقع • ولذلك رغبنا ان نمر بها في وضح النهار • وجدنا هذا الخان مشابها لخان الاسكندرية في تصميمه العام وهو أكبر منه تقريبا • وهو قد شيد مثل ذلك الخان ايضا من آجر قديم جيء به من المناطق المجاورة وكان العمل جاريا في تصليح المنصات بآجر من الحجم الكبير احمر اللون جيء به من « القصر » في بابل كما اخبرنا الشيخ ذلك وقد اشتري هذا الآجر بالنقود •

لقد كان الذين مررنا بهم فيما مضى يعتبرونني الدليل العربي للمسيو بللينو ، وكنت استقبل على الدوام بهذه الصفة • لكننا ما ان جلسنا هنا في هذا الخان سوية حتى وقعت نكتة ثانية • فلقد سئلت عن الغريب الذي تعهدت بحمايته • وحين اجبت انه انكليزي سئلت ثانية عن مقدار الآجر الذي سأتناوله عن هذه الرحلة بعد اتمامها واعادته الى داره سالما • وذكرت مبلغا محددا واذ ذاك قيل لي ان في القرية مهرا صغيرا من اصائل خيول زبيد الشهيرة يراد بيعه وانني اذا ما رغبت في ذلك فقد احصل على صفقة مربحة • واضاف القوم الى ذلك قولهم انني اذا لم اكن احمل المبلغ المطلوب في جيبي فان الشخص الذي تحت حمايتي سيقدم لي سلفة على الحساب دون شك •

واعقبت ذلك محادثة طويلة تتعلق بهذا العرض طرب لها المسيو بلينو حين ترجمتها له مثل طربي أنا • ولم استطع التخلص الا بصعوبة من الحاحهم علي في شراء ذلك المهر الصغير الذى ظنوا ان رفيقي الاوربي على استعداد لدفع ثمنه • على ان هؤلاء الناس كانوا يعاملوننا نحن الاثنين بمنتهى الاحترام بعد ان عرفوا ان الاجنبي هو من اتباع « الباليوز بكى » (وهو اللقب الذي يعرف به المقيم الانكليزي في بغداد) • واضافوا الى هذا انهم كانوا يظنونني واحدا من رجال عوائل الاشراف في نجد ، وقد تم اختياري دليلا له اعتمادا على نسبي العريق ! •

* * *

السادس والعشرون من تموز

غادرنا المحاويل عند شروق الشمس ومع ان الوقت كان مبكرا فقد زودنا بفطور حسن من الخبز واللبن • وبعد ان غادرنا هذا الخان مباشرة عبرنا قناة يجرى فيها ماء الفرات وعليها جسر صغير • بدأنا نشاهد الان بعض التلال الصغيرة سيما وان احدها كان يقع على يمين الطريق والاخر على يساره وهي في حجمها وشكلها مشابهة لاصغر التلال التي شهدناها في نينوى ، وتحتفظ مثلها ببعض السمات المحدودة التي تميز نوع الانقاض التي تتألف منها هذه الخرائب •

لقد كانت تلك التلال اركام خرائب تكونت من تقوض الابنية وكان ذلك واضحا من وجود قطع الآجر والفخار المتناثرة حولها • لكننا لم نر لا كتابات ولا قصبا ولا قارا ، وهي الخصائص الكبرى للعمارات البابلية • واعتمادا على تحرياتنا الدقيقة التي قمنا بها ، قررنا ان تلك الخصائص غير موجودة ، أو أن التلال التي شاهدناها الان ليست لها قيمة اثرية مساوية لتلك التي عرفت عنها على اعتبار انها جزء من بابل نفسها • فبعدها عن الحلة حوالي ثمانية اميال لا يخرجها عن موقع تلك المدينة الشهيرة حتى لو انقضت مساحتها ، ولذلك اعتقدنا بانها قد تكون بقايا بعض اجزاء تلك المدينة الشهيرة التي تقع في اقصى حدودها الشمالية* •

---

* كانت بابل مدينة جد عظيمة وجد قديمة مثل نينوى • والحقيقة انها تعتبر بصفة عامة اصغر من نينوى لانها ، طبقا لما قاله سترابو ، لا تمتد سوى ثلثمائة وخمسة وثمانين فرسخا اغريقيا ، أو ثلاثمائة وستين فرسخا اغريقيا ، طبقا لما دونه ديودوروس الصقلي ، او ثلثمائة وثمانية وستين فرسخا كما ذكر ذلك كوينتوس كورتيوس (٦) غير ان هيرودوتس ، وهو لم يكن أقدم من المؤرخين الثلاثة ، يقدرها بنفس مساحة نينوى اي اربعمائة وثمانين فرسخا ، او اكثر من ستين ميلا • لكن الفرق هو ان نينوى شيدت على شكل متوازي الاضلاع في حين شيدت بابل على شكل مربع كامل ، اذ ان طول كل جانب من جوانبها يبلغ مائة وعشرين فرسخا • وطبقا لهذا التقدير تحتوي بابل في داخلها على ارض اوسع من تلك التي تحتويها نينوى ، لاننا لو ضربنا الجوانب احدها بالأخر لوجدنا ان المساحة التي تحتويها داخل اسوارها تبلغ ثلاثة عشر الف وخمسمائة فرسخ

ولم نر في طريقنا من هناك ما يستحق اية ملاحظة خاصة سوى قطع متناثرة هنا وهناك من الفخار والآجر ، والاقنية العديدة وبعضها قديم والبعض الاخر حديث وهي تقطع طريقنا على مسافات ، وكل منها تمتد من الفرات في

في حين تحتوي بابل على اربعة عشر الف واربعمائة فرسخ كما انها كانت قديمة ايضا بل اكثر قدما من نينوى ، حيث ورد في اقوال « موسى » عند الكلام على نمرود [سفر التكوين الاصحاح العاشر الآية العاشرة] انها كانت في بداية مملكته ، أي المدينة الاولى أو المدينة العاصمة في ممتلكاته • ويقول عدد من المؤرخين الجهلاء ان سميراميس هي التي بنت بابل • لكن معظمهم يذكر (كما قال كوينتوس كورتيوس) ان بيلوس هو الذي بناها ، وان بيلوس هذا هو نمرود نفسه على وجه التأكيد • على انهمهما كان المؤسس الاول للمدينة فان من العقل ان نفترض بان تحسينات كبرى قد ادخلت عليها فيما بعد ، وان نبوخذنصر هو الذي اصلحها ووسعها وجملها الى الدرجة التي يستطيع فيها ان يدعى بانه هو الذي بناها كما فاخر بذلك نفسه (سفر دانيال اصحاح ٤ آية ٣٠) حين قال « اليست هذه هي بابل العظيمة التي بنيتها لتكون بيت المملكة وذلك بقوة سلطاني ولشرف جلالتي ؟ » •

ولم يؤكد هذا في الكتاب المقدس حسب ، بل ايده المؤرخون السابقون من امثال مغاسثنيس(٧) وبيروسوس(٨) وابيدنوس(٩) الذين اقتبس اقوالهم كل من يوسفس واوسابيوس (١) •

(1) Joseph. Antiq. Lib. Xcapll Sec. I P. 450.

وبوسيلة واخرى غدت بابل مدينة عظمى وشهيرة ، يدل اسمها على امبراطورية جد كبيرة • واصبحت تدعى في الكتاب المقدس [سفر دانيال الاصحاح الرابع ٤٠] ببابل العظمى ، [سفر شعيا الاصحاح ١٠ آية ٢٠ ، ١٩] مجد الممالك ، وجمال الفخامة الكلدانية [اشعيا آية ١٤ ، ٤] والمدينة الذهبية [اشعيا ١٠ آية ٢ ، ٥] ، وسيدة الممالك [جيروم ١ آية ١٣] الوفيرة الكنوز [جيروم ١ ، ٤١] ثناء الارض كلها •• وجمالها •• وقوتها وعظمتها •• فاسوارها •• ومعابدها •• واماكنها •• وجنائنها المعلقة •• وضفاف نهرها •• والقنوات •• والبحيرات الاصطناعية التي صنعت لسحب مياه النهر في مواسم فيضاناته •• كل هذه قد وصفت ذلك الوصف المفعم بالابهة والاهمية من لدن المؤرخين القدامى مما جعلها تعد بحق احدى عجائب الدنيا • ولعل اكمل وافضل وصف لهذه الاشياء في اللغة الانكليزية يمكن الاطلاع عليه في الجزء الثاني من المؤلف القيم النافع الذي وضعه الدكتور بريدوكس(١٠) •

ومع ان بابل كانت تقع في سهل مائي الا انها دعيت في الكتاب المقدس

اتجاه الشرق نحو دجلة وانها ولاشك كانت في الاصل تربط مياه هذين النهرين الكبيرين •

وفي حوالي الساعة السابعة ارتقينا تلا عاليـا يدعوه السكان المحليـون « بالمجلبي » من الكلمة العربية « المقلبي » او المقلوب كما يكتبه الاوربيون هكذا وهو يعنى المقلوب* •

وهذا ظاهر تقريبا على طول الطريق من المحاويل ، ويمتد الى يمـين او غرب الطريق القادم من بغداد وعلى مسافة ربع ميل تقريبا • ولقد انتحينا عـن

[جيروم ١ ، ٢٥] بالجبل على اساس الارتفاع الشاهق الذي بلغته اسوارهـا وابراجها ومعابدها • وقد تحدث بيروسوس عن بعض ابنيتها فقال عنها انها كانت تبدو اكثر شبها بالجبال(١) • فابوابها المصنوعة من البرونز واسوارها الواسعة قد ورد ذكرها في الكتاب المقدس [سفر اشعيا الاصحاح العاشر الآيتان ٥ ، ٢] [سفر جيروم آية ٥٨] • وكان للمدينة مائة باب(٢) ، خمسة وعشرون بابا في كل جهة منها ، وقد صنعت كلها من البرونز الصلب • وكان ارتفاع اسوارها ، طبقا لما ذكره هيرودوتيس ، ثلثمائة وخمسين قدما ، وسمكها سبعة وثمانون قدما ، وتستطيع ست عربات ان تسير فوقها مرة واحدة كما اكد ذلك ديودوروس بعند ستسياس(٣) •

[Newton on the Prophecies P.P. 158 — 160.]

[نيوتن عن النبوءات ص ١٥٨ _ ١٦٠] •

(1) Joseph. Antiq. Ibid.

(2) Herodotus : Ibid Cap 179 P. 74.

(3) Diod. Sico. Libii P. 68.

* ان بابل فخر الممالك وجمال الفخامة الكلدانية ستصبح مثلما صنع الرب بسدوم وعمورة(١١) ، ان احدا لن يسكنها ، ولن يعيش فيها احد من جيل الى جيل ، ولن تنصب خيام العرب هناك ، ولن يبيت الرعاة فيها • غير ان ضواري الصحراء ستضطجع فيهـا ، وستكون بيوتها ملىء بالمخلوقات الحزينـة(١٢) وستعوى وحوش الجزيرة في بيوتهـا المقفرة ، والافاعي في أماكنها البهيجة وان اوانها يوشك ان يحل وايامها لن تطول •

[سفر اشعيا الاصحاح الثامن الآية ١٩] •

Isaiah : Chap. XIII V 19.

طريقنا لنفحص هذا التل لانه اول اثر يستحق الاهتمام يبدو لنا في طريقنا من الشمال • واذ اقتربنا منه عبرنا اول حفرة خارجية اعتبرناها بقية قناة لكنها كانت مستديرة الشكلي بصفة واضحة وهي تحيط بالتل كله •

ومن ثم ، وعلى بعد بضع ياردات أخر ، دخلنا قعر حفرة داخلية كانـت اوسع وأوطأ واكثر ظهورا ممن الحفرة الخارجية • واذ ذاك يرتفع التل في ارتفاع متسلسل يستطيع المسافر ان يصعد اليه بالطرق الملتوية التي احدثتها كثرة الزيارات الى ذلك الصرح المتهدم •

والشكل العام لهذا الاثر يتراوح بين المستطيل والمستدير وقد غدت جميع جوانبه غير اعتيادية بفعل التخريب • والآراء الاربعة التي ذكرت عنه من قبـل المستر ريج في كتابه « تذكرة عن بابل »(١٣) تبدو صحيحة بشكل يدعو الـى الاعجاب ، وقد تأكدت لنا صحة كل قياساته عن ذلك الموقع • وهذه القياسـات توضح ان مجموع محيط الاثر عند قاعدة التل يبلغ الفين ومائة وعشرة اقـدام ، وان ارتفاعه بالنسبة الى أعلى الزوايا في الناحية الشرقية الجنوبية يبلغ مائة وواحدا واربعين قدما •

واذ بلغنا قمة ذلك التل الكبير وقعت اولى نظراتنا على نهر الفرات وهـو ينساب بجلال عبر الضفاف الخضراء ، ولا يفتأ مجراه الملتوي يضيع نفسه بين بساتين النخيل في الحلة التي كانت تبين مساجدها ومآذنها على بعد خمسة اميال الى الجنوب من المكان الذي كنا فيه • وكنا من هناك نلقي نظرة مهيمنة عـلى الخرائب من حوالينـا والتي بدت مطابقة تماما مع المخطط الذي احتواه كتـاب ريج بحيث لم يترك ما يمكن اضافته الى ذلك المستند الهام* •

---

* كان المستر ريج الذي كرس اهتماماته لهذا الموضوع بعد اقامته في بغداد مباشرة ، وقام بعدة رحلات الى خرائب بابل في ظروف تهيأت له فيها كل التسهيلات للاطلاع الدقيق ، قد جسد أبحاثه في كتابه « تذكرة عن بابل » الذي أهداه الى البارون « فون هامر »(١٤) وهو من الكتاب المطلعين في احدى المجلات الدوريـة التي تصدر في فينا والتي نشرت فيها هذه التذكرة في الاصل • لقد كانت هذه النسخة هي التي قرأتها بفرح وقد تهيأت لي فرصة استشارة مؤلفها في بغداد ،

وبعد ان فحصنا هذا التل في كل تفصيلاته تأكدت لدينـــا فكرة اتصـــاله بالجدران والخنادق التي تحيط به • وقد كانت علائم ذلك ظاهرة في الجهتـــين الشرقية والجنوبية في المكان الذي دخلنا منه الى التل وغادرناه وقد أكـد المستر ريج استمراره حين قال (ص ١٤٥) « عند قاعدة المجلبي وعلى بعد سبعين ياردا منه في الناحيتين الشمالية والغربية ، توجد آثار لتل واطىء جدا من التراب والذي كان يؤلف سياجا يحيط بالتل كله » •• وكان الواضح ايضا ان ذلك التل انقاض تتألف من ابنية مختلفة ذات اشكال متباينة مخصصة لاغراض متنوعة ، وقد بنيت من مواد مختلفة • ومهما يكن الامر فان الاوصاف القديمة لبرج بيلوس لاتنطبق بصفة عامة على البقايا التي ذكرت عنها • ولقد ابدى المستر ريج عن هذا الموضوع ملاحظة حسنة فقال (ص ١٥٣) « ان جميع الرحالين منذ عهد بنيامين التطيلي ، الذي كان اول من احيا ذكرى هذه الاطلال ، حيثما تخيلوا انفسهم على مقربة من موقع بابل راحوا يتطلعون ، بصفة شاملة ، الى الربوة التي تمثل برج بيلـــوس وكان هذا أمرا طبيعيا حتى عندما كان بنيامين والرحالون الاوائل الذين جاؤا من بعده يظنون انهم قد ميزوا هذا البرج بين اطلال « الفلوجة »[١٥] في اعالـــي الفـــرات » •

واليها وحدها تعزى جميع الاشارات التي وردت هنا • وقد طبعت هذه التذكرة فيما بعد في كتاب مستقل من قبل بعض اصدقاء ريج في انكلترا ، لكنها سرعان ما غدت نادرة لانه لم يعد يمكن الحصول عليها بالشراء • وبعـــد عناء ملحوظ عانيته في سبيل الحصول على نسخة منها في انكلترا لم انجح بعد في ذلك • وقد يكون هذا اقل مدعاة للدهشة ففي كتابه الثاني المعنون « التذكرة الثانية عن بابل » الذي كتبه بعد مغادرتي بغداد بسنة واحدة وكان جوابا على ملاحظـــات اوردها « الماجور رنل » عن « التذكرة الاولى » والتي قدمت في الاصل الى جمعية العاديات ونشرت بعد ذلك في مجلة اركيولوجيا « علم العاديات » ، يقول المؤلف نفسه انه الى الوقت الذي كتب فيه تذكرته الثانية في تموز ١٨١٧ لم يكن قـــد رأى النسخة الانكليزية من التذكرة الاولى ولو انها لابد وان تكون قد طبعت منذ وقت بعيد ، ان تذكرة التذكرة الاولى ، بالاضافة الى المخططات والآراء الصائبـــة التي رافقتها ، كل ذلك حملني على الاعتقاد بانني ساقدم خدمة مقبولة للقارىء كما اقدم خدمة لشهرة مؤلفها المرحوم وذلك باضافة تلك المخططات والآراء الى الصور التي يحويها هذا الجزء •

وكان الرحالة (بيترو ديلا فاله)[١٦] أكثر عذرا حين اختار هذا التـــل ـ وهو أكثر احتمالا من بقية التلال الممتدة في الناحية الشرقية من النهر ـ ليعتبره بقايا ذلك البرج الذي كانت « قمته تصعد في السماء »* •

توجد على الوجه الخارجي من تل المجلبي هذا بقايا جدران وأبنية كثيرة تؤكد بان قاعدته ما تزال بناء صلبا ، وان من النادر ان تكون هذه القاعدة قـــد توسعت نتيجة تراكم الانقاض • وهذا هو الحال أيضا فوق قمته ، حيث ما تزال الجدران وأجزاء الابنية مفتوحة في كثير من الاماكن • وحتى عندما وجدت الانقاض المتساقطة لتغطية السطح فانها كانت بكميات ضئيلة وقد تكونت بالانهدام التدريجي للاجزاء الخارجية التي تعرضت لفعل العوامل الطبيعية وانتشرت فوقها مع اجزاء الآجر والفخار* •

---

* سفر التكوين الاصحاح الحادي عشر آية ٤ •

Genesis : Chap. 11 V 4.

* ربما كان ادق واوسع وصف لبابل القديمة هـــو وصف ديودوروس الصقلي الذي دونه بما لا يزيد عن نصف قرن قبل ميلاد المسيح حيث يتكلم عن مدينة كانت قد تحولت الى خرائب قبل عهده بزمن طويل وكانت حتى ذلك الوقت هدفا للبحث الاثاري وعدم التأكد • ولما كان وصفه يتضمن اشارة محددة لكثير من المنازل والابنية التي سيرد ذكرها في الصفحات المتعاقبة من الاصل ، فقد يكون من المقبول به لدى القراء الذين يرغبون في البحث الدقيق للموضوع ان يجدوا هذا الوصف امامهم • وبتأثير هذا الانطباع نقدمه فيما يلي :

« كانت سميراميس بالطبع ذات روح سامية ملهمة ، وطموحة الى التفوق على من سبقوها بالاعمال المجيدة • ولذلك استخدمت المعماريين والفنانين وكـل اللوازم الاخرى للعمل ، وانتخبت مليوني رجل من جميع انحـاء الامبراطورية لاستخدامهم في بناء المدينة • ولقد شيدت المدينة بحيث يمر نهر الفرات من وسطها واحاطتها بسور يبلغ محيطة ثلثمائة وستين فرسخا حلي بالعديد من الابراج • وعلى مثل هذه الشاكلة كانت صفة البناء وعظمته ذلك ان عرض الاسوار كان من السعة الى درجة تسمح بمرور ست عربات فوقها مرة واحدة •

كان ارتفاع ابنية المدينة بدرجة تجاوزت صدق كل الناس الذين سمعوا بها « كما ذكر ذلك » ستسياس السنيدي[١٧] • لكن « كليتار خوس »[١٨] ومن جاء بعده ممن رافقوا الاسكندر في حملته الى آسيا ، ذكروا فيما كتبوه ان طول

كل الاسباب تدعو الى الاعتقاد – سواء في ذلك مظهر قمة التل ، وعدم وجود كمية كبيرة من الانقاض فوقها وكذلك حول قاعدته – بان ارتفاع التل لم يكن في الاصل اعلى من الجزء المرتفع الموجود حاليا ، او انه يبلغ مائة واربعين قدما من مستوى

الاسوار ثلثمائة وخمسة وستون فرسخا ، وان الملكة قد جعلتها بهذا الطول لتكون عدد الفراسخ موازية لعدد ايام السنة .

وقد شيدت هذه الاسوار بالآجر والكبريت الى ارتفاع ثلثمائة قدم كما يقول ستسياس ذلك . غير ان بعض المؤرخين المتأخرين يذكرون أن ارتفاع الاسوار كان خمسين ذراعا حسب ، وان عرضها لم يكن ليزيد الا قليلا عن المدى الذي يسمح بمرور عربتين معا .

وكان يوجد مائتان وستون برجا يتناسب ارتفاعها وسمكها مع سعة السور . وليس من المدهش ان نجد مثل هذا العدد الضئيل من الابراج فوق سور يمثل ذلك الطول العظيم ، اذا ما علمنا بوجود عدد كبير من البطائح العميقة في أماكن عديدة حول المدينة ، اذ تنتفي الضرورة لبناء الابراج هناك وذلك لكون تلك الاماكن محصنة تحصينا طبيعيا .

وبين السور والمساكن يوجد فراغ يحيط بالمدينة الى مسافة مائتي قدم .

كان بناء المدينة قد تم بسرعة ملحوظة . فقد خصصت الملكة فرسخا من الارض لكل واحد من أصدقائها وزودتهم بكل النفقات اللازمة لاقامة الابنية في الارض التي خصصت لهم ، وطلبت اليهم ان يكملوا البناء في بحر سنة واحدة .

وحين كمل البناء بالمثابرة وبتشجيع الملكة واستحسانها انشأت سميراميس جسرا فوق الجزء الضيق من النهر يبلغ طوله خمسة فراسخ . واقامت على ضفتي النهر سدتين تبلغ سعتهما سعة السور ذاته ، واستطاعت ان تمد هاتين السدتين الى مسافة مائة فرسخ .

وعلى ضفتي النهر في نهايتي الجسر شيدت قصرين تشرف منهما على المدينة كلها وبما كان لديها من مفاتيح تستطيع ان تنتقل الى اية اماكن ملائمة لها متى مارغبت في ذلك .

ولما كان نهر الفرات يمر وسط بابل متجها نحو الجنوب ، فقد اقتضى لبناء القصور التي تقع على ضفتيه الشرقية والغربية نفقات هائلة . واقامت على الجانب الغربي سورا عاليا مستويا بالآجر يبلغ محيطه ستين فرسخا [ستة اميال ونصف] وبني داخل هذا السور سور اخر دائري المحيط . وقبل ان يشوي اللبن الذى اعد لبناء هذا السور ، نقشت عليه صور كل انواع المخلوقات الحية بمهارة فنية وبالوان زاهية وكأن الحياة قد بعثت فيها حقا .

كان محيط هذا السور اربعين فرسخا ، وعرضه ثلثمائة آجرة ، وارتفاعه

الارض في حين ان ارتفاع برج بيلوس كان قد حدد ، طبقا لاوطأ رقم حسابي بخمسمائة قدم في ارتفاع عمودي ،وانه كان يتألف من ثماني طبقات تدخل الواحدة منها في الاخرى على هيئة هرم .

– كما يقول ستسياس – مائة يارد . وقد شيدت فوقه ابراج ترتفع بمقدار مائة واربعين ياردا .

اما السور الثالث وهو داخلي أيضا فانه يحيط بالقصر مباشرة في استدارة قدرها ثلاثون فرسخا وهو يفوق السور الوسط في الارتفاع والسمك . وعلى هذا السور ، والابراج القائمة عليه ، رسمت صور كل اصناف المخلوقات الحية بمهارة وبالوان زاهية . وكانت هذه الرسوم تمثل بصفة عامة عمليات صيد كل انواع الحيوانات المتوحشة وكان ارتفاع كل رسم منها اربعة اذرع .

ومن بين هذه الرسوم يشاهد رسم سميراميس ممتطية صهوة جواد وهي تطعن بنبلة احد الفهود والى جانبها زوجها « نينوس » وقد التحم في معركة مع احد الاسود فانفذ فيه رمحه .

ولهذا القصر ثلاثة ابواب اقيمت تحتها شقق من البرنز للمتعة وكانت الممرات في هذه الابواب تفتح بالات خاصة .

وهذا القصر يفوق ، في ضخامته وزخارفه ، القصر القائم على الجهة الاخرى من النهر . ذلك لان أعظم جدار في القصر الواقع في الناحية الغربية والذي شيد من الآجر الممتاز ، لا يزيد طوله عن ثلاثين فرسخا .

وحين يتحول النهر الى الخزان ، وقد شيد قبو فوق مجراه القديم ، ينحصر الماء فيرتفع فوق البناء المشيد في القناة القديمة ، وبهذه الوسيلة تستطيع سميراميس ان تنتقل من القصر الشرقي الى القصر الغربي داخل ذلك القبو ومن دون أن تعبر فوق النهر .

وفي نهايتي ذلك القبو شيدت سميراميس بابين برنزيتين ظلتا قائمتين حتى في عهد الامبراطورية الفارسية .

كذلك شيدت وسط المدينة معبد « زحل » الذي كان البابليون يطلقون عليه اسم « بيلوس » .

ومنذ ان تهدم ذلك المعبد تماما بمرور الزمن واختلف المؤرخون بشأنه ، فلم يعد مستطاعا التحدث بشيء حقيقي عنه .

ومع ذلك فالظاهر انه كان على ارتفاع شاهق ، وان الفلكيين البابليين قد استفادوا منه في مراقبة طلوع النجوم وغروبها . وقد بنى هذا المعبد كله بالآجر والكبريت في مهارة وكلفة عظيمتين .

اما الانقاض المتراكمة الآن فانها تساوي في ارتفاعها الاثنتين من تلك الطبقات ومع ذلك فلم يظهر أي جزء تمكن رؤيته على الوجه الخارجي من الجوانب ، ولو ان الاسوار والمباني المشيدة من الآجر ، كما شوهد ذلك قبلا ، ماتزال ظاهرةهناك

وكانت تقوم على قمة المعبد ثلاثة تماثيل من الذهب المصفى لكل من زحل [جو بتر] وزوجته « يونون » [جونو](١٩) و « أيا »(٢٠) بالاضافة الى اواني ، وموائد ، وحلى من الذهب والاحجار الكريمة التي تزن حوالي ستة الاف وزنة بابلية • غير ان ملوك فارس نهبوا كل هذه الكنوز ودمروها ، وتهدمت تلك القصور والمباني الاخرى بمرور الزمن ولذلك فلا يوجد سوى جزء صغير من بابل مأهول بالسكان ، بينما تحول القسم الاكبر منها والذي يقع داخل الاسوار ، الى مرعى واراضي للزراعة •

وفي بابل ايضا وجدت الجنائن المعلقة [كما تدعى هكذا] على مقربة من القلعة • ولكن هذه الجنائن لم تشيدها سمير اميس وانما شيدها احد الامراء المتأخرين المسمى « كورش » وقد شيدها لحساب محظية له قيل عنها انها كانت فارسية المولد وكانت مولعة بالاشجار التي تنمو على قمم الجبال • ولذلك رغب الملك في انشاء مزرعة اصطناعية تقليدا بذلك لارض فارس •

كانت مساحة هذه الجنائن اربعمائة قدم مربع • وكان الصعود اليها اشبه بالصعود الى قمة الجبل • وكانت تقوم في الجنائن بنايات وشقق متداخلة احداها بالاخرى وهي اشبه بالمسرح وشيدت تحت درجات السلم اروقة يقوم الواحد منها فوق الآخر وهي ترتفع في درجات تستند الجنائن عليها •

وفوق أعلى رواق من هذه الاروقة ويبلغ ارتفاعه خمسين ذراعا ، كانت ترتكز منظرة الجنائن • اما الجنائن ذاتها فقد احيطت بالشرفات والمتاريس •

وشيدت الاسوار قوية • وانفق على بنائها اموال طائلة • وكان سمك الاسوار اثنين وعشرين قدما ، وعرض كل باب فيها عشرة أقدام •

وعلى طبقات عديدة من طبقات الهيكل انشئت دعائم واطواق من الصخور المتراصة طول كل واحدة منها ستة عشر قدما وعرضها أربعة أقدام • أما السقف الذي يعلو هذه الدعائم فقد غطي أول الامر بالقصب المطلي بالكبريت الوفير « والقار » فرشت فوقها طبقة سميكة من القاشي والبلاط الصلب وعلى هذه الطبقة فرشت طبقة مكونة من صفائح من الرصاص بحيث لا تستطيع الرطوبة أن تنخر أسس البناء ، وعلى طبقة الرصاص هذه فرشت طبقة من التراب ذات عمق متناسب يكفي لنمو أضخم الاشجار •

وبعد أن سويت هذه التربة وهيئت تم زرعها بمختلف أنواع الاشجار التي كانت تسر الناظرين بجمالها وضخامتها •

في أجزاء كثيرة • وهذه تبرهن ، من دون شك ، على عدم وجود كميات واسعة من الانقاض في تلك الانحاء •

ولم تختف الطبقات العليا الست التي تكمل الارتفاع كله (والتي يفترض انها كانت تؤلف برج بيلوس كما ذكر ذلك خطأ) من دون ان تترك كتلا هائلة من الانقاض نتيجة سقوطها •

وقد تحدث كل من « سترابو » و « اريان » فذكروا ان الاسكندر عندما أراد ان يصلح هيكل بيلوس ، وجد ان ذلك يتطلب عملا ضخما جدا • فقد كان الاعتقاد السائد في ذلك الوقت ان ازاحة الانقاض تحتاج الى عشرة آلاف رجل يعملون طيلة شهرين •

ولكن هذا القول في الظاهر لا ينطبق على الوضع الحالي للمجلبي اذ لا توجد خلف البناء المتهدم سوى كميات قليلة من الانقاض •

ومساحة هذه الانقاض التي كانت تتجاوز قبلا مئتي قدم مربع هي المساحة التي قدرت بها قاعدة برج بيلوس •

وعلى هذا لو بقي اي بناء بشكله الكامل على الوجه الخارجي لهذه الانقاض فان هذا البناء يجب ان يعتبر بمثابة المعاقل الخارجية الاصلية لهذه الانقاض ، وذلك لاحتساب مقاسه ضمن حدوده الحالية •

أما الاروقة التي كان الواحد منها يستقر على الآخر كيما يتسلط بذلك الضياء من رواق على آخر ، فكانت تضم العديد من الغرف المختلفة الاشكال والمعدة لمختلف الاغراض • وكانت بعض هذه الاروقة تضم مكائن تستخدم لسحب الماء من قاع النهر الى الجنائن عبر أنابيب وأقنية تصعد الى منصة الجنائن •

ولم يكن أحد مهما أوتي من الحكمة أن يعرف ماتم صنعه في ذلك الوقت • فالجنائن المعلقة — كما قلنا قبلا — قد انشئت في العصور المتأخرة •

[ديودورس الصقلي] : الكتاب الثاني الفصل الاول

Diodorus Siculus : Book II C. 1.

يقول سترابو انجوانب البرج كانت قد شيدت بالآجر •ويصرح ديودوروس ان البرج كان على ارتفاع شاهق وقد شيد من الآجر والقار *

لكن الاجزاء الخارجية من البناء هنا لايظهر فيها سوى اللبن المبني بالطين الكثيف • وبين كل ساف توجد طبقة من القصب او الحلفاء صفت بشكل متقاطع اشبه بالحصر المنسوجة وعلى غرار ما هو موجود منها في عكركوف •

وينكشف الجزء الداخلي عن رؤية بعض الابنية الصغيرة ، شيد بعضها بالآجر والجبس ، والبعض الآخر باللبن والطين •

وتبدو هذه الابنية في اشكال وحجوم مختلفة ، وقد شيدت في عصور متفاوتة ولو انها تعود كلها الى العهد البابلي من دون شك •

فلو كان هذا التل هو برج بيلوس ، وكنت الطبقات الست العليا قد تهدمت فان قمته لابد ان تكون مغطاة ببقاياها ذلك لانه لايعتقد ان العرب استطاعوا ، بمرور الزمن ، ان يرفعوا تلك الانقاض التي كان عمال الاسكندر يعتبرون نقلها من الاعمال التي تحتاج الى جهد عظيم جدا • ومع ذلك فلا توجد الآن مثل تلك الانقاض الهائلة ، والابنية التي تؤلف هذا الركام مكشوفة ويمكن الحفر فيها بادنى جهد ينفقه اهل البلاد فيها والذين يبحثون منهم عن الآجر ، او الرحالون والزوار الذين ينقبون فيها بقصد الاستكشاف •

فهذا « الماجور رنل » الذي كانت اقواله جد صائبة عن الجغرافية القديمة

---

* انظر أيضا [سفر التكوين الاصحاح الاول الآية الرابعة] الذي جاء فيه «وكان لديهم الآجر يصنعون منه الحجر ، والطين يصنعون منه الملاط» • ويتحدث « راوولف » «عن القار أو الزفت الذي اشتهرت بابل به ، وكان موجودا بكثرة في وقته» • فهو يقول »وعلى مقربة من الجسر توجد عدة أكوام من الزفت البابلي تطلى به السفن أيضا • ويكون هذا الزفت في بعض الاحيان صلبا بحيث تستطيع أن تمشى فوقه • لكنه كان لينا في أماكن اخرى تم جلبه اليها مؤخرا ، ولذلك كانت ترى آثار كل خطوة تخطوها فوقه « •

Rauwolff P. 135. [راوولف : ص ١٣٨] •

والمواقع المحلية ، قد حذا حذو « بترووديلافاله » فاعتبر هذا التل بأنه بقايا برج بيلوس غير ان المستر ريج لاحظ بصواب « ان ذلك الجغرافي الكبير لم يعين مكان البرج من بين الاطلال الاخرى ، وانما افترض وجوده فرضا ليؤكد بذلك موقع بقية انحاء بابل ويحدد مساحتها»*

وعلى هذا فأن صحة أقوال « رنل » في هذا الشأن لا تخرج عن أقوال « ديلا فاله » الذي سار على نهجه على اساس انه من احسن المعروفين لديه آنذاك ***

والبراهين التي جمعها الماجور رنل ليؤكد بها الافتراض القائل ان برج بيلوس كان يقع على الضفة الشرقية من النهر ، قد رد عليها المستر ريج ردا ضافيا فهو حسبما عرف عنه قبلا– لم يدع اي مجال للشك حول ما اذا كان البرج يقع في الشرق ام في الغرب • ويبدو ذلك واضحا تماما بالنسبة لتحديد المواقع النسبية حيث يقع معبد جوبتر « بيلوس » عند ناحية الهر ، أو انه يحتل مكانا قريبا من مركز احد اقسام المدينة ، بينما كان القصر الملكي يحتل الناحية الاخرى *

والذي يخيل الي هو ان القصر الملكي هذا يؤلف جبل « المجلبي » لانه يتشابه في موقعه وفي مظهر انقاضه مع البناء المنوه عنه ، أكثر من تشابهه مع برج بيلوس لكثرة الوصف الذي ذكر عنه •

ويبدو انه كان في بابل قصران • قال ديودوروس ان احدهما يقع شرقي الفرات والآجر في غربيه • وهذان القصران بالاضافة الى معبد بيلوس يعتبران من اعجب الهياكل عظمة •

---

*تذكرة ريج في مجلة «كنوز الشرق» ص ١٥٤

Les Mines De L'orient. P. 154.

*** الميجر رنل : مصور جغرافية هيرودوتس •

Major Rennel : Illustrations of the Geography of Herodotus.

* « في وسط كل قسم من أقسام المدينة ساحة مستديرة محاطة بسور • وفي احدى هذه المساحات يقوم القصر الملكي الذي يشغل مساحة واسعة ومحصنة تحصينا قويا • ويحتل معبد جوبتر (بيلوس) الساحة الاخرى » •

هيرودوتس : ص ١٨١

Herodotus : Clio. 181.

ويضع هيرودتس ـ كما رأينا ـ المعبد والقصر كل في المكان المخصص له من المدينة فيحتل ساحة مستديرة محاطة بسور • ويضيف هيرودوتس الى ذلك قوله ان القصر كان محصنا تحصينا قويا •

ويذكر « رنل « ان مساحة أحد القصرين والذي يسميه البعض بالقلعة ، كانت خمسة عشر فرسخا مربعا او ما يقرب من ميل ونصف الميل •

ويزيد رنل على ذلك قوله « ان ديودورس قد أشار باهتمام الى القصر الذي كان يقع على مقربة من الجسر على ضفة النهر تماما ، وانه قد تأثر بالوصف الذي أورده كل من سترابو وكورتيوس اللذين تصورا ان الجنائن المعلقة تقع على مكان قريب جدا من النهر ، بينما يتفق الجميع على ان هذه الجنائن كانت داخلة ضمن الساحة التي يقع فيها القصر المحصن أو ملحقة بها •

* * *

يمثل تل المجلبي أربعة جوانب لكل منها مرتقى منحدر • وهو في شكله هذا يشبه التلال الاصطناعية التي كانت تقوم عليها قلاع « حمص » و « الحـيرم » وحلب في سوريا وقلعة «أربيلا» ، أو « أرويل » التي انشئت شرقي دجلة •

يقول المستر ريج « ان الوجه الغربي من هذا التل وان كان أقل الوجوه استواء الا أنه اكثرها أهمية بالنسبة الى مظهر البناء الذي يمثله • فعلى مقربـة من قمته يبين جدار واطيء تجتازه مقاطع من اللبن الممتزج بالقش أو القصب المهروس والطين الكثيف حيث توجد طبقة من القصب بين كل مسافة وأخرى • أما في الناحية الشمالية من التل فترى بقايا بناء مماثل أيضا • ويقوم على الزاوية الجنوبية الغربية منه مايشبه البرج أو الحصن •

والزوايا الاخرى متهدمة لكنها قد تكون في الاصل مزخرفة بذات الطريقة»*

فهذه المظاهر وما يضاف اليها من خنادق وأسوار تحيط بها ووقوعها على بعد ربع ميل عن ضفة النهر ، كلها شواهد قوية تؤكد بأنها هي القصر المحصن

* تذكرة ريج في مجلة «كنوز الشرق» •

الذي مر وصفه • والدليل الوحيد الذي يقوم ضد هذه الشواهد هو المظهـر الداخلي للخرائب وصلابة بنائها • فالواضح ان القسم الداخلي من البناء كـان يتألف من مبان مختلفة ذات أشكال ومساحات ومواد منوعة وهذه قد تـرى بوضوح أكثر من فحص التل ذاته ، أو أن تجمع المعلومات عنها من التقارير التي وضعها اولئك الذين سجلوا ملاحظاتهم عن ذلك الموقع •

ويصف «ديللا فاله» هذا التل بانه ركام واسع من الانقاض يختلف عن الاصل • ولم يتيسر لديه مايستطيع به أن يقطع برأي قاطع عما كان عليه أصلا • فقد رأى في قمة التل ماكان يستخدم بمثابة مغارات أو خلايا لكنها كانت متهدمة مما لم يستطع معه أن يحكم ما اذا كانت هذه الخلايا جزءا من البناء الاصلي أم انها حفرت فيما بعـد •

والحقيقة أن ظهور هذه الخرائب في شكل كتلة مختلطة مشوشة يحول دون تمييز أي من أجزائها • كذلك لاحظ « ديلا فاله » اختلاف المواد التي تتألف منها تلك الخرائب فقد ظهر أنها مبنية في بعض الاماكن من الآجر والكلس أو القار، بينا ظهرت في أماكن أخرى انها مبنية باللبن والطين الممزوج بقطع القصـب •

ولاحظ ديلا فاله أيضا الاسس التي تحيط بذلك التل الكبير والتي كانت تبعد زهاء خمسين أو ستين خطوة عن قاعدته •

ويدلل وصف المستر ريج ، وهو مايزال أكثر اسهابا وتفصيلا ، على وجود غرف ، وممرات ، وأقبية مختلفة الاحجام والاشكال مشيدة كلها من مواد مختلفة•

والصلابة الظاهرة في هذه الخرائب والتي تؤكد بانها لم تكن قلعة مـن القلاع ، تعود الى الساحات القائمة بين هذه الابنية والتي تمتليء الآن بأنقاض من الاجزاء المتهدمة من تلك الابنية ذاتها •

وما خلا ذلك فان المعروف في كل أنحاء العالم هو أن المعابد كانت تقـوم في أبنية مكشوفة بصفة عامة ، بينا تتألف القصور والقلاع ، ولاسيما الشرقيـة منها ، من منازل محصنة تزدحم بالناس الذين يعملون في خدمة أسيادهم •

وحتى من هذه الناحية فان التل موضوع البحث ليس بالتل المستوي الذي يمكن أن تقوم عليه قلعة محصنة بكل مشتملاتها بدلا من أن يكون برجا أو معبدا يرتفع الى علو خمسمائة قدم .

أما ماقيل عن عثور بعض المواطنين المحليين في هذا التل على تابوت من خشب التوت يضم جسم انسان ملفوف بالشاش الخفيف ومطلي جزئيا بالقار ، وما عثر عليه المستر ريج من تابوت مماثل يحوي هيكلا عظميا في حالة جيدة مع التمائم المعروفة في زمن البابليين ، وكل ما اسفرت عنه تنقيباته هناك من نتائج هامة ، فان ذلك كلهقد يشير الى أن هذه اللقى تعود الى قلعة أو قصر ولا يمكن العثور عليها في معبد حيث لا يسمح لاحد الموتى أن يدفن في النطاق المقدس من المعبد .

* * *

وبعد أن فحصنا تل المجلبي عثرنا فيه على قطع من اللبن الصلب عليها كتابات بالخط المسماري أو البابلي ، ثم غادرنا التل لنشاهد سواه حيث بلغنا ضفة النهر مباشرة .

كنا نظن أن نهر الفرات هنا أوسع من أي جزء شاهدناه من نهر دجلة حتى الآن . ولقد دهشت للشبه الكبير بينه وبين نهر النيل شمالي القاهرة .

كانت الضفاف تكسوها بساتين النخيل على كلا جانبي النهر وكان الماء ينساب بهدوء ، وبمعدل ميلين في الساعة . وكانت ترى وسط النهر بعض البقع الرملية المدورة التي تغطيها الحلفاء مثلما هو مألوف في نهر النيل .

وكانت البساتين القائمة على الضفة الشرقية تسقى بصفة اصطناعية من النهر حسب الطريقة التالية :-

يجري حفر قناة تمتد من النهر مسافة عشرين أو ثلاثين قدما ثم يقام فوق هذه القناة اطار من جذوع النخيل فيستعمل جزءان من أحد الجذوع بصفة صاريين ويربط بهما بشكل متقاطع جذع آخر بمثابة عمود بينا يستقر جذعان

آخران على هذا العمود ويتدليان الى الداخل حيث تربط في نهايتيهما بكرتان ينزلق عليهما حبل يربط في احدى نهايتيه دلو كبير من الجلد يهبط بفعل ثقله الى القناة فيمتليء بالماء في حين تشد نهاية الحبل الاخرى بثور يصعد ربوة اصطناعية منحدرة في زاوية قدرها خمس وأربعون درجة وبهذه الوسيلة يرفع الماء بيسر ثم ينسكب من الدلو عبر انبوب طويل من الجلد في قناة أعلى من مستوى أرض المزرعة ليتخذ سبيله الى الخزان العام هناك . ولكل من هذه الثيران سائق يسوقها[٢٣] .

ومع ذلك فان هذه الطريقة رخيصة النفقة ومجدية يمكن استعمالها بالاعتماد على جهد حيوان واحد .

* * *

والمسافة بين تل المجلبي والتل الآخر الذي يقع الى جنوبه ـ وهذا يدعى أحيانا بذات الاسم ، وأحيانا باسم بابل ، والشائع تسميته باسم « القصر » تتجاوز الميل بالفعل . فقد عبرنا الوادي القائم بينهما فصعدنا تل «القصر» الذي كان أوسع مساحة وأقل انتظاما في شكله من التل الذي غادرناه الآن .

صعدنا هذا التل من كل ناحية كما فعلنا ذلك بالنسبة للتل السابق قبل أن نغامر في اعطاء أية نتائج عنه . وكان أول مابدا لنا هو أن هذا التل كان هو الآخر موقع قصر واسع وربما كانت الجنائن المعلقة تقوم فوقه .

ولو لم يذكر بأن القصور كانت قائمة على الجوانب المقابلة للنهر لقلت ، عند النظر الى المجلبي ، ان هناك قصرا قديما ، وان موقع القصر الجديد يقع هنا .

ولكن هذا لايختلف عن تقدير المواقع النسبية لتلك القصور ، ولاسيما بالنسبة الى النفق القائم تحت نهر الفرات والذي قيل عنه ان سميراميس كانت تنتقل فيه من قصر الى آخر دون أن تعبر النهر .

صحيح ان النهر اذ ينحني هنا نحو الشرق يشكل دورة قصيرة في ذلك الاتجاه ويغمر الاراضى الواطئة الخصبة ، ويبدو وكأنه أشبه بحوض النهر بين هذه القصور .

ولذلك اذا مانظر الى هذه الابنية كل منهما ازاء الآخر تظهر وكأنها واقعة على الجوانب المقابلة للنهر ، لكنها تكون على ذات الجانب أو الحي من المدينة بالنظر الى الاتجاه العام الذي يسير النهر فيه والذي كان قريبا من الشمال والجنوب ٠

والشيء المحقق هو اننا اذا ما اعتبرنا التلال الثلاثة الكبيرة تمثل القصر والجنائن أو برج بيلوس ، وأبنية بابل القديمة الاساسية ، فلن نشاهد على الجانب الثاني من النهر مايقابل الابنية التي افترض انها كانت تقع قبالة الابنية الواقعة على الجانب الآخر من النهر مباشرة ٠

فالارض على هذا الجانب ، كما أشير اليها في المخطط الذي وضعه المستر ريج لها ، واطئة ذات مستنقعات ولا تمثل صفات هذه التلال ، أو أي أثر لتلك الابنية التي ورد وصفها سابقا*

ومن المحتمل جدا أن تكون المياه قد أزالت ، بتوالي الزمن ، بقايا القصر الذي كان قائما في الناحية الغربية ، كما يظهر ذلك من تعرض المدينة للفيضان الذي اكتسح كل أثر للسدود التي كانت تقع على امتداد حافة المدينة** وملأت النفق الذي كان يستعمل للمرور والذى يتصل بالقصر من الشرق +

---

* [قال رب القرابين انني سأثور ضدهم ، وأمحو اسم بابل وذريتها وابنها وابن أخيها ٠ وقال الرب انني سأجعلها طعما للطير ، والمستنقعات ولسوف اكنسها مع كناسة الانقاض] ٠

[أشعيا : الاصحاح الرابع عشر الآية ٢٢،٢٣]

Isaiah : Chapte XIV V. 22, 23.

** يقول بليني « ان الفرات كان يمر وسط بابل بين حاجزين أو سدتين بنيت واجهاتهما بالآجر والقار ٠ وكان يربط شطري المدينة جسر حديدي يعتبر من احدى عجائب الشرق » ٠

[بليني : التأريخ الطبيعي الكتاب الخامس الفصل الاول] ٠

Pliny : Natural History B. V. C. 1.

+ يصف «راوولف» ، الذي انحدر في نهر الفرات من «بير»(٢٣) ووصل الى أطلال بابل نهرا ، بقايا عدد من القناطر في زمانه على مقربة من النهر وهذه القناطر أما أن تكون بقايا جسر قديم ، كما يظن راوولف نفسه ذلك أو أنها بقايا البناء الذي كان يتم الدخول منه الى النفق ٠ ويقول هذا الرحالة «ان الريف هنا

ومع ذلك فانا أقرر أن تل المجلبي يمثل القصر الجديد على اعتبار ان القصر القديم يقع في الجهة الاخرى المقابلة له مباشرة ، في حين ان معبد بيلوس يجب أن يكون موقعه في ذات الجهة ، أو غربي الفرات وفي مكان لم يتعين بعد (٢٦) ٠

اما القلعة أو القصر (والذي كان يستخدم لكلا الغرضين وهو في ذات الوقت البناء الوحيد القائم داخل الاسوار) فكان محاطا بسور خارجي يبلغ محيطه ستين فرسخا ٠ وكان يوجد داخل هذا السور سور آخر محيطه أربعون فرسخا وقد زينت واجهته بالرسوم حسبما يفعله الفرس في الوقت الحاضر ٠ وضمن هذا السور الاخير يوجد سور ثالث يحتوي رسوم الصيد ٠

وعلى الجنب المقابل من النهر ، وفي ذات الجهة التي يقع فيها معبد بيلوس، يقع القصر القديم الذي كان سوره الخارجي يقل في طوله عن السور الداخلي للقصر الجديد ٠ وفوق القصر الجديد هذا أو القلعة ، كانت تقوم الجنائن المعلقة والتي كانت — طبقا لما ذكره سترابو — تؤلف مربعا ذا أربع طبقات لكل وجه وترتفع الى علو خمسين قدما*

وكما رأينا سبق أن ذكر ديودوروس أن القصر يقع على مقربة من النهر ،

جاف وقاحل لا مجال لزرعه ، وهو خال من كل شيء الى درجة انني أخذت اشك كثيرا كيف أن هذه المدينة القوية الجبارة (التي كانت في وقت ما أعظم واشهر مدينة في العالم) قد قامت في هذا المكان وصممت اذا لم أكن قد عرفتها بموقعها وبعدد من آثاررها القديمة اللطيفة التى ما زالت بقاياها جد ظاهرة هناك ٠ وأول ما يبدو منها هو الجسر القديم الذي يمتد فوق نهر الفرات (والذي سماه النبي» باروخ(٢٤) باسم «سود»(٢٥) في اصحاحه الاول) اذ لاتزال بعض الابنية والقناطر قائمة وقد شاهدناها هذا اليوم فوجدناها ترتفع قليلا عن المكان الذي نزلنا عنده ٠ وقد شيدت هذه القناطر من الآجر وهي قوية الى درجة تثير الاعجاب بل اكثر من ذلك لاننا لم نشاهد على امتداد النهر مذ قدمنا من «بير» وفي المكان الذي يضيق فيه النهر كثيرا أي جسر ولذلك كنت أقول أن الامر الذي يثير الاعجاب هو الطريقة التي استطاعوا أن يشيدوا بها جسرا هاهنا مع العلم أن عرض النهر يبلغ نصف فرسخ على الاقل بالاضافة الى عمقه الشديد ٠

[راوولف : الصفحات ١٣٧ ، ١٣٨] ٠

* تذكرة المستر ريج ص ١٥٧ ٠

بينا تصور كل من سترابو وكورتيوس ان الجنائن تقوم على ضفة النهر • غير أن الجميع يتفقون على أن الجنائن المعلقة كانت تقع داخل المربع الذي كان القصر المحصن يقوم فيه ، أو أنها كانت متاخمة له •

يقول سترابو « ان النهر يجري وسط المدينة ، وان الجنائن المعلقة مجاورة للنهر ، حيث تسقى الجنائن من هناك » •

ويقول الماجور رنل انه يبدو أمرا طبيعيا حقا بأن الاميرة كانت تود أن تمتع نفسها بمنظر النهر الكريم الذي يبلغ عرضه فرسخا وهو ينساب على مقربة من القصر ويعود رنل فيقول ثانية « هناك قليل من الشك في أن مساحة الجنائن المعلقة كانت أقل من ثلاثة أفدنة ونصف الفدان » •

ويقول ديودوروس أن الجنائن كانت تؤلف مربعا مساحته أربعمائة قدم • بينا يذكر « كورتيوس » أن الجنائن كانت مدعمة بعشرين جدارا يبعد الواحد عن الآخر أحد عشر قدما ، وان هذه المسافات ، بالاضافة الى سمك الجدران ، تجعل المساحة أربعمائة قدم على الاقل • وكانت هذه الجنائن تشاهد من فوق أسوار المدينة وقيل عنها أنها كانت ترتفع الى مائة قدم*

* يقول «بليني» ان محيط القلعة كان يبلغ عشرين فرسخا ، وان طول قواعد أبراجها ثلاثون قدما ، وارتفاعها ثمانون قدما • وقد شيدت الجنائن المعلقة هنا على أعمدة ، وقناطر ، وجدران وهي تضم منبسطا من الارض يروي من النهر بواسطة الآلات ، وتنتج هذه الارض غابات ذات أشجار عالية •

وكان ارتفاع الجنائن المعلقة مساويا لارتفاع اسوار القلعة • وبالنظر للهواء الطلق الذي كانت تتمتع ، فقد كانت تنتج كل أنواع الثمار •

وكان الظل الذي يخيم على المكان وبرودته المنعشة لذيذا جدا حتى في مثل ذلك الجو •

وقدقيل أن ملك سوريا (٢٨) الذي كان يحكم بابل هو الذي شيد هذه الجنائن تكريما لزوجته التي كان يحبها حبا عنيفا والتي كانت تتشوق الى الاشجار والغابات • وبهذا الوسيلة أصبحت وهي وسط مدينة عظمى تتمتع بمباهج حياة الريف .

[بليني : التأريخ الطبيعي الكتاب الخامس الفصل الاول]
Pliny : Natural History Book 5 Chap. 1.

والشيء الواضح ان الجنائن المعلقة نفسها كانت تضم أبنية بالاضافة الى الابنية القائمة في التلال المرتفعة التي تقوم الجنائن عليها •

وبذلك تكون الجنائن ذاتها من أشهر الابنية في بابل • ولا يمكن تقدير العمل والنفقات التي أنفقت على بناء الجنائن ويكفي أن نقول بانها كانت مزينة بالابنية الفارهة كالمنازل الصيفية ، وعرائش البساتين ، والمظلات وما شاكلها مما تشتهر به المدن الثرية في الشرق •

يقول ديودوروس مندهشا أن الآجر الذي شيدت منه جدران القصر الكبير كان يحوي صورا ملونة لمختلف الحيوانات وتمثل هذه الصور حفلة عامة لصيد الحيوانات المتوحشة •

ولما كانت الجنائن تؤلف جزءا من القصر فانها بمجاورتها له ووجودها داخل السور الواسع الذي يحيط بالقصر والبالغ طوله ستين فرسخا وعرضه أربعين فرسخا ، ربما كانت تضم في أطرافها الداخلية زخارف شهيرة أشبه بالزخارف المنقوشة في الباحة الداخلية أو على جدران القصر •

قد يكون من الاهمية بمكان فحص مظاهر التل الثاني ومدى تطابقها مع المظاهر التي تعزى الى القصر والجنائن في المراجع التي اقتبسنا منها قبلا •

فالجنائن تقع على مقربة من حافة النهر كيما يمكن ارواؤها من ماء النهر بواسطة الآلات • ولما كانت الجنائن تبعد عن القصر زهاء ميل ، ونظرا لعدم وجود تل مماثل قريب ، فان ذلك كله يؤكد دعوى المشابهة في الموقع •

ويقدر المستر ريج مساحة هذا التل بسبعمائة يارد طولا وعرضا ، ويقول أن شكله قريب من المربع لكن زاويته الجنوبية الغربية تتصل بالزاوية الشمالية الغربية للتل الكبير والذي ينطبق عليه ذات اوصف ويسمونه « عمران » اذ أن ارتفاعه ملموس وعرضه يبلغ زهاء مائة يارد •

ويؤلف تل « عمران » الكبير شكلا مربع الاركان طوله الف ومائة يارد ، وعرضه ثمانمائة يارد • وارتفاع التلين ليس منتظما لكن ارتفاع الاول منهما

يتراوح مابين ستين وسبعين قدما ، بينا يتراوح ارتفاع الثاني مابين خمسين وستين قدما فوق مستوى أرض السهل •

والى جانب ذلك تقوم ربوتان كبيرتان مستويتان يربط بينهما ممر ارتفاعه مناسب وعرضه زهاء مائة يارد ، في واد طوله خمسمائة وخمسون يردا والربوتان متقاربتان في العرض ، ويبلغ طول الساحة التي تقومان فيها الفين وثلثمائة وخمسين ياردا ، وعرضها ثمانمائة يارد ، وارتفاعها حوالي عشرين يارد •

ويوجد بين هذه التلال والنهر تل آخر يسير بامتداد حافة النهر يسميه المستر ريج بالسدة ، كما وصفه هكذا • فهو يقول عنه « على ضفة النهر تقع الخربة (ب) التي سأطلق عليها اسم السدة لغرض الايضاح • وهذه تبدأ في خط مع أقصى الجزء الواطيء من التل الجنوبي الكبير أو (تل عمران) وتبلغ مساحة قاعدتها شرقي الزاوية التي يبدأ منها التل حوالي ثلثمائة يارد ، ومن هناك تنحدر نحو الجنوب الشرقي الى أن تصبح متوازية مع التل ذاته تقريبا • وبعد أن تمتد أكثر من أربعين ياردا خارج ذلك الحد تأخذ بالاختفاء في السهل فتصبح في أقصى الجنوب بالنسبة الى كل الخرائب •

وتمتد السدة في خط مستقيم نحو الشمال ثم يتناقص عرضها ويزداد انحدارها الى أن تصل الى مسافة سبعمائة وخمسين ياردا عن النقطة التي بدأت منها ويكون ارتفاعها هنا زهاء أربعين قدما وتتقاطع مع النهر عند الفتحة (ج) التي تكون من نفس العرض • وهنا تتصل هذه السدة بقطعة من أرض منبسطة نشأت عن تغيير طفيف في مجرى النهر يبلغ طولها مائة وعشر ياردات» •

وأوسع عرض لهذه الارض هو مائتان وخمسون ياردا وعلى امتداد قاعدتها تبرز آثار اتصالها بالسدة التي تشكل هناك خطا ضيقا سرعان ما يختفي » •

وحين يتحدث المستر ريج ، في محل آخر من تذكرته عن تل المجلبي ، أو خربة « بيترو ديلا فاله » والتي يفترض فيها أن تكون بقايا القصر المحصن يقول « تقع خربة بيترو ديلا فاله في النهاية الشمالية للمخطط • ومن الزاوية الجنوبية الشرقية (التي اندرست نتيجة حفر قناتين فيها بعد أن كانت متصلة يوما ما) تتفرع

حافة ضيق أو تل ترابي يعطي مظهر الموقع الذي كان يقع فيه السور المتاخم •

وتشكل هذه الحافة مايشبه الباحة المستديرة ثم تتصل بالنقطة الجنوبية الشرقية للطرف الجنوبي الاقصى للتلين الكبيرين » • ويضيف ريج الى ذلك قوله « ويحيط ـ بالمنطقة كلها حاجز من الشرق والجنوب ، وعند النهر في ناحية الغرب، يبلغ عرضه ميلين وستمائة يارد • ومن خربة بترو ديلا فاله الى أقصى التلال في الجنوب مما سبقت الاشارة اليه قبلا ، يكون طول هذا الحاجز من الشمال الى الجنوب ميلين والف يارد » •

لقد جمعت هذه الاسانيد بدلا من أن أدون أية أوصاف من قبلي وذلك يعود الى أهمية الحقائق المستندة الى مشاهدات الغير أولا ، وثانيا لانني طوفت في تلك الارض وانا أحمل معي المخططات والملاحظات التي أبداها المستر ريج حيث أكدت المشاهدة دقة تلك الملاحظات وهكذا غدت تلك الحقائق البارزة وكأنها تعود لي بعد أن اخترتها وأصبحت تؤلف خير أساس لما سيجري حولها من مناظرات واستنتاجات •

وقد اتضح لنا من كل هذه التفصيلات التي جمعناها انه كان على مقربة من مكان القصر المفترض وعلى مسافة قصيرة من حافة النهر ، تلان كبيران يرتفعان الى علو ستين قدما يربط بينهما ممر عريض مرتفع ، ويقعان قبالة السدة على ضفة النهر • ويبلغ طول البقعة التي تحتلها التلال بوضعهما الراهن الفين وثلثمائة وخمسين ياردا ، وعرضها الفا ومائة يارد •

توصف الجنائن المعلقة بانها تقع في هذا المكان على وجه التحديد ، قريبا من القصر وغير بعيد عن ضفة النهر • وكانت تسقى بالآلات من ماء النهر •

وذكرت بعض المراجع ان ارتفاع الجنائن كان خمسين ذراعا • وقد تجاوز بعض المؤرخين هذا الرقم الى مائة قدم وقالوا أن مساحتها كانت تبلغ ثلاثة أفدنة ونصف • وهذا الارتفاع المفترض مقارب للحقيقة حسبما هو متوقع بالنسبة لبعد الزمن ، وكلما يبقى هو أن يرى كيف أن مساحة الارض التي تحتلها اطلالها الآن تأتي موافقة تقريبا للمساحة التي حددت لها حين كانت كاملة البناء •

وقد قيل أن القصر والجنائن كانت محاطة بسور خارجي طوله ستون فرسخا وآخر داخلي طوله أربعون فرسخا ، وثالث لم تحدد أبعاده • والنهاية الجنوبية للسور الخارجي يمكن رؤيتها في الحافة التي تمتد نحو الجنوب الشرقي من الزاوية الشرقية للسدة (ب) قرب النهر ، والتي تؤلف أقصى خربة في الجنوب وعلى بعد أربعمائة يارد الى الجنوب من السور المتاخم (أ) • أما النهاية الشمالية لهذا السور ذاته فإن آثاره تبدو في شكل حاجز شاهده المستر ريج الى الشمال الغربي من تل المجلبي بمسافة سبعين ياردا ، كما لاحظته أنا أيضا • أما السور الداخلي البالغ أربعين فرسخا فما يزال ظاهرا تماما في التل المستدير المؤشر عليه بالحرف (أ) في مخطط المستر ريج والذي يقول عنه انه كان في وقت ما متصلا بالمجلبي أو القصر ، ولكن تفصله عنه في الوقت الحاضر قناتان وما يزال محافظا على اتصاله مع الزاوية الجنوبية الشرقية لتل عمران الجنوبي الكبير والذي يفترض أن يكون مقر الجنائن المعلقة •

أما السور الثالث فيمكن العثور عليه في التلين الطويلين المستقيمين (هـ ، و) وان رقة المواد التي انشىء منها ذلك السور قد سهلت خرابة دون شك •

نستطيع الآن أن نقارن بدقة الوصف المفصل لتلال الآثار هذه في وضعها الراهن مع الشواهد القديمة التي تخصها •

لقد رأينا ديودوروس يصف السور الداخلي للقصر والذي كان من المؤكد مروره بالقرب من هذا المكان ، بانه حلي بالقاشي المصور الذي يحمل صور الحيوانات ومناظر الصيد وغيرها • حيث ذكر ان الابنية المشيدة في هذه الحدائق كانت مزخرفة ومن أفضل المباني المعروفة في ذلك العصر •• ويقول الرحالة «بوشان»[٢٩] عند الحديث عن التل الثاني الذي يبدأ من جهة الشمال ، بعد أن شاهد المجلبي الذي سماه «جبل بابل» ، «وفوق هذا الجبل من ناحية النهر تقع الخرائب الهائلة التي استخدمت موادها وما تزال تستخدم في بناء «الحلة» المدينة العربية التي تضم عشرة أو اثني عشر الف نسمة • هنا عثر على الآجر الواسع السميك المطبوع بحروف غير معروفة ، والذي احضرت منه نماذج الى «الاب

بارتلمي»[٢٩] • فهذا المكان وجبل بابل يدعوهما العرب عادة باسم « مقلوب» أي قلب عاليها سافلها •

ولقد انبأني المعمار الذي استخدم لحفر الآجر ان الاماكن التي كان يحفر فيها تتألف من أسوار كبيرة سميكة وغرف أحيانا • ولقد عثر ذلك الرجل على أوعية من الطين ، ورخام منحوت كما عثر قبل ثماني سنوات على تمثال بحجم الانسان القي به بين الانقاض • ويقول انه وجد على جدار احدى الغرف صورة بقرة وشمس وقمر مصنوعة من الآجر الصقيل المدهون • كما عثر أحيانا على تماثيل من الطين تمثل شخوصا بشرية • ولقد عثرت على آجرة عليها صورة أسد ، وعلى أخرى غيرها تحمل صورة نصف قمر من الافريز» • وبعد أن يصف العثور على كتلة كبيرة منحوتة من حجر أسود ، وقطعة بيضاء حمراء جميلة من الغرانيت في الخرائب الشرقية ، يقول « وفي ذات الجهة من المدينة ،كما أخبرني المعمار ذلك، توجد جدران من الآجر الصقيل المصبوغ يعتقد انها تمثل أحد المعابد »*

وحينما تحدث المستر ريج عن هذا التل ذاته الذي يدعوه بتل الآثار الكبير الثاني (عند المجيء من ناحية الجنوب) قال عنه «هذا هو المكان الذي اجرى بوشان مشاهداته فيه ، وهو في الواقع أهم جزء من آثار بابل • فكل أثر قابل للاكتشاف فيه يؤكد انه كان يتألف من أبنية أكثر ضخامة من بقية الابنية التي بقيت آثارها في الحي الشرقي ، فالآجر من أجمل الاوصاف وعلى الرغم من كثرة ما نقل وما ينقل الآن منه ، فان الآجر في هذا المخزن الكبير مايزال وفيرا •

وبالاضافة الى المواد الظاهرة بصفة عامة على سطح هذا التل ، فقد عثرنا على قطع عديدة من الرخام المعرق ، وأوعية من طين لطيف ، ومرمر ، وكميات كبيرة من القاشي المدهون مايزال تزجيجه وتلوينه جديدا بصفة مدهشة +

---

* انظر مرجع بوشان الذي اقتبسه الميجر رنل في الفصل الذي كتبه عن بابل في كتابه مصورات جغرافية هيرودوتس •

** تذكرة ريج في مجلة «كنوز الشرق» ص ١٤١

وأعقب اكتشاف الجدران والممرات التي تقع داخل الارض العثور على أسد ذي أبعاد متقاربة يقف على قاعدة وقد نحت من الغرانيت الاغبر اللون ، ويعتقد انه هو ذات القطعة التي أشار اليها بوشان لكنه لم يرها ولم يصفها تماما •

وعلى هذا التل يقوم البناء الذي يدعوه السكان المحليون بالقصر ، وبقاياه تشبه تمام الشبه أحسن أنواع الابنية المشيدة بالآجر في أوربا • ذلك أن من يشاهد بناءا كهذا في شكله ولونه وتكوينه في أي مكان غير مكانه الحالي ، يعتقد انه من بناء هذا القرن الذي نعيش فيه • ولقد عمل المستر ريج صورة لهذا التل ليضيفها الى تذكرته التي تؤكد صحة ماتحويه من صوره الاخرى • أما وصفه للتل فهو دقيق جدا • ولذلك فان نقل هذا الوصف سيكون أفضل من كل ما أقوله ، مادامت المادة واحدة مهما اختلف شكل الكلمات التي تستخدم للتعبير • يقول ريج « القصر أثر بارز لم يكتشف ، وهو يرى من الجزء الذي تم حفره من الانقاض ، من على مسافة ملحوظة • لكن الشيء المدهش هو انه يبدو جديدا في مظهره ، وانني بعد أن فحصته بدقيقة واحدة تأكد لدي انه بقايا بابل • وهو يتألف من عدة جدران وأعمدة (تقابل النقاط الاساسية) يبلغ سمكها ثمانية أقدام • وقد حليت في بعض الاماكن بالاقواس ، وعززت في أماكن أخرى بالفصوص والركائز ، وشيدت بالآجر الجميل (وهو مايزال نظيفا ومشحوذا) الذي بني بالقدر في دقة متناهية غير مألوفة الى درجة أن الذين اعتادوا استخراج الآجر منها لاستعماله في البناء قد توقفوا عن العمل بسبب صعوبة استخراجه • لقد تهدمت الاجزاء العليا من هذه الجدران • ولربما كانت اكثر ارتفاعا •

أما خارج التل فقد كشفت هذه الجدران في بعض الاماكن الى مايقرب من أسسها لكن الساحات الداخلية التي تتألف منها ملىء بالانقاض حتى القمة في بعض أقسامها*

أما الجنائن المعلقة (كما يدعونها) والتي تقع في منطقة مساحتها ثلاثة أفدنة ونصف فكانت تحوي أشجارا ذات أحجام كبيرة • ويقول الميجر رنل « لايوجد

* تذكرة ريج في مجلة «كنوز الشرق» ص ١٤٣ •

مايؤكد أن تلك الاشجار كانت من الانواع التي تختلف عن تلك التي تنمو في التربة البابلية الخصبة • ويقول كورتيوس أن بعض هذه الاشجار كان محيطها ثمانية أذرع • بينا يذكر سترابو انه تم ابتداع وسيلة في الجنائن لتحول دون انهدام السقف بفعل جذور الاشجار وذلك ببناء أعمدة مجوفة واسعة كانت تملأ بالتراب كيما تغوص جذور الاشجار فيها • ويواصل نفس المؤلف قوله بأن هذه الاشجار ظلت قائمة في ذات البقعة التي نمت فيها على الرغم من اختفاء الجنائن وذلك بسبب تهدم الاعمدة والجدران التي كانت تدعمها » •

هكذا تبدو الحقيقة • فالى مسافة بضع خطوات الى الشمال الشرقي من أنقاض هذه الجدران والاعمدة لاتزال في الساحة الداخلية المليء بالتراب والانقاض ترى شجرة شهيرة قائمة يدعوها السكان المحليون «أثل»[٣٠] ويزعمون انها ازدهرت في بابل القديمة وقد حفظها الله بين الانقاض لكي يهيء بذلك مكانا ملائما « لعلي » يربط جواده بها بعد موقعة الحلة[٣١] •

وهذه الشجرة من الانواع غير المعروفة في هذه الانحاء اطلاقا • وقد ذكر المستر ريج عن وجود شجرة أخرى من نفس النوع في البصرة[٣٢] وعلى كل حال فان هذه الشجرة من نوع نادر وان عمرها طويل على وجه التأكيد ذلك لان جذعها، ومحيطه واسع ، لايؤلف سوى النصف الاجرد المتسوس منه ، أو هو الجزء المستطيل الذي لو وجد داخل الارض فسيكون متهرئا وغير صالح لاي غرض ومع ذلك فان الاغصان القليلة المتهدلة من قمتها لاتزال خضراء زاهية •

وكما لاحظ الغير ، ورأينا نحن بانفسنا ، يخرج من هذه الشجرة ، حين تهب الرياح باتجاهها ، صوت حاد كئيب أشبه بصفير العاصفة حين تصطدم بحبال السفينة في البحر • ورغم سمك الشجرة فان ارتفاعها لايزيد عن خمسة عشر قدما ، وهي لاتحمل سوى بضعة أغصان • وهي تعد من الاشجار دائمة الخضرة ويعتقد انها تشبه شجرة « التوت »[٣٣] وأوراقها ذات أوردة طويلة وأوراق صغيرة متفرعة تضارع الاناناس أو الصنوبر لكن خضرتها أخف ، واغصانها لينة كالصفصاف •

والواقع ان بقاء مثل هذه الاشجار في المكان الذي غرسها فيه القدامى أمر محتمل • ومن المؤكد أن تكون هذه الشجرة الفريدة التي تقف اليوم على قمة هذا التل ، واحدة من أشجار الجنائن المعلقة • بل من المحقق انها لم تغرس في وقت متأخر فوق هذه الكومة من الخرائب • وهذا يؤكد عدم وجود أية وسيلة أخرى معقولة لظهور مثل هذه الشجرة وفي مكان غير اعتيادي كهذا المكان •

وقد يصبح من المعقول أن نرى هذه الشجرة في التل الذي قيل عنه انه كان موقع الجنائن المعلقة ففي هذا المكان بالذات عثر المستر ريج على آجرة تحمل صورة رفش مما يستخدمه العرب اليوم في الحدائق وقد خيل الى المستر ريج ان هذه الصورة نادرة وفريدة وانها تستحق أن تصور وعلى هذا الاساس ارفقها مع تذكرته لانه لم يعثر على آجرة أخرى مماثلة لها في أي جزء من اطلال هذه المدينة الواسعة •

شروح وتعليقات المعرب على الفصل العاشر

(١) خان الكهية ليس هذا هو الخان المعروف بهذا الاسم والذي يقع في محلة الميدان بجانب الرصافة • انما هو نزل يقع جنوبي بغداد وعلى الطريق بينها وبين كربلاء والنجف مما ينزله المسافرون في هذا الطريق ولا يوجد له أثر في الوقت الحاضر •

(٢) خان أسد من الخانات المنبثة على الطريق بين بغداد والنجف وكربلاء والحلة ولم يعد له أي أثر الآن •

(٣) نهر ملكا ويسمى نهر الملك أيضا وهو نهر قديم عرف منذ عهد البابليين يتفرع من نهر الفرات جنوبي مدينة (الانبار) القديمة ثم يسير الى الجنوب الشرقي فالجنوب حتى يصل الى الكوفة وقد عرف في المصادر البابلية باسم نرشاي أي نهر الملك •

(٤) خان مزرقجي اوغلو Mezrakjee Oghlou لا وجود له في الوقت الحاضر

(٥) مدينة نهر الملك لم يثبت تأريخيا وجود مدينة على نهر الملك تحمل هذا الاسم اذ أن أهم المدن التي كانت تقع على هذا النهر هي ساباط كسرى على مقربة من بغداد والى الجنوب منها مدينة « بهر سير » التي تقع جنوبي غربي سلوقية وفي نقطة تقابل «المدائن» (سلمان باك) على الجانب الغربي من دجلة •

(٦) كوينتوس كورتيوس Quintus Cortius من أقدم المؤرخين الرومان وقد طاف بلاد سوريا والعراق وفلسطين وكتب عن مشاهداته تلك مؤلفا موسعا وقد وصف مدينة بابل وصفا ممتعا ويعد كتابه من المصادر الهامة عن تأريخ العراق القديم رغم بعض الاخطاء الكبيرة الواردة فيه والتي تتعلق بمواقع بعض الاماكن •

(٧) مغاسثينيس Magasthenes مؤرخ يوناني •

(٨) بيروسوس Berosus كاهن معبد بابل وهو الذي ترجم الى اليونانية مؤلفات البابليين عن الفلك والتنجيم • ووضع عن بابل تأريخا مفصلا يقع في ثلاثة أجزاء وقد نشر هذا الكتاب باليونانية في عهد حكم انطيخوس سنة ٢٥٠ ق•م وقد ضاعت مؤلفات بيروسوس ولكن بقيت منها فصول في مؤلفات يوسفس واميانوس •

(٩) أبيدنوس Abydenos مؤرخ أغريقي •

(١٠) الدكتور بريدوكس Dr. Preadux صاحب كتاب الصلة بين الانجيل القديم والحديث •

(١١) سدوم وعمورة مدينتان قديمتان ذكرتا في التوراة اشتهر أهلها بالظلم والفساد فأصيبتا بزلزال دمرهما وقضى عليهما قضاء مبرما • وقد قيل أن موقع هاتين المدينتين كان في فلسطين •

(١٢) الحيوان الخرافي هو المعروف باسم ساتير Satyre وكان الاقدمون يعتقدون أن نصفه من البشر والنصف الآخر من الماعز •

(١٣) تذكرة بابل Memoir of Babylon مؤلف خاص دون فيه المقيم البريطاني في بغداد كلوديوس ريج في سنة ١٨١٤ كل مشاهداته وتحرياته عن اطلال بابل وقد نشر هذا البحث لاول مرة في مجلة « كنوز الشرق » التي كانت تصدر بالفرنسية آنذاك في فينا عاصمة النمسا •

(١٤) البارون فون هامر Baron Von Hammer من المتخصصين بعلم الشرقيات لدى الالمان في القرن التاسع عشر وكان يشرف على تحرير مجلة كنوز الشرق وقد زار هامر الامبراطورية العثمانية ووضع عنها مؤلفا قيما سماه تأريخ الدولة العثمانية •

Purgetall Geschichte Der
Osmanischen Reiche

(١٥) الفلوجة عرفت في المصادر المسمارية باسم بلوكتو وسماها الآراميون باسم بلوكتا ويرجع بناؤها الى عهد الآشوريين • وقد أطلق الرحالة الاوربيون عليها اسم فيلوكيا وفيلوجيا بينا سماها العرب باسم صهباجا أيضاً •

(١٦) بيترو دللا قاله Petro Della Valle ابن لعائلة رومانية غنية وبعد أن فشل في حبه قرر الرحيل الى الشرق فبدأ رحلته فيه سنة ١٦١٤ حيث أبحر من البندقية الى القسطنطينية ومنها سافر الى الشام وحلب وقد تزوج أثناء وجوده في سوريا بفتاة تدعى «معن» ومن سوريا رحل الى العراق سنة ١٦١٦ عن طريق حلب حيث هبط بغداد وزار آثار بابل وكان أول من كتب عن هذه الآثار باسهاب بعد الوصف الذي أورده عنها الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي وصحح موقعها بالنسبة لبغداد ومكث ديلا فاله في العراق حتى سنة ١٦١٧ ثم رحل عنها الى ايران •

(١٧) ستاس الكنديني Cetsias the Cnidian مؤرخ اغريقي •

(١٨) كلتا رخوس Clitarchus مؤرخ روماني

(١٩) الآلهة يونو Juno زوجة الاله جوبتر •

(٢٠) الاله «أيا» أو «عي» Rhea هو ابن الاله آنو أبو الالهة في بابل و «أيا» هو اله الحكمة عند البابليين واله المياه والخضرة •

(٢١) هذه الواسطة التي اسهب المؤلف في وصف شكلها وترتيبها هي «الكرد» الذي كان يعتبر الاداة الوحيدة المستعملة لرفع الماء من الانهر في العراق قبل أن تعرف المضخات في العصر الحديث •

(٢٢) قرية بير على شاطيء الفرات داخل الحدود السورية وكان الطريق القديم الذي يربط سوريا بشمال العراق يمر بهذه القرية •

(٢٣) النبي باروخ Baruch واسمه بالعبرية «المبارك» أحد الشخصيات اليهودية التي ورد ذكرها في التوراة • اشترك مع النبي أرميا وكان سكرتيرا له والناطق باسمه ووضع باروخ كتابا عن التوراة وبعض الاحداث التأريخية وظل كتابه هذا مجهولا الى أن عثر على ترجمة سريانية له في مكتبة ميلان

الايطالية في القرن السادس الميلادي وكانت هذه الترجمة منقولة عن اليونانية.
وقد عرف هذا الكتاب باسم Apocalypse of Baroch

(٢٤) سود Sud الذي نعتقده ان هذا الاسم لم يطلق على الجسر وانما على معبد قريب منه .

(٢٥) الثابت بصفة قاطعة ان معبد «بيلوس» والمسمى عند العامة خطأ باسم بـرس نمرود أو برج بابل ، كان قائما في مدينة بورسيبا (برسباي أو بئر سبع) التي تقع على مسافة خمسة عشر كيلومترا جنوبي غربي الحلة وان هذا المعبد قد شيده الامبراطور نبوخذنصر (بختنصر) للآله « نبو » في تلك المدينة .

(٢٦) ذكرت سوريا Syria هكذا وذلك خطأ واضح ولعل المقصود به اشـــور Assyria حيث يعتقد بعض المؤرخين القدامى خطأ أن ملك اشور هـــو الذي بنى مدينة بابل وانشأ الجنائن المعلقة فيها .

٢٨) الرحالة بوشان هو الاب جوزيف بوشان Abbe Joseph De Beauchamp رحالة فرنسي قدم الى العراق سنة ١٧٨٣ م وقد أسهب في وصف مدينـــة بغداد بصفة خاصة وقد جاء اليها قادما من سوريا عن طريق حلب فالفـــرات ودون بوشان مشاهداته هذه عن العراق في المجلة الباريسية الشهيرة «صحيفة الحكماء» Journal Des Savans بعنوان مشاهدات عن آسيا
Observations Faites en Asie
وذلك في عدد شهري حزيران وتموز من تلك الصحيفة سنة ١٧٨٤ .

(٢٩) الاب بارتلمي Abbè Barthelemy

(٣٠) أثل Athelo لعل المقصود بها شجرة الاثل المعروفة .

(٣١) يقصد به علي بن أبي طالب (رض) وتلك واحدة من حوادث كثيرة يرويها أبناء الشيعة عنه كرم الله وجهه .

(٣٢) ربما كان المقصود بذلك الشجرة الموجودة في القرنة والتي لا يزال الاعتقـاد سائدا بين العراقيين على انها هي الشجرة التي استظلت بها حواء أم البشر .

كلمة شكر

أتقدم بالشكر الجزيل الى السادة الأفاضل :

القانوني والمحقق البارع الاستاذ محمد أحمد المحامي «البصرة» الذي تفضل مشكوراً فأعارني النسخة الانكليزية من رحلة المستر بكنغهام هذه .

الاســـتاذ المحقق كوركيس عواد الذي شجعني على ترجمة هذه الرحلة وأبدى ملاحظاته القيمة عن الترجمة .

الدكتور يوسف عز الدين الأمين العام للمجمع العلمي العراقي لمساعدته الأدبية القيمة .

الصـــديق التاجر عبدالحميد غفوري الـــذي كانت لمساعدته المادية اليد الطولى في اخراج هذه الترجمة .

بغداد ٣١ تموز ١٩٦٨ **سليم طه التكريتي**

سيصدر قريبا

الجزء الثاني من

رحلة بكنغهام الى العراق

وهو يضم مشاهداته عن الحلة وبغداد ، وسفره من بغداد الى ايران عن طريق خانقين ثم عودته من بومباي الى البصرة .

رحلة راولف

سنة ١٥٧٤

ترجمة سليم طه التكريتي

من أعظم الرحلات وأقدمها الى العـراق لقد أكملنـا ترجمتها واعدادها للطبع في اقرب وقت ممكن .

الفهـــارس

(١) محتويات الكتاب

(٢) فهرس الشروح والتعليقات

(٣) فهرس الصور

الصفحة	الصورة
على الغلاف	الرحالة بكنفهام بالملابس العربية
٦١	أحد الاسواق المسقفة في الموصل
٦٢	جسر الموصل
١٢٤	قرية عين كاوه
١٢٥	قصبة كفري
١٧٠	أحد الممرات الجبلية بين قره‌تبة ودلي عباس
١٧١	مدخل باب المعظم في بغداد
٢٢٧	جسر بغداد
٢٢٨	قبر الست زبيدة في بغداد

(٤) فهرس الأقوام والطوائف والأديان

(٥) فهرس الأشخاص

(٦) فهرس الأمكنة والبلدان

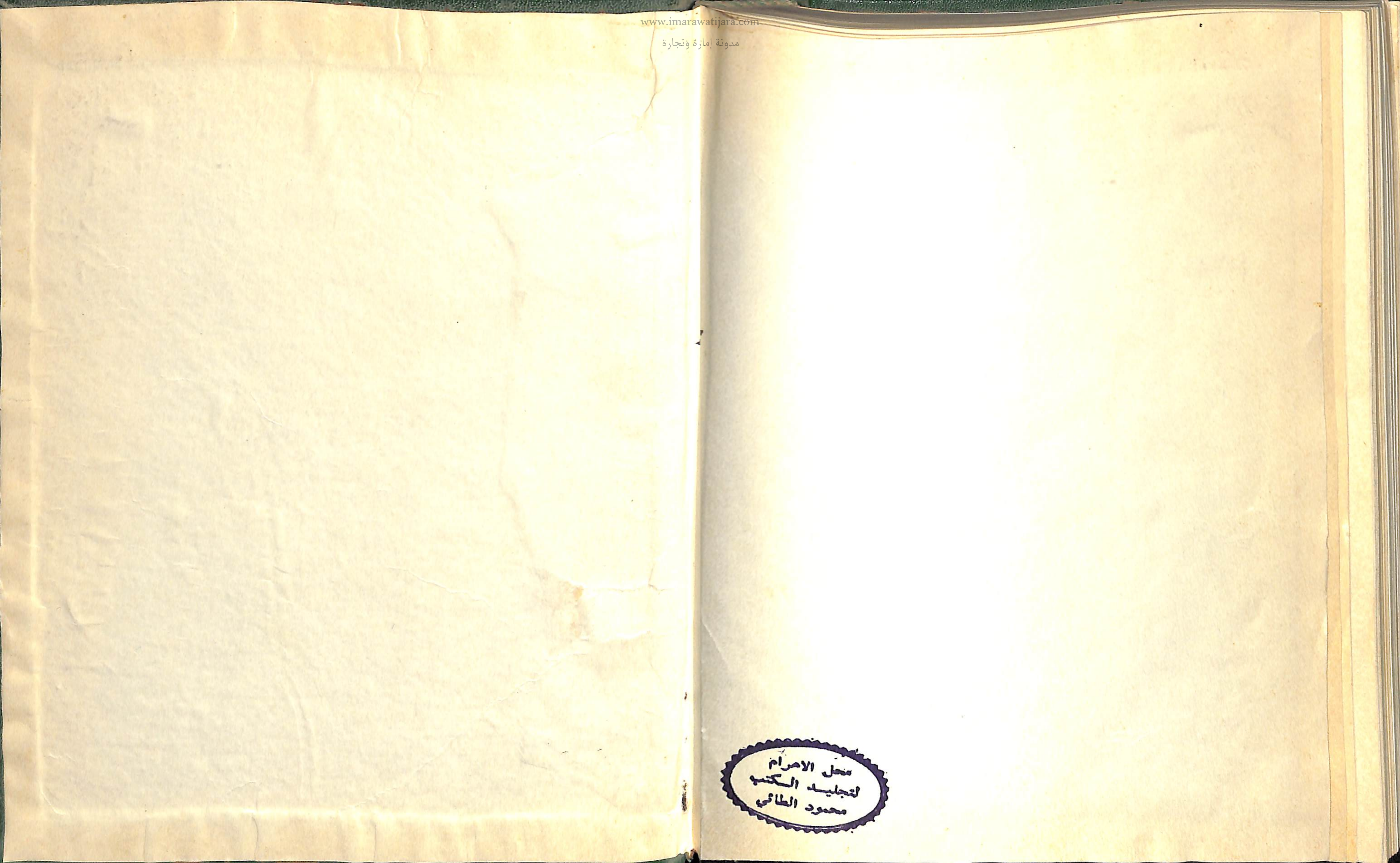
(٧) فهرس المراجع الواردة في الكتاب

(٨) فهرس الخطأ والصواب

على الرغم من الجهد الكبير الذي بذلناه في التصحيح فان عدم الدقة في اجراء التصحيحات قد أدت الى وقوع أخطاء كثيرة آثرنا الاشارة الى البارزة منها .

الصفحة	الخطأ	الصواب
١١	اسل	اهل
١٦	Glddon	Glbbon
١٧	(٩٣)	(٣٩)
٢٦	رادولف	راوولف
٢٩	عنده	عندها
٣١	Bozaodi	Bozabdi
٣٦	يوميوس	يوليوس
٧٢	شرح	شرع
٧٣	يرتبدون	يرتديان
٨٧	مان	ما ان
١٠٠	الاندلس	الاندلسي
١٠٠	باشوية	باشوات
١١١	العرموشية	الحرموشية
١١١	سماميس	سمرامين
١١٣	نكون	نيوتن
١٢٧	ساريوس	داريوس
١٣٥	الادريس	الادريسي
١٤٢	كان	كانون

الصفحة	الخطأ	الصواب
١٤٣	بطا يموس	بطليموس
١٤٤	كوم	كرم
١٥٤	مارسيوس	مايسوس
١٥٧	مقاعد	ومقاعد
١٦٨	اطلاق	اطلاق
١٦٨	من	بن
١٧٤	زيتفون	زينفون
١٧٥	رسليه	رميلة
١٧٥	الماكان	المكان
١٨١	الفتيان	بالفتيان
١٨٤	الموسقية	الموسيقية
١٨٥	نيللينو	بللينو
١٨٥	شوءنه	شؤنه
١٨٧	اودورينه	اودورنيه
١٨٩	نيللينو	بلينو
١٩٧	ويرتفع	ويرتفع
٢٠٢	مادين	ماردين
٢٠٤	الداشي	بالداشي
٢١٨	نيللينو	بلينو
٢٢٤	سليمان	سلبمان
٢٤٥	الشكلي	الشكل


www.imarawatijara.com
مدونة إمارة وتجارة
محل الاهرام
لتجليد الكتب
محمود الطائي